مع أبي العلاء

في رحلة حياته

دكتورة عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ

مع أبي العلاء

في رحلة حياته

مع أبي العلاء

في رحلة حياته

الدكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)
أستاذة الدراسات القرآنية بكلية الشريعة ودار الحديث
جامعة القرويين : المغرب

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتاب العربي
بيروت

الطبعة الأولى

١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
اللهم يسّر وأعِن

الإهداء

إلى مَن أرهف إحساسي بأبي العلاء ،
في بسالة مجاهدته ، وشرف ضميره ،
وصفاء وجدانه وأمانة كلمته :
أستاذي أمين الخولي
تحية حب وذكرى.

المغرب : ١٩٧٢ م

عائشة

هذه الترجمة

من بضع سنين ، سُئِلتُ أن أقدم ترجمة لشاعري « أبي العلاء » في سلسلة « أعلام العرب » فترددت طويلا في أن أفعل ، كراهةَ أن أحصر حياة أديب العربية الأكبر ، على طولها وعمقها وخصبها ، في كتاب محدود الصفحات ، محكوم بقيود السلسلة التي يخرج فيها ، وهي بطبيعتها تختلف عن الطبعات العلمية التي تفرض أول ما تفرض ، إثبات مصادر المادة التاريخية لحياة أبي العلاء ، والاحتكام إلى نصوص موثقة من الشواهد والأدلة ، في القضايا التي اختلف دارسوه عليها ، وفيما شاع عن حكيم المعرة من أحكام مرتجلة ، أخذت موضع اليقين دون تثبت ، ورددها جيلنا وأجيال قبله ، كما يردد بديهيات لا مجال لمناقشتها أو جدلٍ فيها .

غير أني كرهت مع ذلك ألا ألبي الدعوة إلى كتابة ترجمة موجزة لأبي العلاء ، تقدمه إلى جمهرة قراء العربية ، بعد أن حُجب عنهم

طويلا ، أو صُوِّر لهم على غير حقيقته التي تكشف عنها آثاره .

وقدمتُ أبا العلاء في « سلسلة أعلام العرب » على رجاء العودة إليه ، لأقدمه في طبعة منهجية حرة ، غير مقيدة بسلاسل أو حلقات .

وهذه هي محاولتي هنا ، بعد طولِ صحبةٍ لأبي العلاء في تراثه ، وتخصُّصٍ في تحقيقه ودراسته . راجية أن يطمئن القارئ إلى أنني في ترجمتي لأبي العلاء ، أعتمد أصالةً على ما تم لي من فهمٍ لشخصيته ، واستقراء لمصادر دراسته فيما وصل إلينا من آثاره ، ثم في أقوال مؤرخيه .

****

وبعد ، فقد ألفت المكتبة العربية أن تتلقى تراجم الأعلام من سلفنا ، مكتوبة بأقلام مَن يُترجمون لهم .

وأنا هنا أعدل عن هذا النهج المألوف ، وأترك لأبي العلاء أن يقدم نفسه في هذه الترجمة التي اتخذته فيها دليلا أمينا وراوية ثقة .

ذلك لأن أبا العلاء : من بين أدباء العربية ، هو الذي يمكن أن ننسق آثاره في صورة مذكراتٍ لحياته . وقد حرصت أشد الحرص على أن أترك له الحديث عن نفسه ، منذ وعى إلى أن رحل عن الدنيا . وإنما جهدي كله في أن أنقل إلى القراء كلمته ، في كل خطوة له من رحلة الحياة ...

وسلام عليه غائبا حاضرا .

الفصل الأول

الوراثة والبيئة
(قبل المولد)

المأساة، ومعركة الطموح والتحدي

في مفترق الطرق
(رحلة الى بغداد)

(١)

الوراثة والبيت
(قبل المولد)

- **أجداد وآباء :**

تنوخ ، بنو الساطع ، آل سليمان .

- **أخوال :**

بنو سبيكة .

- **الأسرة :**

الوالد ، الأم ، الإخوة .

أجداد وآباء

أتَمشي القوافي تحتَ غيرِ لوائِنـا
ونحن عـلى قُوَّالِهـا أُمـــراءُ
وما سلبتْنـا العِـزَّ قـط قبيلـةٌ
ولا بـات منـا فيهـمُ أُسَراءُ
ولا سار في عَرْضِ السَّمَاوةِ بارقٌ
وليس لـه من قومِنا خُفَـراءُ

أبو العلاء

(سقط الزند)

خرج إلى الدنيا والشمس غاربة والنهار مُدبِر . وكانت ليلته الأُولى على الأَرض من ليالي المحاق . ولولا مولده في بيت علم وفضل ، لطُوِيت تلك الليلةُ في غيابة الزمن ، ولغابت منا معالم الطفولة لذلك الوليد الذي قُدر له أن يبهر الناس بعد حين ، وأن يلفت إليه تاريخنا فيسجل

خطواتِه وأنفاسه ، منذ شَبَّ عن الطوق .

ذلك أنه حين وُلد بمعرة النعمان ، من أعمال حلب ، في مغرب الشمس من يوم الجمعة لثلاث ليالٍ بقين من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة للهجرة ، [1] لم يكن في حساب التاريخ مَن سيغدو الأديبَ الأكبر والحكيمَ العلَم ، ولا كان لأحدٍ من أهل بلده أن يتكهن بأن هذا الوليد سوف يكون أشهر مَن يُنسب إلى « معرة النعمان » فلا تُذكر في كتب البلدان والرحلات والتاريخ إلا مقترنةً باسمه ومُعَرَّفةً به ، مع أنها لم تكن مغمورة قبل مولده ، بل ذكرها مِن زمنٍ قبله : « البلاذُري » في « فتوح البلدان » و « ابن حوقل » – من جغرافيي القرن الرابع – في « المسالك والممالك » وقبلهما ذكرها « الواقدي » في « فتوح الشام » .

كل ما كان من أمر هذا الوليد ، أنه « أحمد بن عبد الله بن سليمان » سليل بيت ماجدٍ مُعرِق في الفضل والعلم ، وآباء كرام منجبين ، فيهم ميراثُ بني الساطع وعزُّ تنوخ .....

****

وتنوخ : قبيلة عربية أصيلة ، يتصل نسبها بيعرب بن قحطان جَدِّ العرب العاربة . ويمضي النسابون بها إلى بعيد ، فيصلونها بهودٍ

---

(١) ابن الأنباري : نزهة الألبا في طبقات الأدبا – ٤٢٥ ط القاهرة ١٩١٤ .
وابن الجوزي : المنتظم في أخبار الأمم : ٨/١٨٤ ط حيدر اباد .
وابن العديم : الإنصاف والتحري – ص ٥١٢ من تعريف القدماء .

ابن شالح بن رافد بن سام بن نوح عليه السلام [1] .

وكانت تنوخ بطونا من « تيم اللات » القضاعي القحطاني . سُميت بذلك لأنها تَنخَتْ من قديم بالشام ، أي أقامت ورسخت . ويقال إنهم الذين اختطوا « الحيرة » وكانوا أول من نزلها وعمّرها . وكان لهم بأس وقوة وغناء وكثرة . وماضيهم حافل بالعزة والمجد والإباء ، وكانت لهم في الجاهلية وقائعُ ظافرة مع الفرس ، فيشهد المؤرخون لتنوخ بأنها « كانت من أكثر العرب مناقبَ وحَسَبا » [2] .

وكذلك كانوا في الإسلام من أشد قبائل العرب شوكة وأكثرِهم في جند الفتوح عددا . ومن عجبٍ أنهم أبلوا مع المسلمين في قتال الفرس بلاء مشهودا ، حميةً للعرب ، وإن ظلوا على دين النصرانية ! وفي تاريخ الفتوح أنهم أبوا مع ذلك البلاء في قتال الفرس ، أن يؤدوا الجزية ، أنفةً منهم واعتزازا ببأسهم وبلائهم . فلما سار « عمر بن الخطاب » أمير المؤمنين إلى الشام ، قدموا عليه فلم يقنع منهم رضي الله عنه بغير الإسلام أو الحرب ، وأمهلهم سنتين ، على أن يؤدوا ما على أهل الذمة من جزية . فأبوا عليه وقالوا : « خذ المال مناعلى اسم الصدقة ، دون اسم الجزية » .

ورفض أمير المؤمنين أول الأمر ، ثم أجابهم إلى أن يأخذها منهم على اسم الخراج . فاستجاب له قوم منهم وأقاموا بديارهم ، وكان منهم أجداد أبي العلاء . وأسلم بعضهم في ولاية « أبي عبيدة بن الجراح »

---

(١) ابن العديم : الإنصاف والتحري : ص ٣٨٦ من « التعريف » .

وبعضهم في أيام « المهدي بن المنصور أبي جعفر العباسي » .

أما الذين لم يستجيبوا ، فدخلوا إلى بلاد الروم وهم على نصرانيتهم ، مع « جبلة بن الأيهم » آخر ملوك غسّان [1] .

****

وبنو الساطع ، الذين منهم بيوتُ المعرة : أعز بطون تنوخ . « وهم المشهورون بالشرف والسؤدد والرياسة والشجاعة والفضل » .

واسمُ الساطع : « النعمانُ بن عدي » قيل إنه لُقِّب بالساطع لجماله وبهائه . وكان جوادا شجاعا ، ملك عليهم برهة وكانت له حروب ووقائع مع أكاسرة الفرس . وشنَّ الغاراتِ على السواد ، فسُميت تنوخ على أيامه بالدواسرِ ، لما ظهر من شدتهم وبأسهم .

وبعض المؤرخين يقول إن « معرة النعمان » تنسب إليه . وآخرون منهم يذهبون إلى نسبتها إلى « النعمان بن بشير الأنصاري » وكان واليا على حِمص وقنسرين ، لمعاوية بن أبي سفيان ثم لابنه يزيد . فيقال إن ابناً للنعمان خرج في رحلة صيدٍ إلى أَجَمَةٍ كانت موضعَ المعرة ، فافترسه سبع . فجزع عليه أبوه النعمان ، وبنى له منزلا عند قبره . فبنى الناسُ لبنائه وعمرت البلدة ، ونسبت إليه .

وبيت أبي العلاء : من بني سليمان بن داود بن المطهر ، سليل الساطع . وفيهم يقول « ابن العديم » مؤرخ حلب : « وأكثر قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وشعرائها وأدبائها ، من بني سليمان » [2] .

---

(١) ابن العديم : الإنصاف والتحري — ص ٤٨٩ من : التعريف .

(٢) ابن العديم : الإنصاف ، ٤٩٠ .

وسليمان هذا : هو الجد الخامس لأبي العلاء . وَلِيَ حفده أبو الحسن سليمان بن أحمد ، قضاء المعرة . ثم تولاه من بعده ولدُه أبو بكر محمد ، جد والد أبي العلاء . وفي الجد ، أبي بكر بن سليمان ، يقول أبو بكر الصنوبري :

بأبي يا ابنَ سليمانَ لقد سُدتَ تنوخا
وهمُ السادةُ شبانا لَعَمري وشيوخا
أدرَكَ البغيةَ مَن أضحى بناديكَ مُنيخا
وارداً عندك نِيلا وفراتاً وبليخا
واجداً منك متى استصرخ للمجدِ صَريخا
في زمانٍ غادر الهِمَّاتِ في الناس مسوخا (١)

وخلَفه على قضاء المعرة ، بعد وفاته سنة ٣٣١ هـ ، ولدُه « أبو الحسن سليمان بن محمد » الذي تولى أيضا قضاءَ حِمصٍ مع قضاء المعرة . وكان محدِّثا فاضلا شاعرا ، ومن رقيق شعره في الناعورة :

وباكيةٍ على النهر ... تئنُّ ودمعُها يجري
تذكرني بأحبابي ... وحالي ليلةَ النَّفْرِ
وأذري مثلَ ما تذري ... وأسعدها ولا تدري
على فقدي لأحبابي ... وما قد ضاع من عمري
فما هي فيه مشهورٌ ... وما أنا فيه في السِّتْرِ
كأني في بسيطِ الأر ... ضِ بين الناس في قبرِ

(١) ابن العديم : الإنصاف ، ٤٩٠ .

والقاضي أبو الحسن سليمان ، هو جد أبي العلاء

توفي بحمص وهو على قضائها ، في جمادى الأُولى سنة ٣٧٧ هـ ، وحفيدُه أبو العلاء أحمد ، في الرابعة عشرة من عمره . على ما حقق « ابن العديم » في (الإنصاف والتحري) .

****

وجَدةُ أبي العلاء لأبيه : « أم سلمة بنت أبي سعيد الحسن بن إسحاق ابن بلبل المعري » .

ولِيَ أبوها الحسن قضاء المعرة . وكانت تروي الحديث . وقد عاشت حتى بلغ حفيدها أبو العلاء سِنَّ الطلب ، وعدَّها « ابن العديم » بين الشيوخ الذين سمع أبو العلاء منهم الحديث .

****

في هذا البيت الكريم الماجد ، وُلِدَ أبو العلاء .

ومن تلك السلالة المعرقة في الفضل والعزة والعلم ، تلقى ميراثه . وقد كان بعد أن شبَّ ووعى ، باديَ الاعتزاز بآله وقومه ، حريصا على تتبع مناقبهم ومفاخرهم وقراءة ديوان شعرهم . وله فيهم شعر نابض بالحب والولاء ، منه قوله في قبيلته :

أتمشي القوافي تحت غيرِ لوائنا
ونحن على قوّالِها أُمراءُ
وأي عظيمٍ رابَ أهلَ بلادنا
فإنا على تغييره قُدَراءُ

وما سلبتْنا العِزَّ قط قبيلةٌ
ولا بات منا فيهمُ أسَراءُ
ولا سار في عرض السماوة بارقٌ
وليس له من قومِنا خفراءُ

(سقط الزند)



أخواله

كأن بني سبيكةَ فوق طير
يجوبون الغوائرَ والنجادا
(سقط الزند)

اما خئولته . ففي بيت معروف من بيوتات حلب

جدُّه لأُمه : محمد بن سبيكة . وله من الولد : أم أبي العلاء .

وأخواله : أبو بكر ، وأبو القاسم علي ، وأبو طاهر المشرف .

أما أبو بكر فعجلت إليه المنية قبل أخويه . ويذكره أبو العلاء في رسالة عزاء كتبها إلى خاله أبي القاسم علي ، وقال فيها : « والله يبقيه ولا يشقيه ، ويريه في مولاي أبي طاهر وولده ، ما رآه في وَلدِه سعدُ العشيرة ... » .

وقد لفتت هذه العبارة ، الأُستاذ « محمد سليم الجندي » [1] فاستدل

---

(١) في كتابه « الجامع » طبع دمشق .

بها على ما ذهب إليه من أن أبا طاهر ، هو ابن الخال أبي القاسم ، وليس أخاه .

ولم أطمئن إلى ما ذهب إليه خلافا لما تعطيه نصوص الرسائل التي جاءت في مجموع « رسائل أبي العلاء » مما بعث به إلى خاله أبي طاهر . وليس ما يمنع أن يُعزّى الخال أبو القاسم علي ، بأخيه الحي أبي طاهر ، عن أخيه الفقيد أبي بكر .

ويكون قول أبي العلاء في عزائه : « ويُريه في مولاي أبي طاهر ، وولده » تقديماً للعزاء بالأخ ، ثم بالولد . ويأتي بعدُ مزيدُ نظر في صلة أبي العلاء بخاليه ، وكانت وثيقة متينة . ولهما في تراثه ذكر خاص يعبر عن المودة والولاء والإكبار .

ونفهم منه أن أبا القاسم كان من أعيان التجار ، بعيد الهمة كثير الأسفار .

ففي ديوان (سقط الزند) قصيدة مطولة ، أرسلها أبو العلاء إلى خاله « أبي القاسم علي » وكان قد سافر إلى المغرب فأطال الغيبة ، وأنقل هنا من أبياتها :

تُفدِّيكَ النفوسُ ولا تُفادَى
فأَدْنِ الوصلَ أو اطِلِ البعادا
ارانا يا عليٌّ وإن أقمنا
نشاطرك الصبابة والسهادا
ولولا أن يُظَن بنا علوٌّ
لَزِدنا في المقال من استزادا

وقيل : أفـــاد بالأسفار مالاً ،

فقلنا : هل أفاد بها فـؤادا ؟

وهل هانت عزائمـه ولانـــت

فقد كـانت عرائكُهـا شِـدادا

إذا سارتْكَ شهْبُ الليل قالت:

أعــان اللهُ أبعدَنــا مُـرادا

وإن جارتْــك هُوجُ الريح كانت

أكَـلَّ ركائبـا وأقـلَّ زادا

علامَ هجرتَ شرق الأرض حتى

أتيت الغربَ تختبـر العبـاد،

وإن تجـد الديـارَ كما أراد الـ

ـغريبُ فما الصديق كمـا أرادا

إذا الشِّعرَى اليمانِيَــةُ استنارت

فجـدِّدْ للشآميــةِ الـودادا

ظعنــتَ لتستفيــد أخــاً وفيّاً

وضيَّعــتَ القديــمَ المستفادا

نراسِلك التنصــحَ والقوافي

وغيــرَك مَــن نعلمـه السدادا

****

وإلى « أبي القاسم علي » بعث أبو العلاء رسالته المشهورة إثر انسـحابه

من بغداد ومن الدنيا . فبكى فيها أمه التي ماتت بالمعرة قبل وصوله إليها . واعتذر إليه عن عدم مروره بحلب ، في طريق العودة من بغداد ، اعتذارَ مقصرٍ محزون ... وذكر خاله أبا طاهر ، بالوفاء والثناء . وختم الرسالة بقوله :

« وأنا أحمل إلى مولاي ، أدام الله عزه ، وإلى مولاي أبي طاهر : عضدني الله ببقائه ، سلاما له نضرة الألاء وصفاءُ الماء ، وعذوبةُ الأَرْي وتتابع القطر وخلود النجوم وأَرجُ العرار وتـألُّقُ الوميض . » (١)

أما « أبو طاهر المشرف » فقد كان من المشتغلين بعلوم العربية . وصلت إلينا في (رسائل أبي العلاء) رسالة بعث بها من بغداد ، « إلى خاله الشيخ أبي طاهر المشرف » ومنها نعلم أنه كان مشغولا بـأمر وشرح السيرافي لكتابِ سيبويه ، كما نعلم أنه كانت بينه وبين أبي العلاء مراسلات سابقة ، حول نسخ من شرح السيرافي بخطوط مختلفة ، أراد أبو طاهر أن يعرف رأي أبي العلاء في كل نسخة منها .

وديباجة الرسالة ، شاهدة على أن أبا العلاء كان يُنزل أبا طاهر من نفسه ، منزلة السيد الشيخ ، والأُمّ الراعية الحنون ؛ فهو يحييه فيها تحية الشوق المرهف إليه ، والأَسف العميق لبُعدِه ، والحنين إلى ماضٍ معه ، يتذكره « تذكر الفطيم ثدي الوالدة » ، ويلوذ إليه فزعا إلى نجدته واثقا من مكارمه ، شاكرا أياديه شكرا «يتجدد مع النَّفَس».

وقال بعد الديباجة :

---

(١) من (رسائل أبي العلاء) نشر مرجليوث .

« وفي هذا اليوم وصل كتابه فسُرِرت به سرور الظمآن ورَدَ نميرا ، والساهِر صادف سميرا . و كان ما ضمنه من ذِكر سلامته ، بُشرى لها تخِفُّ الأحلامُ خفةَ القائل ، ولا يُلام : « يا بشرى هذا غلام»؛ واللهُ يمنُّ باجتماعٍ ليس بعده من إزماع .

« وفهمت ما ذكره من أمر النسخة المحَصَّلة ، وهو ، أدام الله عزّه ، الكريمُ المتكرم وأنا المُثقل المتبرم ... وقد كنت قلت في بعض كتبي إلى سيدي : إن كانت الخطوط مختلفةً والأبوابُ مؤتلفةً فلا بأْس ... ما عدا خط « علي بن عيسى » – الربعي [1] – فإنه رجل اتكّل على ما في صدره ، فتهاون بإحكام سطره .

« وإنما رجوت ببركته أن يرتفق أناسٌ كما قال الله تعالى : « وشروه بثمنٍ بخسٍ دراهمَ معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » ...

وأنا والجماعة نهدي إلى سيدي الشيخ وإلى جميع أصدقائه ، سلاما تأرجُ الكتبُ بحمله .... وحسبي الله » .

****

وفي أخواله بني سبيكة ، يقول أبو العلاء :

كأن بني سبيكة فوق طير
يجوبون الغوائر والنجادا

---

(١) يأتي ذكره مرة أخرى في رحلة أبي العلاء إلى بغداد . استأذن في الدخول إلى مجلسه ، فقال : ليصعد الاصطبل .
وانصرف الضرير المقترب ، مجروح القلب .

أبـــالإسكندر المَلِكِ اقتديتم

فما تضعون في بلدٍ وِسادا [1]

. . . .

****



(١) من داليته في سفر خاله أبي القاسم إلى المغرب . وقد مرت أبيات منها . أنظرها كاملة في (سقط الزند) .

الأسـرة :

الوالـد

مضى طاهرَ الجثمان والنفسِ والكـرى
وسهدِ المنى ، والجيبِ والذيلِ والرُّدْنِ
فيا ليت شِعري هل يخـفُّ وقـارُ
إذا صـار أُحْـدٌ في القيامة كالعِهْنِ
وهـل يَرِدُ الحـوضَ الرويَّ مبـادِرا
مع الناسِ ، أو يـأْبى الزحام فيستـأْني
أبو العلاء
(سقط الزند)

أما أُسرة الوليد ــ ونستعمل الأُسرة هنا بدلالتها المأْلوفة في عصرنا ، وبهذه الدلالة استعملها أبو العلاء في سقط الزند وفي رسالة الغفران [1] ــ فوالده « عبد الله بن سليمان » وُلِدَ سنة ٣٣٠ هـ ، وجدُّه أبو بكر محمد

---

(١) ص ٤٦٤ من طبعة الذخائر الخامسة / تحقيق الدارسة .

ابن سليمان على قضاء المعرة . وبعد عام واحد من مولد عبد الله ، توفي جَدُّه فخلفه أبوه سليمان على قضاء المعرة ، وولي معه قضاء حمص . وكانت لعبدِ الله أُختٌ تزوجت في آل المهذب المعري . وولدُها « أبو صالح محمد بن المهذب » من لدات أبي العلاء ورفاقه في الدرس .

روى الأب « عبد الله بن سليمان » الحديثَ عن جدِّه ، وأبويه . وعن عددٍ من شيوخ الشام في عصره ، منهم : « الحافظ أبو بكر السبيعي » نزيل حلب . و « عبد الله بن محمد البغَوي » وأخذ العربية عن « أبي عبد الله الحسين بن خالويه » إمام اللغة بالشام .

ويُذكَر « عبد الله » والد أبي العلاء ، في تاريخ المعرة وحلب : « فاضلا لغويا أديبا شاعرا » [1] .

وقد أصهر إلى بيت كريم من بيوت حلب ، فتزوج بنت محمد ابن سبيكة . في وقت لم يحدده الإخباريون . ولنا أن نطمئن إلى أن هذا الزواج ، كان حوالي سنة ٣٥٠ هـ أو بعدها بقليل . حيث نقرأ في أخبار الأُسرة . أن أبا المجد محمداً ، الابن الأكبر لعبد الله ، ولد سنة ٣٥٥ هـ ، وأبوه في الخامسة والعشرين من عمره .

ومضت ثماني سنين قبل أن يرزق الأبوان بوليدهما الثاني أبي العلاء أحمد سنة ٣٦٣ هـ .

ثم وُلِد أخوه الأصغر : أبو الهيثم عبد الواحد ، على مُكْثٍ كذلك ، سنة ٣٧١ هـ .

****

(١) ابن العديم : الإنصاف والتحري ، ص ٤٩٢ – تعريف .

ولا كلمة واحدة ، فيما ذكر مؤرخو الأسرة أو مؤرخو أبي العلاء، عن الحياة الخاصة للأسرة ، مما يمكن أن يضيف ضوءا جديدا لفهم موقف أبي العلاء من الزواج ومن المرأة ، إلى جانب ما نعرفه من ظروفه الشخصية ، مستقلة عن الجو النفسي والمعنوي للبيت الذي أخرجه إلى الدنيا وقدمه إلى الحياه .

وفي أسرةٍ شاعرة مرهفة الوجدان ، كان يجدي علينا كثيرا ، لفهم نفسية أبي العلاء ، أن نعرف شيئاً ذا بال ، عن الروابط العاطفية بين أبويه ، وراء الصلة الزوجية التي أعطت ، على امتدادها أكثر من أربعين سنة ، ثلاثة أولاد فحسب ، بين كل ولدٍ وتاليه ، سبع سنين ، وأكثر ...

ونلتقط مع شح الأخبار عن الحياة الخاصة للأبوين والأسرة ، بيتين رواهما « ابن العديم » من شعر عبد الله ، نفهم منهما أنه قد كانت له جارية تشغل من قلبه المكانة الخاصة ، وتشده إليها عاطفة قوية مُعلنَة . فلما ماتت حزن لفراقها حزنا شديدا بحيث ودَّ أن لو كان هو الميت ، وكانت هي التي تتقبل فيه العزاء ، قال :

مولاكِ يا مولاةَ مولاهـا عـلى
حالٍ تسر عـدوَّه ، وتضـرُّه
وبِودِّه لو كنتِ أنـتِ مكانَـه
في الزائرين ، وأن قبركِ قبرُه

ويشهد نص آخر من شعره ، أنه كان مشبوب العاطفة رقيق المزاج والقلب ، متفننا في صنعة الشعر :

سمعتم بِأَجْــوَرَ من ظالــم أَعَلَّ الفؤادَ ومــا عــادَه
وقد كــان واعَدَني مـــرةً فأَخلــف يــا قومِ ميعادَه

****

أما ملامح شخصيته ، فيما عدا الذي ذكروه من علمه وفضله وأدبه ، والذي رووا له من شعرٍ ينم عن رقة قلبه وحرارة عواطفه ؛ فنستطيع أن نميزها في حديث ولدِه أبي العلاء عنه . وهو لم يتحدث عنه ، فيما قرأت من آثاره ، إلا في مرثيته التي تفيض بالإكبار والإجلال ، وتمثله لنا نقي الضمير واليد واللسان ، مهيبا وقورا يتحاشى الزحام :

أبِي حكمتْ فيه الليالي ولم تزل
رماحُ المنايا قادراتٍ على الطعنِ
مضى طاهرَ الجثمان والنفس والكرى
وسهدِ المنى ، والجيبِ والذيلِ والرُّدْنِ
فيا ليت شعري هل يخف وقاره
إذا صار أُحْدٌ في القيامة كالعِهْنِ
وهل يَرِدُ الحوضَ الرويَّ مبادراً
مع الناسِ أو يأبى الزحامَ فيستأْني
أمرُّ بربْعٍ كنــتَ فيه كأَنمــا
أَمر من الإكرام بالحِجْرِ والرُّكْنِ

وإجلال مغناكَ اجتهادُ مقصِّــرٍ

إذا السيف أَوْدى فالعفاءُ على الجَفْنِ

. . . .

ونعلم من أخبار أبي العلاء ، أن والده كان معلمه الأول ، منه سمع الحديثَ وتلقى دروسه الأُولى في علوم العربية . ومنه تلقى كذلك ميراثه الشعري حيث يناجيه في مرثيته :

أموْلى القوافي ، كم أراكَ انقيادُها

لك ، الفصحاءُ العُرْبَ كالعجم اللُّكْنِ

وقد ظل أبوه يرعاه ، ويقوده على الطريق ، إلى أن رُزِيءَ بموته .

وفي سنة وفاتِه ومكانها ، اختلف الإخباريون :

عند « ياقوت » أن عبد الله « توفي بحمصٍ سنة ٣٧٧ هـ » .

وعند « ابن العديم » أنه « توفي بمعرة النعمان سنة ٣٩٥ هـ » .

والراجح عندنا قولُ ابن العديم بوفاة والد أبي العلاء بمعرة النعمان سنة ٣٩٥ هـ ، على ما سوف نبينه في موضعه من حياة أبي العلاء .

****

الأم

سقَتْني دَرَّها ، ودعتْ ، وباتت
تُعوِّذُني وتقــرأُ أو تُسَمِّــي

أبو العلاء ، في شيخوخته .

قلما التفت مؤرخو أبي العلاء وجامعو أخباره ، إلى الأم التي أنجبت أديب العربية الأكبر . كل ما ذكروه عنها ، أنها : بنت محمد بن سبيكة ، وأنها مرضتْ وابنها أبو العلاء في بغداد ، وماتت وهو في طريق العودة إلى معرة النعمان سنة أربعمائة .

ونستقرىء آثار أبي العلاء ، فلا نكاد نجده يتحدث عن أمه في الشطر الأول من حياته . لكنها تبدأ فتظهر في آثاره ، من بدء رحلته إلى بغداد ، ثم يظل طيفها معنا في جوه ، إلى آخر عمره .

وهو ما سافر إلى بغداد إلا بعد أن أذنت له في السفر ، بصريح قوله في رسالته إلى خاله « أبي القاسم علي » :

« على أني والله قد أعلمتُها أني مرتحل   وأن عزمي على ذلك جادٌّ مُزمِــع ، فأذنت فيه » .

سامحه الله ، هل كانت بحيث تملك ألا تأذن له في السفر وقد أعلمها أن عزمه عليه جاد مزمع ؟

لقد صدقت كلمته : قال إنه أعلَم أمه بعزمه على السفر ، ولم يقل إنه استأذنها فيه . وكان يعاني من شعوره بما أضنى أمّه من شجن فراقه ، فهو يقسم بالله أنه أعلمها بعزمه الجاد على السفر ، وأنها أذنت فيه ، ليخفف من وطاة إحساسه بالذنب الذي اعترف به صراحةً في مكاشفته لخاله أبي القاسم ، بعد موتها ، بأن الآجال لو لم تكن كتاباً مقدورا لوجب أن يُقتَل بأمّه صبرا ...

ولا أكاد أرتاب في أن وراء حنينه إلى المعرة ، أيامَ غربته في بغداد ، طيفَ هذه الأُم التي آثرها بأعمق الحب وأصفاه ، وكان حبه لها نقيا محضا غير مشوب بعنصر المهابة الذي يغلب على حبه لأبيه ، ولخاليه أبي القاسم وأبي طاهر . وقد أجهده الحنين إلى الديار إثر فراقه لها ، وكان تحنان الإبل يهيج مواجده وأشجانه ، ويلهب فيه الشجو والشوق ، حتى ليتساءل عما إذا كان ألم بهذي الإبل طيف خيال كالذي زاره فأشجاه :

لقد زارني طيفُ الخيال فهاجني
فهل زار هذي الإبْلَ طيفُ خيالِ
وإن ذهلتْ عما أجِنُّ صدورُها
فقد ألهبت وجداً نفوسَ رجالِ

تهـاداني الأرواح حتى تحطـني

على يد ريح بالفـرات شمالِ

فيا برقُ ليس الكرخ داري وإنما

رماني إليـه الدهر منذ ليـالِ

فهل فيك من مـاء المعرة قطرة

تغيث بها ظمـآن ليس بِسَالِ

ذلك الطيف الزائر كان طيف أمه ، يعاوده في اليقظة والمنام . إذ نسمعه في إحدى مراثيه لها ، يتحدث عن حلم ألم به في الكرى ، ببغداد ، رأى فيه أن أحد نواجذه سقط فتشاءم وفي قلبه هاجس مرعب؛ لما بلغه في بغداد عن مرض أُمِّه بالمعرة ، وإن استهول – فيما بعد – ضلالَ الأحلام ، فشتان بين سقوط ناجذ ، والمصاب في أم .....

وكان خبر مرضها هو الذي عجل بعودته من بغداد إلى معرة النعمان ، وحسَمَ قراره بانسحاب كان قد صمم نفسيا عليه ، وإن أقام يتهيأُ له ويترقب الفرصة .

يقول في قصيدة من (سقط الزند) ، مخاطبا أهل بغداد بعد فراقه لهم :

أثارني عنكمُ أمران : والـدةٌ

لم ألقهـا ، وثراءٌ عاد مسفوتا

أحياهما اللهُ عصرَ البيْنِ ثم قضى

قبل الإياب إلى الذُّخْرَيْن أن مُوتَا

لولا رجاء لقائيها لما تَبِعتْ
عَنْسِي دليلا كسِرٌ الغمدِ إصليتا
ولا صحبتُ ذئاب الإنس طاويةً
تراقب الجَدْي في الخضراءِ مسبوتا

ذلك أنه آب إلى المعرة ، فوجد أمه قد ماتت من قبل أن يلقاها . فكأنما عاد لفرط حزنه ولوعته ، طفلا رضيعا فقد أُمَّه التي يرتهن بقاؤه عما تمده به من أسباب الحياة .

وتُشجِينا مراثيه لها ، على بُعد العهد بها ونأْي المكان ، ونحس أنها ومضات لهبٍ متقد في فؤاده المتصدع . ومنها ، ومن أشعار له في (اللزوميات) وأماليه عن أُمه في (الفصول والغايات) ، ورسائله إلى خاله – وسوف نتدبرها بعدُ – ندرك عمق العاطفة التي كانت تربطه بأُمه ، وعجزه عن نسيانها والسلو عنها ، في يقظة أو في منام :

إذا نمتُ لاقيتُ الأَحبة بعدما
طوتْهم شهور في التراب وأحوال

« يا سلوة الأيام موعدُك الحشر ، موعدٌ واللهِ بعيد ... » .

وصدق أبو العلاء .

لم يسل عن أُمه قط ، على تطاول الأَعوام وتنائي المزار : ففي شيخوخته الواهنة ، يذكرها في قصيدةٍ قالها في ابن أخيه « القاضي أبي عبد الله محمد بن أبي المجد » وكان عونا له ، يبذل نفسه في خدمته برّاً ورحمة :

أَعبدَ الله ، مـا أسدى جميلا

نظيرَ جميـلِ فعلِك مثل أمِّـي

سقتْني دَرَّهـا ودَعتْ وباتـت

تعوِّذني ، وتقـرأ أو تُسمـي

وقال في (اللزوميات) يوصي بإكرام الأُم ويذكر لها ما حملت واحتملت :

تصدَّقْ على الأَعمى بأَخذِ يمينِه

لتهديَه ، وامنن بإفهامِكَ الصُّمَّا

وأعطِ أباك النِّصْفَ حيا وميِّتا

وفضِّلْ عليه من كرامتِها الأُمَّـا

أَقَلَّكَ خِفّـاً إذ أَقلَّتْـك مثقلا

وأرضعت الحولين واحتملت تمَّا

وألقتْك عن جهدٍ وألقاك لـذةً

وضمَّت وشمت . مثلما ضمَّ أو شمَّا

* *

العيشُ ماضٍ فأَكرمْ والديك به

والأُم أولى بإكـرامٍ وإحسـانِ

وحسبُها الحمل والإرضاع تدمنه

أمران بالفضـل نالا كـلَّ إنسان

ترى هل يبلغ صوتُه الذين لقّبوه بعدو المرأة ؟

هكذا على الإطلاق والتعميم لا يدرون أنه إن كان قد صد عن الزواج ، فإنه وضع المرأةَ أمّاً ، موضع التكريم والولاء ، ودكر فضل عطائها على كل إنسان ، وأصفى أمّه الحب حميما والبرّ محضا .

وبلغ من ولائه للأُمومة ، أنه إذ يذكر ما احتملت من مشقة وهم ، وما بذلت من حنان وأسدت من جميل ، ينسى لها أنها شاركت في الجناية التي أخذ أباه بها في بيته المشهور الذي أَوصى أن يُكتب على قبره :

هذا جناه أبي عـليّ وما جنيت على أحد

****

الإخـوَة

« وكانت الفتاوى في بيتهم ، في
أكثر من مائتي سنة بالمعرة ... »

ابن العديم

(الإنصاف والتحري)

كانوا إخوة ثلاثة ، جمعتهم الأبوة الواحدة والمهد المشترك . وتلقوا جميعا ميراث البيت المعرِق في الفضل والعلم والأدب .

على تفاوتٍ بينهم في حظ كل واحد من ذلك الميراث ،

وعلى تبَاعدٍ ما بينهم نسبيا ، في المولد والسن والأثر .

أكبرهم : « أبو المجد محمد ، بن عبد الله بن سليمان » المولود سنة ٣٥٥ هـ « وكان فاضلا أديبا شاعرا ، وله ديوان شعر مجموع » ويعدونه مع الذين روى عنهم أبو العلاء .

ولأبي المجد ولَدان ولِيَا قضاء المعرة :

* ابو محمد عبدالله ، وكان من أقرب الناس إلى عمّه أبي العلاء وأبرهم بـه وأكثرهم إخلاصا في خدمته ، وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه .

* والقاضي أبــو الحسن علي ، قرأ على عمّه أبي العلاء وسمع جميع أماليه ، ونسخها بخطه . وولِيَ قضاءَ « حَماة » سنة ٤٥١ هـ ، بعد موت عمه أبي العلاء بسنتين (١) .

****

وأصغر الإخوة ، بني عبد الله بن سليمان : أبو الهيثم عبد الواحد ، المولود سنة ٣٧١ هـ . كان شاعرا مجيدا ننقل من شعره - فيما يأتي من حديثِ الرحلة إلى بغداد - قصيدة مؤثرة كتبها إلى أخيه مستعطفا يسأله العودة إلى المعرة رفقا بأحبابه فيها . والقصيدة تعطينا فكرة واضحة عما كان أبو العلاء يحظى به من حب أخيه وإكباره . وقد « روى عنه أبو العلاء شيئا من شعره ، وجمعه لولده « زيد بن عبد الواحد ، ومنه قوله وقد مرَّ برجلٍ يقلع حجارة من أطلال « سياث » وهي المعرة القديمة :

مررت بربع من سياث فراعني
به زجَلُ الأَحجارِ تحت المعــاولِ
أَتُتلفَها ، شُلَّتْ يمينك خلِّهــا
لمعتبرٍ أو زائــرٍ أو مُسائِــــلِ

---

(١) ابن العديم : الإنصاف ، ٤٩٥ / تعريف القدماء .

منازل قوم حدّثتنا حديثَهم

فلم أر أحلى من حديث المنازل »

وقد قرأ زيد بن عبد الواحد على عمه أبي العلاء . وكذلك قرأ عليه ولده منافر [جابر ؟] بن زيد . وكتب بخطه من تصانيف أبي العلاء ما شهد له المؤرخ الثقة « ابن العديم » بالفضل وحسن النقل .

****

وقد عاش أبو العلاء بعد أخويه .

أما الأخ الأصغر « أبو الهيثم عبد الواحد » فمات شاباً سنة ٤٠٥ هـ . ولما يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره . وليس له عقب سوى ولده زيد ، وابنِه جابر .

وأما الأخ الأكبر « أبو المجد محمد » فعاش حتى بلغ الخامسة والسبعين ، وتوفي سنة ٤٣٠ هـ .

وفي ولدِ أبي المجد ، عَقِبُ بني سليمان . وقد استقصى « ابن العديم : مؤرخ حلب » مَن اشتهر منهم إلى منتصف القرن السابع الهجري ، بالعلم والفضل ، ومَن وَلِيَ منهم القضاء . ثم نقل عن أبي القاسم بن الحسين الأنصاري ، عن الحافظ أبي طاهر السلفي ، قال :

« قال لي الرئيس أبو المكارم ، وكان من أفراد الزمان : وكانت الفتاوى في بيتهم – بني سليمان – على مذهب الشافعي رحمه الله تعالى ، في أكثر من مائتي سنة بالمعرة » (١) .

---

(١) الإنصاف والتحري : ٤٩٤ / تعريف القدماء .

كما تتبع « ياقوت الحموي » ميراث هذا البيت ، وقدَّم عددا غير قليل من أعلامه القضاة والعلماء والشعراء ، وأورد نماذج مختارة من أشعارهم . ثم اعتذر عن قصوره بأنه لم يقصد إلى استيعاب . قال :

« ... وغير هؤلاء حذفت أسماءهم اختصارا . وإنما قصدت الإخبار عن إعراق أبي العلاء في بيت العلم » .[1]

****

وماذا عن المجتمع والعصر ؟

المألوف في التراجم ، أن يأتي الحديث عن البيئة العامة التي عاش فيها المترجَم له ، إثر الحديث عن بيته وأسرته .

لكني في هذه الرحلة لحياة أبي العلاء ، أرى أن موضع الحديث عن المجتمع والعصر ، يحسن أن يتأخر إلى أن يفرغ أبو العلاء من الشوط الأول لرحلة حياته ، ويخرج إلى الدنيا الواسعة بسفره إلى بغداد ، حيث يواجه البيئة العامة لعصره ويبلو تجربة الاتصال بها والتنفس في جوها ، بعد أن كان قبلَ الخروج والسفر ، مشغولا عنها ، أو يكاد ، بهموم طموحه وشواغل تحدِّيه لمحنته .

أو بعبارة أخرى : كان شِبه معزولٍ في نطاق دنياه الخاصة ، عما وراءها من صخب الحياة العامة وأوضاعها .

فلنكتف الآن بما قدمنا لرحلة حياته من حديث عن ميراثه وبيته وأسرته ، لنمضي معه من بدء خطواته على الطريق ...

***

(١) معجم أدباء ياقوت (إرشاد الأريب) : أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان .

(٢)

المأساة، ومعركة الطموح والتحدي

- الطفل الضرير .
- الغلام الموهوب .
- الشاب الطامح .
- ومضات كاشفة .
- موت الأب .
- إحدى الراحتين.

الطفل الضرير

« قضِيَ عليَّ وأنا ابن أربع ،
لا أُفرقُ بين البازلِ والرُّبع »
أبو العلاء
(من رسالة إلى داعي الدعاة)

كان من حقٍّ مثله ، أن تتهيأ له من ميراثه وبيته ظروف مسعفة على النبوغ ، وأن يبدأ منذ الفطام خطوته الأُولى على الطريق التي سار عليها أبوه وأجداده كابرا عن كابر .

ولعل مخايل النجابة لاحت عليه في طفولته الباكرة فأرهفت فيه ميراث الطموح . لكنه ما لبث أن تلقى الصدمة الرهيبة من قبل أن تستقيم خطوته على درب الوجود :

اعتل في سنته الرابعة علة الجُدري . فما أبل منها إلا بعد أن شوَّهت وجهَه بندوب لا بُرءَ منها . وذهبت ببصره مُسدِلةً بينه وبين الدنيا

حجابا كثيفا حالك السواد ، فما انجاب عنه حتى آخر العمر .

من ذلك الحادث الفاجع ، تبدأ قصة أبي العلاء مع الدنيا ....

ومن مؤرخيه من قال إنه تلقى الصدمة في سنته الثالثة . ذكر ذلك « الصفدي » في (نكت الهميان) و « ابن حجر » في (لسان الميزان) .

لكن أبا العلاء يصدقنا الخبر إذ يملي في إحدى رسائله إلى داعي الدعاة [1] :

« قضي عليَّ وأنا ابن أربع ، لا أفرق بين البازلِ والرُّبَع » .

وليس بمستبعد أن يكون قد جُدِر في أخريات سنته الثالثة ، ثم عمي في أوائل الرابعة .

****

وكان كل ما بقي له من ذكريات عهده بنور العين ، لون الثوب الأحمر الذي ألبسوه إياه في علته . قال :

« لا أعرف من الألوان إلا الأحمر ، لأني أُلبِستُ في الجدري ثوبا مصبوغا بالعصفر ، لا أعقِل غير ذلك ... » .

وبقي لنا من ملامح صورته بعد المحنة ، ما نقله « ابن العديم » حكاية عن « ابن منقذ » أنه رأى أبا العلاء وهو صبي دون البلوغ ، ووصفه فقال :

« وهو صبي دميم الخِلقة مجدور الوجه ، على عينيه بياض من أثر الجدري ، كأنه ينظر بإحدى عينيه قليلا » .

---

(١) مع (رسائل أبي العلاء) تحقيق مرجليوث .

كما نقل من قول « عبد الله بن الوليد المعري » وقد رأى أبا العلاء شيخا :

« وكأني أنظر إليه الساعةَ وإلى عينيه : إحداهما نادرة – نادَّة – والأُخرى غائرة جدا . وهو مُجدَّر الوجه نحيف الجسم » [1] .

تكفي هذه المرويات لنتمثله في صباه الباكر حين بدأ يخطو على درب الحياة وبينه وبين الدنيا ذلك الحجاب الأَصم من ظلام دامس لا أمل في انحساره ...

****

في ذلك الحين ، لم يكن الصبي قد نضج وعيه أو اتسعت مداركه بحيث يقدر فداحة المحنة وهول المأساة . وقد درَّبه أهله في طفولته على مواجهة عالَم الظلام ، وراضوه عليه حتى خيِّل إليهم وإليه أنه أَلِفَه واعتاده ....

غير أنه لن يلبث أن يدرك مع نضج السن والوعي ، أن مأساة حياته كلها بدأت بتلك الآفة التي قضت عليه وهو ابن أربع ، كما قال في إحدى رسائل شيخوخته العالية . وسوف نسمعه في الشطر الثاني من حياته ، يطيل الحديث عن محنة العَمَى ، وعن الظلام الدامس الذي لا ينجاب ، والليل الطويل الذي لا ينجلي . ويعدُّ من مزايا ضجعة القبر أن تأمن العين المنطفئة في الثرى ، من مصاب عَمى أو آفة رمَد.

وسيأتي دارسون من بعده ، فيتوهمون أنه ريض على محنته ورضي بقدره.

---

(١) الإنصاف والتحري : ٥١٤/تعريف .

ويأتي صوته الفاجع من وراء القرون :

إذا طُفئت في الثرى أَعيـنٌ

فقد أَمِنتْ من عمىً أو رمَـدْ

****



الغـلام الموهوب

« ما سمعت شيئا إلا حفظته ،

وما حفظت شيئا ونسيته »

أبو العلاء

(في إحدى رسائله)

تعثرت خطوته الأولى على الطريق ، فقاده أبوه إلى عالِم يمنحه نور البصيرة ويكشف له عن آفاق الوجود المغلق أمام عينيه المنطفئتين :

قرأ القرآن على جماعة من الشيوخ « ممن يُسار إليهم في القراءات ».

وسمع الحديث من أبيه عبد الله . وجدِّه سليمان ، وجدّته « أم سلمة بنت الحسن بن إسحاق بن بلبل المعري » وأخيه الأكبر أبي المجد محمد . وسمعه كذلك عن : أبي زكريا يحيي بن مسعر المعري . وأبي الفرج عبد الصمد الضرير الحمصي ، والقاضي أبي عمرو عثمان الطرسوسي ، وغيرهم من محدثي المعرة وحلب في زمانه .

وتلقى علوم اللغة والنحو بمعرة النعمان ، على أبيه ، وعلي أبي بكر بن مسعود النحوي ، وجماعة من أصحاب « ابن خالويه » إمام العربية في الشام .

وظهر من ذكائه ونجابته . ما جعل أباه يمضي به إلى « حلب » عاصمة الإقليم ـ وفيها أخواله بنو سبيكة ـ حيث تلقى النحو على « محمد ابن عبد الله بن سعد النحوي »[1] .

وكان الظن الغالب علينا معشر الدارسين ، أن أبا العلاء بدأ من ذلك العهد ، اتصاله بالأدب ومعرفته بشعر المتنبي ، إذ كان شيخه « ابن سعد » راوية أبي الطيب .

لكن خبراً نقله « ابن العديم » يجعلنا نتردد فيما غلب علينا من ظن : خلاصة الخبر أن « ابن سعد » كان يروي بمسمع من أبي العلاء ـ وقد اجتمع به في حلب ، وهو صغير ـ قصيدة المتنبي الدالية :

أزائرٌ ، يا خيالُ ، أم عائدْ ... أم عند مولاكَ أنني راقدْ

ولم تكن القصيدة مما قرأه ابن سعد على الشاعر أبي الطيب المتنبي ، بل كانت مما أنفذه إليه . فلما وصل ابن سعد في قراءته إلى البيت :

أو مَوْضعاً في فنــاءِ ناحيةٍ ... تحمل في التاج هامةَ العاقِدْ

ردّه عليه أبو العلاء الصبي ، وقال مصححا :

« أو مُوضِعاً في فتانِ ناجيةٍ »[2]

---

(١) ابن العديم : الإنصاف ، ٤٠ .

(٢) أوضع في السير فهو موضع : أسرع . والفتان : غشاء من أدم يوضع فوق الرحل . والناجية : الناقة السريعة .

فلم يقبل ذلك « ابن سعد » ومضى إلى نسخة عراقية من « ديوان المتنبي » فوجد القولَ ما قاله أبو العلاء [1] .

فهل كان الصبي قد اتصل بشعر المتنبي قبل مجيئه إلى حلب واتصاله بابن سعدٍ راوية الشاعر ؟

أو كان ما قاله في الشطر الأول من البيت ، لمحة وجدانٍ ذكي تذكرنا بمثلها من شاعرنا الجاهلي الشاب «طرفة بن العبد » حين سمع وهو صبي يلعب مع الغلمان ، بيت « المتلمس » :

وقد أتناسى الهمَّ عند احتضاره

بِناجٍ عليه الصيعريةُ مكدم

فصاح الصبي « طرفة » : « استنوق الجمل » لأن الصيعرية سِمةٌ في عنق الناقة ، لا البعير .

وسواء أكان أبو العلاء قد أنكر رواية شيخه « ابن سعد» لبيت المتنبي ، عن ذوقٍ شعري مرهف ؛ أو كان قد سمعه على الرواية الصحيحة فيما سمع من أمالٍ لغوية وهو يقرأ اللغة والنحو بمعرة النعمان ، على جماعة من أصحاب « ابن خالويه » ،

فالخبر على أي الحالين ، يؤرخ لنا اتصال أبي العلاء في تلك الفترة من صباه الغض المتفتح لاستقبال المؤثرات الذوقية ، براوية المتنبي « ابن سعد » ، ولم يكن هذا الاتصال سريعا عابرا ، بل كان تلمذة علمية وأدبية ، لعلنا نلتمس منها ما قد يفسر لنا الذي طالما حيَّرنا من إعجاب

---

(١) الإنصاف والتحري : ٥١٥/ من تعريف القدماء .

أبي العلاء بالمتنبي ، على ما بين الرجلين من بَونٍ شاسع : في الخلقية والطبع ، وفي الشخصية والمنهج ، وفي الموقف والسلوك....

****

واستأنف الغلام سيره يطلب العلم . وفي خبرٍ أنه رحل إلى « طرابلس الشام » وكان بها خزائن كتب موقوفة ، وأنه في رحلته « مر باللاذقية ونزل ديراً كان به راهبٌ له عِلمٌ بأقوال الفلاسفة ، سمع أبو العلاء بعضَ كلامه فحصل له به شكوك » يرد إليها بعضُ متهميه ما رابهم من أمر عقيدته .

وتتناقض الأخبار المروية عن تلك الرحلة

فابن كثير لا يشير إلى مكانها ، ولا يذكرها بصيغة توثيق ، بل يكتفي بما نصه :

« ويقال إنه اجتمع براهب في بعض الصوامع ، في مجيئه من بعض السواحل ، آواه الليلَ عنده فشككه في دين الإسلام »[1] .

وابن العديم – وهو عندنا أولى بالثقة – ينفي الرحلة إلى طرابلس جملة ، ويردها إلى اشتباه برحلة أبي العلاء إلى دار العلم ببغداد ، ويستند في نفيها إلى دليل تاريخي لا مطعن فيه : أنّ لم تكن في طرابلس الشام دارُ علمٍ على أيام أبي العلاء :

ونص عبارته :

« وقد ذكر بعض المصنفين أن أبا العلاء رحل إلى دار العلم بطرابلس

(١) ابن كثير : البداية والنهاية : حوادث سنة ٤٤٩ هـ – وفيها وفاة أبي العلاء .

للنظر في كتبها . واشتبه عليه ذلك بدار العلم ببغداد . ولم يكن بطرابلس دارُ علمٍ في أيام أبي العلاء . وإنما جَدَّدَ دارَ العلم بها « القاضي جلالُ الملك أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمار » في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة – بعد ما يقرب من ربع قرن على وفاة أبي العلاء – ووقَف ابن عمار بها من تصانيف أبي العلاء : الصاهلَ والشاحج ، والسجعَ السلطاني ، والفصولَ والغايات ، والسادنَ ، وإقليد الغايات ، ورسالةَ الإغريض »[1] .

وكانت كلمة « ابن العديم » بحيث تفصل في أمرِ هذه الرحلة المشكوك فيها ، لولا أن بعض متأخري المصنفين ، ممن سيطرت عليهم فكرة اتهام عقيدة أبي العلاء ، أراحهم أن يأخذوا من رحلة طرابلس والمبيت في صومعة الراهب ، مفتاح السر لما وَهِموه من شك أبي العلاء .

وضاعت كلمة « ابن العديم » الكاشفة عن موضع اللبس والاختلاط في خبر الرحلة ، الشاهدة على نفيها بأن طرابلس لم يكن فيها دارُ علم على أيام أبي العلاء ، ولثلاث وعشرين سنة بعد وفاته !

ونُسِي معها أن « ابن كثير » ساق الخبر بكلمة « ويقال » النافية عنده للتثبت والتحقق .

ثم جاء من بعد أولئك الذين تعلقوا بخبر الرحلة في قضية اتهام عقيدة أبي العلاء ، نفر من المحدثين أعجبتهم حكاية الراهب والصومعة ، فلم يقفوا بها عند اتهام العقيدة فحسب ، بل أضافوا إليه – من جديد

---

(١) الإنصاف والتحري : ٥٥٧/ تعريف .

ما اكتشفوه - بدعةَ « يونانية أبي العلاءِ » لمجرد أن راهبا مجهولا قيل إنه آواه الليلَ في صومعته ، وما دام قد شككه في الإسلام ، فلا بد أن يكون كذلك قد وصله بالفكر اليوناني وفتح له كنوزه لتي صاغت عبقريته !!

ومن ثم راحوا يلتقطون بضعة ألفاظ وأفكار ، ويوجهونها إلى اليونانية توجيها بالغ الشطط والاعتساف ، يراه فقهاء النصوص من دارسي أبي العلاء ، عجبا من العجب :

وما هان منطق العقيدة ، ليكون اجتماعٌ براهب في رحلة عابرة خالطها الوهم واللبسُ ، يهز عقيدة شاب نشأً في بيتٍ معرق في العلم والدين ، ورسخت جذوره في أعمق تربة إسلامية . وفي ديار الإسلام كثير من الصوامع والأديرة ما نعلم أن رهبانها فتنوا عن الإسلام مَن هو دون أبي العلاء رسوخا فيه وعلما به .

وأخشى ما أخشاه أن يكون وراء إصرار بعض المُحدَثين على تأثر عقيدة أبي العلاء براهب الصومعة ، ما يَلفتون إليه بلباقة ، من مرور « محمد بن عبد الله » - عليه الصلاة والسلام - بأحد الأديرة في رحلة صِباه إلى الشام مع عمه « أبي طالب » ولقائه في الدير بالراهب « بَحيرا » قبل المبعث .....

ولا هانت قضية الفكر ، كذلك ، بحيث يكفي أن يمر أحدنا في رحلةٍ له براهبٍ يؤويه ، فيصله بالفكر اليوناني أو غير اليوناني . وقد نعلمُ أن من يقول بيونانية أبي العلاء ، يرفض بإصرار عجيب أن

يعترف لأي مفكرٍ إسلامي معاصر لم يدرس في مدرسة أجنبية ، بالاتصال بالفكر الغربي ، وإن أقام في أوروبا سنين عددا ، وأتقن من لغاتها ما يصله بـآثار الصفوة من مفكريها !

وفي هذا أيضا ، أخشى أن يكون القائلون بيونانية أبي العلاء ، مأخوذين من حيث يدرون أو لا يدرون ، بفتنة اليونانية والغربية بوجه عام ، فليسوا بقادرين على أن يتصوروا أن تظهر عبقرية مفكرٍ إسلامي أو أديب عربي ، دون أن تمت بسبب أو بـآخر إلى أصول أجنبية : يونانية أو رومية .

من ثم راحوا ينبشون في مجاهل الماضي عن ميراث وهمي أو نسب بعيد في الروم واليونان والعجم ، لشعراء ومفكرين لا يعرف التاريخ لهم منبتا في غير بيئتهم العربية الإسلامية .

وفي أخذة الفتنة ، غاب عنهم ما لا يغيب عن أي مثقف واع من شهادة التاريخ الثابتة : أقوال الفلاسفة لم تكن حِكْراً على رهبان الأديرة ، فلا سبيل لأبي العلاء إليها إلا أن « يجتمع في مجيئه من بعض السواحل براهب في صومعته » .

قبل مولد أبي العلاء بقرنين وأكثر ، كان الفكر اليوناني قد تم تعريبه . وكانت أقوال الفلاسفة قد تم نقلها وهَضَمَ منها الفكرُ الإسلامي ما صاغه بمنطقه .

وعن طريق المترجمين العرب ، لا عن طريق رهبان الصوامع والأديرة ، عرفت أوروبا في العصر الوسيط تراث الفكر اليوناني ، ونقلت أقوال فلاسفته الأعلام !

وما أبو العلاء ، وسائر مفكري الإسلام وأُدباء العربية ، سوى عطاء بيئتهم الإسلامية بكل أَصالتها وخصبها ، وما تلقت من روافد التراث الفكري القديم ، اليوناني وغير اليوناني ، وهضمته بعقليتها المتميزة ، وتمثلته بمنطق تفكيرها وروح عقيدتها ...

****

ونستأْنف السير مع أبي العلاء في صباه :

في خبرٍ آخر ، أَنه رحل إلى « أنطاكية » وتردد إلى خزانة كتبها يحفظ ما فيها . قاله « ابن منقذ » فيما نقل « ابن العديم » :

« كان بأَنطاكية خزانة كتب وكان الخازن بها رجلا عَلَويّاً . فجلست يوما إليه فقال : « قد خبأْتُ لكَ غريبة ظريفة لم يُسمَع بمثلها ... صبي دون البلوغ ضرير يتردد إليَّ ، وقد حَفَّظتُه في أَيام قلائل عدةَ كتبٍ ، وذلك لأَنني أَقرأُ عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة ، فلا يستعيد إلا ما يشك فيه ؛ ثم يتلو عليَّ ما قد سمعه كأَنه من محفوظة » .

قلت : « فلعله يكون يحفظ ذلك ؟ » .

قال : « سبحان الله ! كلُّ كتابٍ في الدنيا يكون محفوظا له ؟ وإن كان ذلك كذلك ، فهو أَعظم » « ثم حضر المشارُ إليه ، وهو صبي دميم الخلقة مجدور الوجه على عينيه بياض من أَثر الجدري ، كأَنه ينظر بإحدى عينيه قليلا ، وهو يتوقد ذكاء ، يقوده رجلٌ طوال من الرجال أَحسبه يقرب من نسبه ... فاخترت شيئا وقرأْته على الصبي وهو يموج ويستزيد ، فإذا مرَّ به شيء يحتاج إلى تقريره في خاطره يقول : « أَعِدْ

هذا » فأورده عليه مرة واحدة . حتى انتهيت إلى ما يزيد على كراسة ، فتلا عليَّ ما أمليته عليه ، وأنا أعارضه بالكتاب حرفا حرفا حتى انتهى إلى حيث وقفتُ . فكاد عقلي يذهب لما رأيت منه . وسألت عنه فقيل لي : هذا أبو العلاء التنوخي ، من بيت العلم والقضاء والثروة والغناء »[1].

وفي هذه الحكاية أيضا ، وهمٌ لفت إليه « ابنُ العديم » : ذلك أن أنطاكية كانت بأيدي الروم من سنة ٣٥٨ قبل مولد أبي العلاء بخمس سنين ، إلى أن فتحها « سليمان بن قطامش » سنة ٤٧٧ هـ ، بعد وفاة أبي العلاء بثمانٍ وعشرين سنة [2] .

لكنها مع هذا الوهم ، لا تفقد دلالتها على ما شاع وذاع من ذكاء الصبي الضرير وعجيب حفظه ، كما لم تفقد رحلة طرابلس والمبيت بصومعة الراهب ، بالوهم والتوهين ، دلالتَها على ما نشب في فكر بعض المصنفين من اتهامٍ لعقيدة أبي العلاء .

كان أبو العلاء في صباه ، أعجوبة زمانٍ « لم يُسمع بمثلها قط » و « ابن العديم » الذي وهن خبر خزانة أنطاكية ، قد عقد في كتابه (الإنصاف والتحري ، في دفع الظلم والتجرِّي ، عن أبي العلاء المعري) فصلاً خصباً « في ذكر ذكاء أبي العلاء وفطنته ، وسرعة حفظه وألمعيته ، وتوقد خاطره وبصيرته » أورد فيه عجائب وغرائب ، إن اتهمناها بالوضع كانت أعمق دلالة على رأي معاصريه فيه ، وانبهارهم بما ظهر

(١ ، ٢) الإنصاف والتحري : ٥٥٤ / تعريف .

من نجابته وفطنته وقوة حافظته ، مذ كان صبيا دون البلوغ .

****

وتتظاهر الأخبار والمرويات على صدق هذه الدلالة ، كمثل الحكاية التي ذكرها بعض مؤرخيه ، وخلاصتها أن أهل حلب سمعوا بذكائه وهو صغير ، فسافر جماعة من أكابرهم إلى معرة النعمان لينظروه ويمتحنوه . قال لهم : هل لكم في المقافاة بالشعر ؟

فجعل كل واحد منهم ينشد بيتا ، فينشد أبو العلاء الصبي من حفظه بيتا على قافيته . حتى نفد حفظهم فقال :

- أعجزتم أن يعمل الواحدُ منكم بيتا عند الحاجة إليه ، على القافية التي يريد ؟

قالوا : فافعل أنت ذلك .

فجعل كلما أنشده واحد منهم بيتا ، أجابه من نظمه على قافية البيت « حتى قطعهم جميعا »[1] .

---

(١) ابن العديم : الإنصاف والتحري ، ٤٥٨/ تعريف .

الشابُ الطامح

لِيَ الشرفُ الذي يَطأُ الثريــا
مع الفضل الذي بَهر العبادا
أَفُل نوائب الأيــام وحــدي
إذا جمعتْ كتائبَهــا احتشادا
أبو العلاء
(سقط الزند)

من ذلك العهد المبكر ، في الصبا الغضِّ ، اهتدى أبو العلاء إلى ما حسِبَه سلاحَه في معركة الوجود ، وعرَف طريقَه على الدرب . وقد أرضاه أن يجد في موهبته الفذة عِوَضاً عما فَقَدَ ، وأن يلتمس من العلم النور الذي حجبه عنه العمى مذ كان في المهد صبيا .

وفي اعتدادٍ وعناد ، صمَّم على أن يتحدى محنته وأن يشق سبيله إلى حيث يريد ، لا يعوقه فقدُ البصر .

وبلغ المدى في مكابرته ، فرُئي في شبابه الباكر يلعب النردَ والشطرنج ، ويأخذ في فنون اللهو والجد كما يفعل لِداتُه المبصرون . ومن أقدم ما وصل إلينا من أخباره ، ما رواه معاصره « أبو منصور الثعالبي » قال :

« وكان حدثني أبو الحسن المصيصي الشاعر ، وهو ممن لقيته قديما وحديثا في مدة ثلاثين سنة ، قال : لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب : رأيت أعمى شاعرا ظريفا يلعب الشطرنج والنرد ، ويدخل في كل فن من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء . وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر ، فقد صنع لي وأحسَنَ بي إذ كفاني رؤية الثقلاء البُغضاء »(1)

ونقلوا ، في مثل هذه الكلمة لأبي العلاء ، أنه قال :

قالوا : العمى منظر قبيح ... قلت : بفقدانكم يهونُ
والله ما في الوجود شيء ... تأسى على فقدِه العيونُ

والبيتان مما لم يُروَ في ديوانيه : (سقط الزند ، ولزوم ما لا يلزم)(2).
وفي النفسِ شيءٌ من نسبتهما إلى أبي العلاء ، فما كان مثله ليعتد في محنة العمى بقبح منظر ، ولا كان بحيث لا يأسى على حرمانه من رؤية أمه الغالية وسائر أهله الأحباب .

فهل نظمهما غيرُه متأثرا بالمروي عن أبي العلاء ، في حديث المصيصي الشاعر إلى أبي منصور الثعالبي ؟

مجرد احتمال لا أملك أن أعطيه صفة الرجحان ، فضلا عن أن

---

(1) الثعالبي : تتمة اليتيمة ، 9/1 ط طهران ١٣٥٣ هـ .
(2) نقلهما أبو العباس المكي في (نزهة الجليس) – أنظر (التعريف) .

أقطع فيه بيقين ...

ولدينا على أي حال ، من شعر شبابه في (سقط الزند) شاهد صادق على ما كان من بُعد هِمَّته وطموحه ، وعجيب مكابرته وعنيد إصراره على اقتحام معركة الوجود ...

وأشير هنا إلى قصيدته اللامية المشهورة :

ألا في سبيلِ المجد ما أنا فاعـل
عفاف وإقدام وحزم ونائـــلُ

وفيها يقول مفاخرا متحديا :

وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم
بإطفاء شمسٍ ضوؤها متكامـلُ
يهمُّ الليالي بعضُ ما أنــا مضمر
ويُثقل رضوى دون ما أنا حاملُ
وإني وإن كنت الأخيرَ زمانــه
لآتٍ بما لم تستطعـه الأوائـلُ
وأغدو ولو أن الصباح صوارمٌ
وأسري ولو أن الظلام جحافلُ
وإن كان في لِبس الفتى شرف له
فما السيف إلا غمدُه والحمائلُ
ولي منطق لم يرض لي كُنْهَ منزلي
على أنني بين السماكين نـازلُ .

لدى موطنٍ يشتاقه كل سيــدٍ
ويقصر عن إدراكه المتنــــاولُ
ينافِسُ يومي فيَّ أمسي تشرُّفــاً
وتحسد أسحاري عليَّ الأَصائــلُ

هكذا يبدو أبو العلاء الفتى ، وكأن الدنيا لا تتسع له ، لفرط طموحه واعتداده بمواهبه . وهو يلقانا في تلك المرحلة من شبابه مشغولا بخصوم له لا نعرفهم ، وأغلب الظن أن يكون من بين شباب حلب الطامحين ، من أبناء جيله ، مَن ضاقوا بما استأثر به هذا الضرير من نباهة وشهرة ، فحاولوا الغضَّ من قدره ليفسح أمامهم فرصة الظهور . وأبو العلاء يتحداهم بمثل ما نقلنا آنفا من أبياته اللامية ، ومثل قوله في (السقط) :

تعاطــوا مكــاني وقد فُتُّهــم
فما أدركوا غيرَ لمــح البصـــر
وقــد نبحوني ومــا هِجتهــم
كمــا نبح الكلبُ ضوءَ القمرْ

****

أفَوقَ البدرِ يوضَع لي مهــادٌ
أم الجوزاء تحت يدي وِسادُ
قنعتُ فخِلتُ أن النجم دونــي
وسِيــان التقنُّــعُ والجهــادُ

رويدَك أيهـا العـاوي ورائـي
أتخبرني مـتى نطق الجمـادُ
أألخملُ والنباهـةُ فيَّ لفـظ
وأقتر والقناعـة لي عِتـادُ

****

وكم من طالبٍ أمَدي سيلقى
دُوينَ مكـانيَ السبـعَ الشِـدادا
يؤجج في شعاع الشمس نـارا
ويقدح في تلهبهـا زنـادا
ويُظهـر لي مودتـه مقـالا
ويبغضـني ضميـرا واعتقـادا
فلا وأبيكَ ما أخشى انتقاصـا
ولا وأبيكَ مـا أرجو ازديـادا
ليَ الشرف الذي يطأُ الثريـا
مع الفضل الذي بهر العِبـادا
ولو ملأَ السُّهى عينيـه مـني
أبَرَّ عـلى مدى زُحَـلٍ وزادا
أفَلُّ نوائب الأيـام وحـدي
إذا جمعتْ كتائبهـا احتشـادا
ولي نفسٌ تحـل بي الروابي
وتأْبى أن تحـلَّ بيَ الوهـادا

تمد لتقبضَ القمريــن كفّـــاً

وتـحمل كي تبذ النجـم زادا

****

ورائــي أمــامُ والأمـــامُ وراءُ

إذا أنــا لم تُكبِرنيَ الكُبَـراءُ

بـأيٍّ لسانٍ ذامـني متحامِـــلُ

عليَّ ، وخفَقُ الريح فيَّ ثنــاءُ

تكلم بالقــول المضلــل حاسد

وكلُّ كلام الحاسدين هَـراءُ

أتمشي القوافي تحت غيرِ لوائنا

ونحــن عــلى قُوَّالهــا أمــراءُ

وما سلبتنا العــزَّ قط قبيلـــةُ

ولا بــات منــا فيهــمُ أُســراءُ

ولا سار في عرض السماوة بارق

وليس له من قومنــا خفــراءُ

****

على أنه في عنفوان ذلك التحدي الطامح ، لم يغفل عما حوله من ضلال المقاييس واختلال الموازين . مسجلاً من ذلك العهد المبكر ، إدراكه لفساد العصر ووعيه لهزل الدهر . فذلك حيث يقول في اللامية :

ولما رأيتُ الجهل في الناس فاشياً

تجاهلت حتى ظُنَّ أنيَ جاهـلُ

فواعجبا كم يَدَّعي الفضلَ ناقص
ووا أسفا كم يُظهر النقصَ فاضلُ
إذا وصف الطائيَّ بالبخل مادرٌ
وعَيَّرَ قساً بالفهاهــة باقـــلُ
وقال السُّهَى للشمس أنتِ خفية
وفاخرت الشهبَ الحصى والجنادلُ
فيا موت زرْ إن الحياة رخيصة
ويا نفسُ جِدِّي إن دهرك هازلُ

****

وبدا أن القدر أملى له حينا ، فمضى في شبيبته ملء الزهو والطموح . وواتتْه شاعريته فلم يدع غرضا من أغراض الشعر المعروفة إلى عصره إلا نظم فيه على مذهب الفحول السابقين :

مدح لغير تكسب ، وهل كان بحيث يطيق الاستجداء ولو مات من جوع ؟

وهنأ بالعرسِ والولد ، وهو الذي مضى على تصميمه ألا يتزوج ، ولا يجني على ولد ...

ورثى وهجا ، وتغزل وافتخر ،

على تفاوتٍ في مدى العناية بكل ذاك .

واتصل بالحياة العامة مبكرا ، فشُغِل بالمعارك الدائرة بين العرب المسلمين والروم ، وجاهد فيها بقصائد حماسية مطولة ، وعزف للأبطال أناشيد النصر :

مُكلَّف خَيْلِـه قَنْصَ الأَعـادي
وجاعل غابِه الأَسلَ الطـوالا
تكـاد قِسِيُّـه من غيـر رامٍ
تُمكِّـنُ في قلوبهـم النبـالا
تكـاد سيوفه من غيـر سَلٍّ
تجـدُّ إلى رقابهـم انسلالا
إذا سقت السماء الأَرضَ سُحْبا
سقاها من صوارمـه سجـالا
ويضحي والحديـدُ عليـه شاكٍ
وتكفيـه مهابتُـه النـزالا
ولولا ما بسيفِـك من نحـولٍ
لقلنا أَظهـر الكمـدَ انتحالا
يذيب الرعبُ منه كـلَّ عضبٍ
فلـولا الغمـدُ يمسكُـه لَسالا
حفظتَ المسلمين وقـد توالـتْ
سحائبُ تحمل النوب الثقـالا
بوقتٍ لا يطيق الليـثُ فيـه
مساورةً ، ولا السِّيـدُ اختتـالا

****

أَيوعدُنـا بالروم نـاس وإنمـا
همُ النبتُ ، والبيضُ الرقاقُ سوامُ

كأنْ لم يكن بين المخاضِ وحارم
كتائبُ يُشجين القَلا وخِيــــامُ
ولم يجلبوها من ورا مَلَطيــــة
تَصَدَّعُ أجبالٌ بهــا وإكــــامُ
بيومٍ كأن الشمس فيه خريدة
عليهــا من النقع الأَجَمِّ لِثــامُ
كأنهمُ سَكرَى أُريــق عليهــمُ
بقايــا كئوسٍ ملؤهــن مــدامُ
فأضحوا حديثا كالمنام ، وما انقضى
فسِيَّانِ فيــه يقظــة ومنــــامُ

. . . .

فلا قول إلا الضرب والطعن عندنا
ولا رُسلَ إلا ذابـــــل وحسامُ
فإن عُدتَ فالمجروحُ توسَى جِراحُه
وإن لم تَعُد متْنا ونحن كــرامُ
فلسنا وإن كــان البقاء مُحبَّبا
بأول من أخنى عليــه حِمــامُ

. . . .

فلما تجلى الأمر قالــوا تَمنيــاً
ألا ليت أنا في الترابِ رِمــامُ

وراموا التي كـانت لهم وإليهمُ

وقد صعُبتْ حالٌ وعَـزٌ مـرامُ

وظنوك ممن يطفىء البـردُ ناره

إذا طلعت عند الغروب جهـامُ

وأنـك تَثنيهـا قبالـةَ جِلًّـقٍ

متى لاح برق واستقـل غمـامُ

وقالوا شهورٌ ينقضيـن بغـزوة

وما علِموا أن القفـولَ حـرامُ

****

وأراني انصرفت عمدا عن ملابسات هذه القصائد ، فلم أتعلق بتحديد الوقائع وتعيين أبطالها ، إذ ليس ما يشغلني هنا إلا الشاعر الشاب الذي أخذ في فنون الجد ، وخاض مع قومه معارك الصراع بين الإسلام والصليبية ، مجاهدا بكلمته حين عز عليه أن يجاهد بنفسه .

ولعلي في حرصي هنا على ألا أشغل عن الشاعر ، منفعلة بموقف مصنفي المنتخبات الشعرية ودارسي تراثنا الأدبي . من هذه الحماسيات العلائية وأمثالها من آثاره : طُوِيت عن أجيالٍ منا فما لفتنا إليها لافت ، إلا أن يمر بنا بيت منها في شواهد النحاة . أعني بيته في سيف الفارس البطل :

يذيب الرعبُ منه كلَّ عضب

فلولا الغِمـدُ يمسكـه لَسَـالا

****

وكأنْ ليس في رؤاه الشعرية وصوره الفنية . ما يصلح مادة لدراسة نقدية ، إن لم تساعد على تصحيح فهمنا لتراثنا الأدبي ، فليس يخطئها أن تصحح فهمنا لشخصية أديب العربية وعالمه النفسي ...

****

ومن شعر شبابه ، وصل إلينا مع حماسياته وقصائد جِدّه ، ما يشهد بأنه كان يسرف كذلك على نفسه في أخذها بالتفتح للدنيا والإقبال على الحياة ، ويفرض عليها أن تعاني فنون اللهو والطرب ، إلى جانب ما تعلقت به من فنون الجد ، وما شغلها واستهواها من طلب العلم والمجد . في (سقط الزند) ديوانه الأول ، نسمعه يشدو بذكريات ليلة لهو تعطينا رؤياه الشعرية :

رُبَّ ليلٍ كأنه الصبح في الحسـ ـنِ وإن كان أسود الطيلسانِ
قد ركضْنا فيه إلى اللهو حتى وقف النجمُ وِقفة الحيرانِ
وكأني ما قلتُ والبدرُ طفل وشبابُ الظلام في العنفوانِ :
ليلتي هذه عروس من الزنْـ ـج عليها قلائد من جُمانِ
هرب النوم من جفوني فيها هربَ الأمنِ من فؤاد الجبانِ
وكأن الهلال يهوى الثريا فهما للوداع معتنقانِ
وسُهيلٌ كوجنة الحب في اللو نِ ، وقلبِ المحب في الخفقانِ
يُسرع اللمح في احمرارٍ كما تُسرع في اللمح مقلةُ الغضبانِ
ثم شاب الدجى فخاف من الهَجْـ ـرِ فغطّى المشيب بالزعفرانِ

ولا يخطئنا فيها حِسٌّ التحدي ، بهذه الصور المرئية التي لا سبيل لمثله إلى إدراكها بالبصَر المغلَق .

كما لا يخطئنا فيها إحساسه المرهف بسواد الظلمة في : أسود الطيلسان ، وعروس من الزنج ، وعنفوان شباب الظلام . وتعلقه بذكرى اللون الأحمر الذي وعاه منذ ألبسوه في علة الجدري ، الثوبَ المصبوغ بالزعْفران ، لم يعقل غيره ... فصبغَ به الدجى حين شاب ، خوفا من هجر ليلة اللهو وانصرامِها !

وتكاد هذه الملاحظ ، تميز ما في ديوانه من شعر الوصف وصور البيان فيما يُعرف في المصطلح بالتشبيه والاستعارة والكناية والرمز ... وهي جميعا من الرؤى الشعرية التي لا يهون إغفالها بعد الذي شاع من عقم الخيال الشعري عند العرب ، وتقييد القصيدة العربية في أغلال « عمود الشعر » التقليدي المشهور [١] .

وفي (سقط الزند) أغانٍ للحب ، شدا فيها أبو العلاء بغزليات تذوب رقة وشجوا ووجدا . ومنها ما يستأْثر بالقصائد كاملات ، مما ينفي أن يكون قد تغزل على المشهور من نهج القصيدة العربية ، أو عمودها ، في الاستهلال بالغزل وبكاء الديار ، جذبا لاهتمام الممدوح !

فهل أحب أبو العلاء ؟

لا نعلم من أخبار أبي العلاء . ما ينم عن حبه لامرأة ما . وليس في آثاره إشارة من قرب أو بعد . إلى أنه عانى التجربة حسيا في الواقع المادي .

ونقول مع ذلك إن شعره في الغزل معبر عن معاناة وجدانية صادقة

---

١) اقرأ فيه مثلا ، كتاب شاعرنا أبي القاسم الشابي (الخيال الشعري عند العرب) مع تعليقي عليه في (قيم جديدة للأدب العربي) ط المعارف ١٩٧٠ ومعهد الدراسات العربية ١٩٦٧ .

لظمإٍ إلى الحب ، وقد أعوزه المحبوب ففاضت أشواقه تنفيسا عما يكابد من ظمإٍ وحرمان .

وأنقل من شعره في السقط :

أَسالَتْ أَتِيٌّ الدمع فوق أسيلِ
ومالت لظــلٍّ بالعراق ظليـــلِ

أيا جارةَ البيت الممنعِ أهلُــه
غدوتُ ومَن لي عندكم بِمَقيــلِ

لِغيري زكاةٌ من جِمال وإن تكن
زكاةَ جَمالٍ فاذكري ابنَ سبيلِ

وأرسلت طيفا خان لمـا بعثتــه
فلا تثقي من بعــده برسولِ

أسرتِ أخانــا بالخــداع وإنــه
يُعَدُّ إذا اشتد الوغَــى بقبيــلِ

فإن تطلقيه تملكي شكرَ قومِــه
وإن تقتليه تؤخَــذي بقتيــــلِ

وإن عاش لاقى ذلةً . واختيارُه
وفــاةُ عزيزٍ لا حيــاة ذليــلِ

وكيف يجر الجيش يطلب غارة
أسيرٌ بمجرورِ الذيــول كحيــلِ

* * * *

إن كان طَيفُكِ بَراً في الذي زعما
فإن قومكِ ما بَرُّوا لهــم قسَمــا
آلي أميرُكِ لا يسري الخيال لنا
إذا هجعنا ، فقد أسرى وما عَلِمَا
وكم تمنتْ رجال فيك مَغضَبةً
أن يُبصروه ، فلم يَظهر لهم سَقَما
نشوف من آلِ هندٍ بارقا أَرِجاً
كأنمــا فُض عن مسكٍ وما خُتِمَا
إذا أطل عــلى أبياتِ باديــةٍ
قام الولائد يستقبسنــه ضَرمــا

****

إن كنتَ مدعيا مودة زينـــبِ
فاسكبْ دموعكَ يا غمامِ ونَسكُبِ
فمن الغمائم لو علمتَ غمامــةٌ
سوداء ، هُدْباهــا نظيرُ الهيدبِ
بالجفن بـــارزتِ القلوب وإنما
بالنصلِ يبرز كلٌّ شهم محربِ
كم قُبلةٍ لكِ في الضمائر لم أخف
منها الحسابَ لأنها لم تُكتبِ
ومتى خلوت بها من أجلكِ لم أُرَعْ
فيها بطلعة عاذلٍ من مرقــبِ

ورسولِ أحــلام إليكِ بعثتـــــه

فأتى على يأسٍ بنُجح المطلب

وكأن حُبَّكِ قال : حظُّكَ في السرى

فالطمْ بأيدي العيسِ وجه السبْسَبِ

هي إذن مواجد محرومٍ من الحب ، ورؤى خيال لا سبيل له إلى سواها ، وإنه ليعلم أن حظه في السرى وأحلام الخيال ورؤى المنام ، فحسب .

وليس صحيحا أن أبا العلاء فيما غنى من شعر الغزل ، كان – على ما وهم واهمون – يتكلف النظم في كل أغراض الشعر المعروفة لعصره ، إعلانا عن اقتداره على الصنعة ، دون أن يكون لغزله حظ من صدق معاناة وجدانية .

كلا ، فليس أبو العلاء بالذي يزيف وجدانه أو يقول ما لا يجد . وإنما قال ما قال عن معاناة صادقة لحرمان قاس ، ولم يكذبنا القولَ بل كشف عن وطأة إحساسه الباهظ باللهفة إلى ما لا يُدرِك ولا ينال إلا بالخيال ؛ ورفع نجواه إلى حبيبة تمثلها ، لا حظَّ له منها إلا سراب زيَّنه الوهم ، والتشبث بطيفٍ يُلم بالمدنف الصبِّ ، ثم يسري بعيدا إلى حيث لا مطمع ولا رجاء :

يا غُرةَ الحيِّ الكثيــرِ شِياتُـــــه

ما تـأمرين لمدنــفٍ متمائـــــلِ

لاقاكِ في العام الذي ولّى فلــم

يسـألك إلا قبلــةً في قابــــل

إن البخيل إذا يُمَدُّ لـه المـدى
في الجود ، هان عليه وعدُ السائلِ
وسألتُ ما بين العقيق إلى الغضا
فجزعتُ من أمـدِ النوى المتطاوِل
جهلٌ بمثلكِ أن يزور بلادَنـا
يختال بين أساورٍ وخلاخـل

****

منكِ الصدودُ ومني بالصدود رِضى
مَنْ ذا عليَّ بهذا في هواكِ قضى ؟
بي منكِ ما لو غدا بالشمس ما طلعتْ
من الكآبة ، أو بالبرقِ ما ومضا
جرَّبتُ دهري وأهليه فما تركتْ
ليَ التجاربُ في ودِّ امرىءٍ غرضا
إذا الفتى ذم عيشاً في شبيبتـه
ماذا يقول إذا عصرُ الشبابِ مضى

****

ولا نرفض احتمال أن تكون هذه الغزلياتُ من الشعر الرمزي الذي يَخفي وراءَ ظاهر لفظه دلالةً مستورة على أمنياتٍ تعلق بها أبو العلاء في شبابه الطامح ، كأن تكون هذه الحبيبة رمزاً إلى الدنيا ، أو إلى المجد ، أو إلى نعمة البصر التي حُرِم منها ، أو ... أو ...

وتبقى مع هذا كله ، دلالة إيثاره لهذا الأُسلوب ، على ما كان يضمر من معاناة لمواجد الحب . وهي دلالة لا تكشفها قصائده المفردة للغزل فقط ، بل تنم عنها كذلك مطالع قصائد أُخريات في غير الغزل : كاستهلاله بعضَ مدائحه في ديوانه الأَول ، بمثل قوله :

يا ساهرَ البرقِ أيقظْ راقد السمَرِ
لعل بالجَزْعِ أعوانا على السهرِ
ويا أَسيرةَ حِجْلَيها أَرى سَفَهــاً
حَمْلَ الحليِّ لمن أَعيا على النظــر
ما سرتُ إلا وطيفٌ منكِ يتبعني
سُرىً أمامي ، وتـأْويباً على أثري
لو حطَّ رَحْليَ فوق النجم رافعه
ألفيت ثَم خيالاً منك مُنتَظِري
يود أن ظــلام الليل دامَ لـــه
وزيدَ فيه سواد القلب والبصرِ !!

واستهلاله قصيدة إخوانية إلى « الشريف موسى بن إسحاق » بقوله :

ألاَحَ وقد رأى برقاً مليحـــا
سرى فأتى الحِمى نضوا طليحا
كما أغضى الفتى ليذوق غَمْضاً
فصادف جَفنُه جفنــاً قريحــا

إذا ما اهتاج أحمـر مستطيـرا
حسبت الليــلَ زنجيـا جريحـا
أقول لصاحبي إذ هام وجــدا
ببرقٍ ليس يُثبته نزوحـا
وهاجتْه الجنوبُ لوصـلِ حَيٍّ
أقام ، ويمموا داراً طروحـا
سفاهٌ لوعـة النجـدي لمـا
تنسم من حيـال الشام ريحـا
وغيٌّ لمـحُ عينكَ شطرَ نجـدٍ
إذا ما آنستْ بَرقـا لموحـا
وأمراضُ المواعـدِ أعلمتْـني
بـأن وراءهـا سقما صحيحـا

* * * *

ويطول تأملنا في رسوخ لون الحمرة في وجدانه مختلطا بسواد ليله فهو في رؤيته الشعرية هنا : زنجي جريح : كما كانت ليلة لهوه عروسا من الزنج، شاب الدجى فغطّى مشيبه بالزعفران خوف هجرها ..

وفي أغانيه للحب ، حِسٌّ الحزن الكامن في أعماقه ، وصدى اليأس المطوي تحت قناع الرضى بالصدود والنشوة بأماني الخيال ، متحديا بذلك واقعَه المحروم ، وملتمسا لظمئه من سراب الوهم ريّا .

«إذا عجبنا لما في غزلياته من حديثٍ مثله عن السيف والغمدوالحمائل،

وعن الغارة والجيش ، والأسير الذي * يُعد إذا اشتد الوغى بقبيل*

فأعجبُ منه أن نراه نظم في (الدرعيات) ديوانا - ملحقا بسقط الزند - وهي من عدَّة الحرب التي لا مجال له فيها بحال !

ماضياً في ذلك ومثله على غُلوائه ،

ومُصِرا على أن يخوض معركته بكل ما استطاع ، أو تكلف ، من مكابرة وعنادٍ .....

****

وَمضات كاشفة

نلومُ على تَبَلُّدِهــا قلوبــا
تكابد من معيشتهــا جهــادا

**

فالأرضُ تعلمُ أنني متصرِّفٌ
من فوقها ، وكأنني من تحتها !

أبو العلاء
(سقط الزند)

أكان أبو العلاء في لطف حِسِّه وصفاءِ وجدانه وعجيب فطنته ، بحيث يجهل عُقْمَ المكابرة التي تصل به إلى ما رووا من قوله إنه يحمد الله على العمى ، أو قوله في (السقط) :

وأغدُو ولو أن الصباحَ صوارِمٌ
وأسْرِي ولو أن الظلام جحافلُ ؟

كلا ...

وإنما كان يجلجل بهذا الادعاء رجاء التشاغل عن واقعه المر ، وحمل نفسه على المقاومة والتجمل بالصبر على ما لا حيلة له فيه .

أو لعله كان يحاول بهذا الضجيج الصاخب ، أن يُصم سمعه عن صوتٍ في أعماقه يؤرقه ليل نهار :

ـ أما آن أن تكُف عن هذا العناد العقيم والمقاومة المهدَرة ؟

وقد عبر عنه ، دون تنبهٍ فيما أُقدر ، مطلع قصيدته الحماسية في جهاد المسلمين ضد الروم :

لقد آن أن يثني الجموحَ لجامُ
وأن يَملك الصعبَ الأبيَّ زمـامُ

وعبرت عنه كذلك نفثات حزينة أفلتت منه واشِية بما كان يطوي في أعماقه ، وومضاتٌ كاشفة عن مكتوم قهره ومكبوت أساه .

وأكثر ما تلقانا هذه الومضات ، في مراثيه الناضحة بالمرارة والشجن واليأس . أذكر منها على الخصوص ، مراثيه في أبويه ـ وستأتي بعدُ ـ ومرثيته في « جعفر بن علي بن المهذب » وقد كان من رفاقِ صِباه ، مع صلة مصاهرة ربطتهما بزواج أبي محمد بن المهذب ، عم جعفر ، من عمة أبي العلاء .

في هذه المرثية يقول :

كان الأسى فرضاً لو آن الردى ... قال لنا : افدوه ، فلم نَفدِه
يـا دهرُ يـا منجز إيعـادِه ... ومُخلـفَ المأمـولِ من وعده
تستأسر العقبـانَ في جَوِّهـا ... وتُنزِل الأعصمَ من فنـدِه

أرى ذوي الفضل وأَضدادَهم يجمعهم سَيلُك في مَــدِّه
تجربــةُ الدنيــا وأفعالهــا حثَّت أخــا الزهد على زهده
إن زمــاني برزايــاه لــي صيَّرنــي أَمْرَحُ فــي قدِّه
لو عرف الإنسانُ مقــداره لم يفخر المولى على عبده
أمسِ الذي مَرَّ ، على قُربِــه يعجز أهلُ الأَرض عن ردِّه
أَضحى الذي أُجِّلَ في سِنِّــه مثلَ الذي عوجل في مهده
ولا يُبــالي الميْت في قبــرِه بذمِّــه شُــيِّع أم حَمْــدِه
والواحــدُ المفــردُ في حتفِــه كالحاشدِ المُكثِرِ مــن حشده
وحالةُ الباكــي لآبائــه كحالةِ الباكي عــلى ولْدِه
مــا رغبةُ الحــيِّ بأَبنائــه عما جنى الموتُ عــلى جَدِّه
تدعو بطول العمرِ أَفواهُنــا لمن تناهى القلبُ في وُدِّه
يُسرّ أَن مُــدَّ بقــاءٌ لــــه وكل ما يكره في مَــدِّه !

****

ومرثيته المشهورة ، في الفقيه القاضي « أبي حمزة التنوخي وهو من بني عمومته ورفاق صِباه ، وليست في الحق سوى مرثية للإنسان في عمومه المطلق :

غير مُجدٍ في ملَّتي واعتقــادي نوحُ باكٍ ولا ترنمُ شادِ
وشبيه صوتُ النعيِّ إذا قِيــ ــسَ بصوتِ البشير في كل نادِ
أَبكَتْ تلكمُ الحمامةُ أم غنَّـــــــت على غصن فرعِها الميَّادِ
صاحِ هذي قبورنا تمــلأ الرُّحْــــبَ فأَين القبورُ من عهد عادِ
خفِّف الوطءَ ما أظن أديم الـ أَرض إلا من هذه الأجساد

وقبيحٌ بنـا وإن قـدمِ العهـ ـدُ هوانُ الآبـاء والأجـدادِ
سِرْ إن اسطعتَ في الهواء رويداً لا اختيالا على رُفاتِ العبـادِ
ربَّ لحدٍ قد صار لحدا مرارا ضاحكٍ من تزاحم الأضدادِ
ودفينٍ على بقايـا دفيـنٍ في طويل الأزمان والآبادِ
تعبٌ كلُّهـا الحياة فمـا أعـ ـجَبُ إلا من راغب في ازديادِ
كنتَ خِلَّ الصبا فلما أراد الـ ـبيْنُ وافقتَ رأيه في المرادِ
وخلعتَ الشباب غضـا فيا ليتـك أبليتـه مـع الأندادِ

. . . .

* * * *

وأملى من شعره اعتذارا لبعض إخوانه عن قعوده عن التعزية في فقيد من أهله :

يا راعيَ الودِّ الذي أفعالـهُ
تُغْني بظاهر أَمرها عن نَعتهـا
لو كنتُ حَيّاً ما قطعتك فاعتذر
عـني إليـك لخُلـةٍ بأَمَتِّهـا
فالأرض تعلـم أنني متصـرف
من فوقها ، وكأنني من تحتِها
غدرتْ بيَ الدنيا وكـلُّ مصاحب
صاحبتُـه غـدرَ الشمال بأُختِها
شُغفت بوامِقها الحريصِ وأظهرتْ
مقتي لمـا أظهرته من مقتهـا

لا بــد للحسناء من ذامٍ ولا

ذام لنفسي غيرُ سيئ بَختِهــا

ولقد شركتُك في أساكَ مشاطرا

وحللتُ في وادي الهموم وخَبْتِها

****

ومنا من كان يظن أن مراثيه تنفرد بهذا الإيقاع الحزين والشجن المر ؛ وأن غيرها من شعر شبابه . يسيطر عليه طموح الاستعلاء وزهو الاعتداد وجموح التحدي .

وأعترف بأنني كنت إلى عهد قريب . مع الذين غلب عليهم ذلك الظن . ثم لما عاودت الإصغاء إلى أبي العلاء في صحبتي الحميمة له ، أدركت أننا قد فاتنا لمحُ الومضات الكاشفة عن الجرح الغائر في أعماق وجدانه . لا في مراثيه فحسب ؛ ولكن في مدائحه كذلك وحماسياته ؛ وغزلياته وفخرياته . وأكاد أقول : في كل قصيدة من شعر شبابه . وإنما شُغِلنا عنها ببريق طموحه الساطع ، وتاهت منا في ضجيج مكابرته واستعلائه . وعذرُنا أن أبا العلاء نفسه قد حاول صادقا مخلصا أن يُشْغَل بهذا الضجيج عن مكابدته النفسية لدواعي اليأس والقنوط ، وهواجس الخيبة والقهر . لولا أنْ أفلتت من أعماقه ؛ من حيث أراد أو لم يرد .

وقد مرَّت أبياتٌ من الفخرية التي استهلها بالسؤال العجيب :

أفوق البدرِ يوضَع لي مهــادُ

أمِ الجوزاء تحت يدي وِسادُ ؟

فلنصْغ إذن إلى مافيها من حسرة الحرمان وجهد الظمأ ، لايخفيه

أن ردَّ هذا الحرمان إلى أن موضعه فوق السحاب ، حيث لا قطرة من ري :

كأني حيث يَنْشا الدجْن تحتي
فها أنـا لا أُطَلُّ ولا أُجـادُ
أأخمُلُ والنباهـةُ فـيَّ لفـظ
وأقتـر والقناعـةُ لي عتـادُ
وألقى الموتَ لم تخد المطايـا
بحاجاتي ، ولم تَجِف الجيادُ !

****

وأبياته التي باهى فيها بشرفه * الذي يطأُ الثريا * مع الفضل الذي بهر العبادا * وأعلن أنه يفل نوائب الأَيام وحده * إذا جمعت كتائبها احتشادا * ...

هذه الأَبيات مسبوقة بهذا الاستسلام المر والاستهلال البائس الحزين

أرى العنقاء تكبرُ أن تُصـادا
فعانِدْ من تطيق لـه عنـادا
وما نهنهت عن طلب ولكـنْ
هي الأَيـام لا تُعطِـي قيـادا
نلوم عـلى تبلُّدِهـا قلوبـا
تكابد من معيشتهـا جهـادا
إذا ما النار لم تطعم ضرامـا
فأَوشِكْ أن تمر بهـا رمـادا

ولمـا أن تَجَهَّمـني مـرادي
جريتُ مع الزمـان كمـا أرادا
وهوَّنتُ الخطـوب علـيَّ حـتى
كأني صـرت أمنحهـا ودادا
أأنكرهـا ومنبتُهـا فـؤادي
وكيف تنكِّـرُ الأَرضُ القَتـادا

****

وقصيدته النونية في ذكرى ليلة لهوٍ كأَنها عروس من الزنج ، مطلعُها هذا الجؤارُ المؤثر والشكوى من ظلام لا يفنى

عَلِّلاني فـإن بِيـض الأَمـاني
فنيت والظـلامُ ليس بِفـانِ
كم أردنـا ذاك الزمـانَ بمـدح
فشُغلنـا بذمٍّ ذاك الزمـانِ

وفيها يقول للشريف« أبي ابرهيم موسى » معتذرا :

فاقتنع بالـرويِّ والوزن مـني
فهمومـي ثقيلـة الأَوزان
من صروفٍ ملَكْن فكري ونطقي
فهي قيد الفؤاد قيـد اللسـان

****

ولاميته المشهورة في الفخر ، وقد قالها في عنفوان شبابه ووقدة

طموحه ، لم تخلُ من كلماتٍ تنم عما حاول أن يطوي من هموم ، تحت كام التبلد والمداراة :

يهم الليالي بعضُ ما أنا مُضمِر
ويُثقِل رضوى دون ما أنا حاملُ
وطال اعترافي بالزمان وأهلـــه
فلست أُبالي مَن تغول الغوائـلُ
فلو بان عضدي ما تأسَّف منكبي
ولو مات زندي ما بكته الأنامـلُ

****

ويستهل أخرى من قصائد التحدي ، بهذا الأنين الجريح :

ذَلَّتْ لمـا نصنـع أيامُنـا   نفوسُنـا تلـك الأبيَّاتُ
تجني خمورُ الهمِّ ما لم تكن   تَجني الخمورُ العنَيْبِيـات

****

ويروون أنه سُئِل إجازةَ هذا البيت :

شُغلي ببُعدي عنــك يَشغلني   ويصُدني عن كل أشغـالي

فصدرت عنه هذه النفثة ، مشحونة بهواجس القلق ولهاث الظمأ وعقم السراب :

ما يومُ وصلِك وهو أقصرُ مـن
نَفَسٍ ، بأطولِ عِيشةٍ غَــالِ
عَلِقتْ حبالَ الشمس منك يدي
وجديدُها في الضعف كالبـالي

وأردتُ وِرْدَ الوصلِ من قمــر

فصــدَرتُ عنــه كواردِ الآلِ

وطلبت عندك راحةً ، وعــلى

قدر اعتقادي كــان إدلالــي

وظننتُ في البلوى مُنايَ ولــم

تكن المنية لــي عــلى بــالِ

ما زلت أبلــغ ما هممــت بــه

حتى هممت بكوكــبٍ عـــال

إن فات سلوان الحياة فكــلُّ الناس بعد مماته سالِ

. . . .

يــا جَنَّــةً عرضتْ مُعَجَّلــةً

فاخترتُهــا وعصيــتُ عُــذَّالي

يضحي الرضابُ لأهلها بــدلاً

من بــاردٍ في الخُلــد سلسالِ

إن لم تدومي صحَّ في خَلَدي

أني بنــارِ جهــنمٍ صـــالِ

قلبي أعاتــب فهــو يلزمــني

أبداً تكلُّف هـــذه الحـــالِ

****

وإذن فلم يكن أبو العلاء في معركته الأولى ، قد كذبتْه نفسُه أو أخطأه حِسٌّ ما تُكابد من هم وقهر .

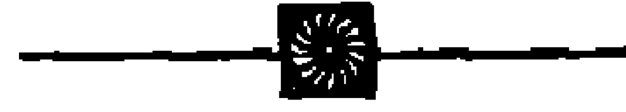
كلا ، ولا كان شعره في التحدي والمكابرة ، من الزيف الوجداني ...

وإنما يشهد ديوانه الأول ، أن الشاب الموهوب الطامح ، حاول ما وسعه الجهد أن يقاوم الاستسلام إلى واقعه ، وأن يفلت مما كبّلته به محنته من أغلال تشل انطلاقه وتلجم طموحه ، دون أن يخونه في هذه المحاولة وعيُ ذاته .

وبقدر ما كان صادقا في شعره المعبر عن إرادته المصممة على الاستعلاء وإصراره العنيد على المكابرة والتحدي .

كان صادقا كل الصدق في تلك الفلتات الكاشفة عن مطويٍّ أشجانه ، الصادرة عن قلب يكابد محنة العيش :

نلوم على تبلُّدِهــا قلوبـــا   تكابد من معيشتها جهــادا



مَوتُ الأبِ

لقد مسخَتْ قلبي وفاتك طائـرا
فأقسمَ ألّا يستقر عـلى وكْـــنِ
يقُضِّى بقايا عيشه ، وجناحُـه
حثيثُ الدواعي في الإقامة والظعنِ
كأن دعاءَ الموتِ باسمكَ نكـزةٌ
فرتْ كبدي ، والسمُّ ينفث في أذْني

أبو العلاء

(سقط الزند)

مضى الحائر في معركته منتظرا ما تـأتي به الأيام .

وجاءته الأيام بما انتظر ، وإن جاوزت المدى في قسوتها .

لقد توقع بحسه الملهَم أن في جعبتها سهاما أُخرى ، لكنه لم يكن يدري في أي موضع يقع السهم هذه المرة .

حتى مات أبوه ، فنفذت الطعنة إلى صميم كيانه ، وفقد الشاب الضرير أبا رحيما ومعلما صديقا ، وحُرم بفقده من كان يعينه على محنته ، ويمنحه زادا من طاقة المقاومة والاحتمال .

****

متى مات أبوه ؟ وأين ؟

اختلفت الروايات في الزمان والمكان اختلافا بعيدا ، وإن كانت في جملتها ترجع إما إلى قول « ياقوت الحموي » : « إنه مات بحمص سنة ٣٧٧ هـ » [١] ،

أو إلى قول « ابن العديم» :

« وتوفي أبو محمد ، عبد الله بن سليمان ، والد أبي العلاء ، بمعرة النعمان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة » [٢] .

وبين الروايتين فرق شاسع لا يهون أن نمر به دون أن نحاول الاهتداء فيه إلى ما نطمئن به إلى أننا لم نفقد الشعاع المضيء لحياة أبي العلاء ، في تلك المرحلة الدقيقة من رحلة حياته ، وهو يخوض معركته الأولى مع الأيام ، مضغوطا بين طموح آمل ، وواقع مثبط مخذل .

ومصنفو كتاب (تعريف القدماء بأبي العلاء) لم يفتهم أن يلحظوا بُعد ما بين الروايتين . لكنهم فيما يبدو ، اكتفوا بتقرير رواية « ياقوت » حيث اعتمدوها بغير توقف أو تعليق . ثم لما وصلوا إلى رواية « ابن العديم » لم يدعوها تمر كما مرت سابقتها ، بل علقوا

---

(١) إرشاد الأريب : ١٦٣/١ ط هندية .

(٢) الإنصاف والتحري ، ٤٩٣ / تعريف .

عليها في الهامش بما نصه :

« كذا ، وإنما توفي سنة ٣٧٧ بحمص كما نص ياقوت »[١] .

دون أن يتجشموا مشقة الفحص النقدي لكلتا الروايتين .

ودون أن يشيروا من قريب أو بعيد ، إلى وجهٍ ما من وجوه اعتماد رواية ياقوت ، وتقريرها بصيغة القصر الحاسم .

ويشق علينا أن يُحسم ذلك الخلاف بمثل هذه البساطة ، مع ما نعلمه من تخصص « ابن العديم » في تاريخ حلب وأعيانها ، وتفرغه لتصنيف كتاب جامع مفرد ، عن أبي العلاء وأسرته ، مما يجعله بادىء ذي بدء أولى بالثقة من « ياقوت » الذي كان اهتمامه بأبي العلاء محدودا بالقدر الذي تتسع له ترجمة ياقوت للحشد الكاثر من الأُدباء في معجمه الكبير .

ثم إن « ياقوت » فيما روى من أخبار أبي العلاء وأهله ، يرسل مروياته غالبا بلا إسناد . على حين يحرص « ابن العديم » على إثبات أسانيده . وأكثرُ مَن روى عنهم ، من بني سليمان أو من بين الذين لقوا تلاميذ أبي العلاء ومعاصريه . كما يحرص على تحديد طرق التلقي قراءة أو سماعا أو إجازة أو مكاتبة أو وِجادة ، [٢] على أدق الضوابط المنهجية للرواية .

ونقول مع هذا : إن تخصص « ابن العديم » وسلامة منهجه ، إذا لم يكفيا لترجيح روايته في وفاة والد أبي العلاء ، فلها ما يؤازرها من

---

(١) التعريف : ٤٩٣ — وقابله على ما في صفحة ٦٩ ، منه .

(٢) الوجادة في المصطلح ، ما يجده الراوي بخط المروي عنه . وهي في الأصل مما وضعه علماء الحديث من ضوابط الرواية والإسناد . أنظر (مقدمة ابن الصلاح) .

قرائن وشواهد ، يقدمها الفحص النقدي لكلتا الروايتين :

فعلى رواية ياقوت ، يكون أبو العلاء قد امتحن باليتم وهو غلام في الرابعة عشرة من عمره . ومؤرخوه قد أجمعوا على أنه بدأ يقول الشعر وهو ابن إحدى عشرة أو اثنتي عشرة سنة ، فلننظر إذن في مرثيته لأبيه لنرى ما إذا كانت تجربة غلام مراهق ، لم يبدأ نظم الشعر إلا قبل موت أبيه بعامين أو ثلاثة ، على أقصى الأجلين ؟

نَقِمتُ الرضى حتى على ضاحكِ المُزنِ
فلا جادني إلا عبوس من الدجنِ
فليت فمي إن شامَ سِنّي تبسما
فمُ الطعنة النجلاء تدمي بلا سنٍّ
أبي حكمتْ فيه الليالي ولم تزل
رماحُ المنايا قادراتٍ على الطعنِ
مضى طاهرَ الجثمانِ والنفس والكرى
وسُهدِ المُنى والجيبِ والذيل والرُّدنِ
فيا ليت شعري هل يخف وقارُه
إذا صار أُحْدٌ في القيامة كالعهن
وهل يَرِدُ الحوضَ الرويَّ مبادرا
مع الناس أم يأبى الزحامَ فيستأني
حِجاً زاده من جرأة وسماحةٍ
وبعضُ الحِجا داعٍ إلى البخل والجبن

****

على أمِّ دفْرٍ غضبــةُ الله إنهـــا
لأَجدَرُ أنثى أن تخون وأن تخـني
كعاب : دُجاها فرعُها ، ونهارُهــا
مُحيّاً لها قامت له الشمسُ بالحسنِ
رآها سليلُ الطين والشيبُ شامــل
لها بالثريا والسِّماكيْــن وانــوزنِ
زمانَ تولتْ وأدَ حــواءَ بنتهَـــا
وكم وأدت في إثْرِ حواءَ من قَــرنِ
كــأن بنيها يولَدون وما لهـــا
حليلٌ ، فتخشى العارَ إن سمحت بابنِ
جهِلنا فلم نعلم على الحرص ما الذي
يراد بنا ، والعلمُ للهِ ذي المَــنِّ
إذا غُيِّب المــرءُ استسر حديثــه
ولم تخبر الأَفكار عنه بمــا يغني
تضل عقول الهبرزيــات رشدَهــا
ولم يسلم الرأيُ القويُّ من الأَفْنِ
وقد كان أرباب الفصاحة كلمــا
رأوا حسنا عدوه من صنعة الجِــنِّ

****

وجدنــا أذى الدنيا لذيذا كأنمــا
جَنى النحل أصنافُ الشقاء الذي تجني

فما رغبت في الموت كُدْرٌ مسيرُهـا
إلى الوِرْد خمسٌ ، ثم يشربن من أجن
يصادفن صقــرا كل يوم وليلـة
ويلقين شرا من مخالبـه الحُجْنِ
ولا قلقاتُ الليْلِ باتت كأنهـا
من الأَيْنِ والإدلاج بعضُ القَنا اللُّدْنِ
ضربن مَليعـا بالسنابك أربعـــا
إلى الماء لا يَقدرن منه عـلى مَعْن
وما استعذبته روحُ موسى وآدم
وقد وُعِدا من بعــده جنتي عَـدْنِ

****

أمولى القوافي ، كم أَراك انقيادُها
لك الفصحاء العُرْبَ كالعجمِ اللُّكْنِ
هنيئا لـك البيت الجديد موسـداً
يمينك فيه بـالسعادة واليُمـــن
مجاورَ سَكْنٍ في ديــارٍ بعيـــدة
من الحي ، سقيـاً للديـارِ وللسُّكْـنِ
طلبتُ يقينا من جهينـةَ عنهـم
ولم تخبريني يا جهين سوى الظـن
فإن تعهديني لا أزال مسائــلا
فإنيَ لم أُعْـطَ اليقيـنَ فأَستغـني

وإن لم يكن للفضل ثَـم مزيــةً
على النقص ، فالويل الطويل من الغَبْنِ

****

أمُرّ بِرَبْــعٍ كنتَ فيه كأنّمــا
أمر من الإكرام بالحجْــرِ والرُّكْنِ
وإجـلالُ مغنــاك اجتهــادُ مقصِّرٍ
إذا السيف أودى فالعفاء على الجَفْنِ
لقد مسختْ قلبي وفاتُــك طائـرا
فأقسم ألا يستقرَّ عــلى وكـــن
يُقضي بقايــا عيشه ، وجناحُــه
حثيثُ الدواعي في الإقامــة والظعــن
كأن دعاءَ الموتِ باسمِــكَ نكــزةٌ
فرَتْ جسدي ، والسمُّ ينفث في أذني
ضعفتَ عن الإصباح والليلُ ذاهبٌ
كما فني المصباح في آخرِ الوهنِ
ومــا أكثر المُثنِي عليــكَ ديانــةً
لو أن حِماما كــان يَثنيه من يُثنِي
يوافيكَ من رب العلا الصدق بالرضى
بشيرا ، وتلقاكَ الأمانــةُ بالأمْــنِ
ويكفى شهيدُ المرء غيــرَكَ هيبــةً
وبُقيا ، وإن يُسأل شهيدك لا يَكني

يصرحُ بقول المسك دونك نفحة
وفعلٍ كأمواه الجنان بلا أسْنِ
يدٌ يَدَت الحسنى . وأنفاسُ ربِّها
تُقى ، ولسانٌ لا يحرك باللسن
فليتك في جَفني مُوارى نزاهةً
بتلك السجايا عن حشايَ وعن ضبني
ولو أودعوكَ الجوَّ خِفنا مَصِيفَه
ومَشتاه ، وازداد الضنينُ من الضنٍّ
فيا قبر واهٍ من ترابك ليِّنا
عليه وآهٍ من جنادلك الخُشن

****

فهل أنت إن ناديتُ رمسَك سامعا
نداءَ ابنِك المفجوع بل عبدِك القنِّ
سأبكي إذا غنى ابن ورقاءَ بهجةً
وإن كان ما يعنيه ضدَّ الذي أعني
ونادبةٌ في مسمعي كلُّ قينة
تغرد باللحن البريء عن اللحن
وأحملُ فيكَ الحزنَ حيا فإن أُمتْ
وألقَكَ لم أسلُك طريقا إلى الحزن
وبَعدَك لا يهوى الفؤاد مسرةً
وإن خان في وصلِ السرور فلا يهني

****

هل يمكن أن نتصور أن هذه المرثية من تفكير غلامٍ مراهق ، ونظم شاعر مبتدىء في مستهل تجربته الشعرية ؟

لقد نقل الإخباريون ما بهر الناسَ في صباه من نادر ذكائه وفطنته وقوة حافظته وعجيب ذاكرته .

وهذا الذي في المرثية . ليس مما يدخل في نطاق ما اشتهر به في صباه ، بل يتجاوز الفطنة والحافظة والذاكرة ، إلى الحكمة والتأمل والرأي والموقف ، ويُطل على الوجود من أفقٍ هيهات لوعي صبيٍّ أن يشارفه ، فضلا عن أن يتخذ منه موقفا ويصوغ تأملاته فيه ، هذه الصياغة الشعرية الناضجة الصعبة .

كلا ؛ ليس صوت أبي العلاء هنا صوت فتى مراهق ، بل هو صوت رجلٍ حكيم مجرب ، بَلاَ الدنيا وعرف حكم الليالي وأثخنته الجراح ، وأطال التأمل في لغز الوجود والعدم ، وأرهقته الحيرة في التماس اليقين .

صوت نحس فيه نبرات واضحة مما يأتينا بعدُ من حديثه في عزلته ، رهين محبسيه ، يُملي (الفصولَ والغايات) وديوان (لزوم ما لا يلزم) وآثاره الأُخرى في الطور الثاني من حياته .

إلا أن يقال باحتمال أن يكون « أبو العلاء » قد رثى أباه بأَخَرة ، بعد أن نضج وعيه وشعره .

وهو احتمال يُبعده شاهدٌ من نص المرثية ، حيث الحديث عن مشهد احتضار الفقيد والليل ذاهب ، وعن وقع النعي على الابن المفجوع ، والسؤال اليائس : هل يسمع الراحل الدعاء ؟

ومثل ذلك لا يكون إلا واللوعةُ حارة ، والجرح حيٌّ دامٍ ، والعهد المصاب في الفقيد جدُّ قريب .

****

وكانت وفاته بمعرة النعمان كما نقل « ابن العديم » وليس في حمص ، على رواية « ياقوت » .

يشاهد كذلك من نص المرثية ، حيث يقف أبو العلاء على قبر أبيه ويسائله ويناديه ، وما نعلمه ذهب قط إلى حمص ليقف على قبرٍ هناك وينادي ثاويا في رمسه .

وإذ يقول أبو العلاء في مضجع أبيه :

مجاوِرِ سكْنٍ في ديــار بعيــدة
من الحيِّ ، سُقيا للديــار وللسُّكْنِ

طلبت يقينا من جهينــة عنهــم
ولم تخبريني يا جهين سوى الظن

فإن السياق يُحيل أن نحمل « بعيدة » على البُعد المكاني بين معرة النعمان وحمص ، إذ ليس سكان الديار في حمص بحيث يَطلب أبو العلاء يقينا عنهم من جهينة ، فلا تخبره سوى الظن .

وإنما هو على التحقيق ، البعد الشاسع الرهيب بين الحيِّ وديارٍ منه يسكنها الموتى في المقابر ، وليس أبعدَ منهم داراً وأنأى مزارا .

****

وينجلي الموقف تماما إذا تابعنا فحص رواية ياقوت ، التماسا لوجه الشبهة في قوله إن والد أبي العلاء : عبد الله بن سليمان « توفي بحمص

سنة ٣٧٧ هـ » .

ففي هذه السنة بالذات ، توفي « أبو الحسن سليمان » جد أبي العلاء . وفي حمص : « كانت وفاته ، وهو على قضائها . ودُفِن ظاهرَ بابِ الرَّستَن » كما نص على ذلك « ابنَ العديم » [1] .

فلعل الأمر تشابه على ياقوت لوهمٍ آخر وقع فيه ، حين ذكر أن جدَّ أبي العلاء « وليَ القضاءَ بحمص ، وبها مات في سنة ٢٩٠ هـ » [1] .

وقد تنبه مصنفو (التعريف) إلى هذا الوهم ، وقابلوه على ما في (الخريدة لابن العماد الأصفهاني) من ولاية جدِّ جدِّ أبي العلاء القضاءَ في سنة ٢٩٠ هـ . واسم الجد أيضا : أبو الحسن سليمان ، بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهر [2] .

وبقي أن نقابله على ما في (الإنصاف والتحري) من قولٍ لبعض الناس : إن جد الجد ولي قضاء المعرة في سنة ٢٩٠ هـ . وبعضهم يقول : إن الذي تولى القضاء سنة ٢٩٠ هـ ، هو ابنه أبو بكر محمد ، جد والد أبي العلاء [2] .

ثم نضيف إلى ذلك ما تظاهرت عليه الروايات من أن أبا العلاء « أخذ الحديث عن أبيه ، وجدِّه سليمان بن محمد » فكيف يأخذه عمن مات في حدود الثلاثمائة ، على رواية ياقوت ، قبل مولده بأكثر من ثلاث وستين سنة ؟

****

---

(١) في الإنصاف والتحري : ٤٩٢/ تعريف .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء : ٦٨ ط القاهرة .

هكذا يشق علينا أن نأخذ ، من أي سبيل ، برواية « ياقوت » في أن جد أبي العلاء « أبا الحسن سليمان » توفي سنة ٢٩٠ هـ ، وتوفي الأب « عبد الله بن سليمان بحمص سنة ٣٧٧ هـ ، وهو ما اعتمده مصنفو التعريف ، في تاريخ وفاة والد أبي العلاء ، ومكان موته .

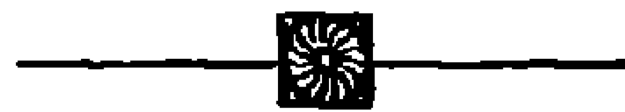
ونعدل عنها مطمئنين إلى خبر « ابن العديم » مؤرخه الثقة :

جَدُّ أبي العلاء « أبو الحسن سليمان : توفيّ سنة ٣٧٧ هـ بحمص ، وهو على قضائها ، ودُفن ظاهر باب الرستن » .

ووالد أبي العلاء « عبد الله بن سليمان : توفي بمعرة النعمان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة » .

فأحس ولده أبو العلاء ، أن قلبه مُسِخ بين جوانحه طائرا شريدا هائما ،

فأقسم ألاّ يستقرّ على وكن
يُقضّي بقايا عيشه ، وجناحُه
حثيث الدواعي في الإقامة والظعن
. . . . . .



إحدى الراحتين

أمَا آنَ أن يثني الجموحَ لجامُ
وأن يَملِكَ الصعبَ الأَبيَّ زمامُ

أبو العلاء

(سقط الزند)

مات أبوه ، وهو في الثانية والثلاثين من عمره ، قد استنفد طاقته على تحدي محنته وإرادة الاستعلاء عليها ، وأرهقته الضغطة بين شَدِّ الطموح وعجز الوسيلة والأداة ، فبدأ يفيق بالصدمة ، من أكاذيب المنى وسكرة الوهم ، ويتهيأ للتطور الخطير الذي سوف يجد على حياته بعد بضع سنين .

ولعله بدأ عقب موت أبيه ، يفكر في أن يلقي سلاحه ويلزم موضعه ، ويُقر بأن العمى نقمة لا نعمة ،

لكنه تردد في الأمر يبلو نفسه . وقد أشفق من أن تكون رغبته في

الاستسلام طارئة بفعل الصدمة ، وأن يخونه وهم الراحة باليأس ، كما خانه وهم الراحة بالأمل .

كان يخشى أن تكون في النفس بقية من أثر محاولته التي طالت ، وأن يظل في مسمعه صدىً راسخ من شعره الأول الذي مضى فيه على غلوائه محاولا أن يقنع نفسه ، قبل أن يقنع سواه ، بأنه مستطيع أن يرقى إلى ما فوق النجم ، حيث لا يبلغ شأوَه منافس متطاول ، ولا يصل إليه نباح حاسد حاقد .

ولقد حاول قدر استطاعته أن يتجلد للصدمة الجديدة ، وأن يطوي جرحها في أعماقه المثخنة بالجراح ، كيما يستأنف صراعه مع الدنيا . فما كان من السهل عليه أن يئد طموحه مرة واحدة ، وأن يقهر ما لبشريته من أشواق سيظل يكابدها ما عاش .

بل ليس ببعيد أن تكون الصدمة الجديدة قد أرهفت وهمَ تجلُّدِه ، وغَشِيَه من دُوَارِها ما خَيَّلَ إليه أنه قادر على احتمال كل ما تأتي به الدنيا من رزايا .

وأعانه على ذلك أن أُمَّه الغالية قد بقيت له ، ولَديها يمكن أن يَجِد العِوضَ عمن فقد ، ويلتمس العزاء عما لقي من عنَت الأيام والليالي .

****

وفي هذه الفترة من أخريات القرن الرابع ، بدأ يفكر في الرحلة إلى بغداد لعله يختبر طاقته على مجاهدة نفسه ، أو مجاهدة الدنيا :

مجاهدة نفسه فيما رسَّخَ فيها من أشواق الطموح وأغراها به من إرادة الاستعلاء .

أو مجاهدة الدنيا فيما رَسَخَ في فطرته من حُبٍّ لها ، وما خايله من سراب الأمل فيها وإمكان الظفر بها والاقتدار عليها .

وأطال التفكير ، ومن شأنه أن يطول :

احتاج في حيرته إلى ثلاث سنين ، بعد موت أبيه ، ليستقر عزمه على رأي في هذه الرحلة التي تنزعه من دنياه بين أهله وتلقي به في منازح الغربة ، ولكنها مع كل ما يحف بها من مخاوف ومخاطر ، رحلة اختبار لا بد منه . فهي وحدها التي يمكن أن تحسم موقفَه بين مُضيٍّ في المقاومة والتحدي والمكابرة ، وبين ما يهفو إليه من استقرار بالكف عن معاندة قدَرِه : « فعانِدْ مَن تطيق له عنادا » .

في أخريات سنة ٣٩٨ هـ ، كان قد أجمع أمره على الرحلة إلى مدينة السلام ، عساه ألا يلدغ من جحر مرتين : يتعلق براحة القنوط ثم تخذله نفسه ، كما تعلق فيما مضى من عمره براحة الأمل ، فخذلته الدنيا .

وأعلَم أمَّه بعزمه الجاد على السفر فأذنت له فيه حين لم يكن لها إلا أن تأذن . وانتفض قلبه وهو يفارقها مودعا ؛ كأنما حدثه القلب أنه الفراقُ لا لقاءَ بعده .

وودع أهل معرة النعمان ، وكلهم عشيرة وجيران .

وخلَّف مهد مولده ومدرج صباه ، وما من أحدٍ يدري ماذا يستقبل هذا المسافر الضرير في غده .

بل ما كان ، هو نفسه ، يدري حقا : هل آن الأوان ليستيقن من جوابٍ عن السؤال الملحّ على وجدانه الحائر المتعب :

أما آن أن يثني الجموحَ لجامُ
وأن يملك الصعبَ الأَبيَّ زمام !

قصارى ما كان يدريه . هو أنه لم يبق عليه إلا أن يجتاز هذا المعبر عند مفترق الطرق ، إلى حيث يوجه خطاه ، فإما أن يمضي به على مسار دربه الأَول ، الذي يلوح له مسدودا أَو يكاد . وإما أن يأْخذه إلى الاتجاه المضاد ، حيث يلوح الدرب وعْرا غير مطروق ، لا دليل لسارٍ فيه ولا رفيق .

بعد أن يكون سوى حسابه مع نفسه ودنياه ، وبذل جهد المطيق : ما قصَّر ولا فرط :

تخيرت جهدي لو ملكت خيارا
وطرتُ بعزمي لو أَصبت مطارا



(٣)

في مفترق الطرق

(رحلة الى بغداد)

- مناخ العصر .
- حديث الذهاب .
- في خضم العاصمة .
- حديث الإياب .

- موت الأم .

نتمهل عند مفترق الطرق مع أبي العلاء ، في الرحلة البغدادية التي عاد منها بقراره الصارم بالعزلة والحرمان .

وفي حياة كل أديب ـ وأكاد أقول : كل إنسان ـ حادث حاسم يغير مجرى حياته ومتّجه مساره ومصيره .

ومن قديم قال شاعرنا الجاهلي « امرؤ القيس » حين بلغه ، وهو في مجلس شرابه ، مصرع أبيه حُجر الكندي :

« اليوم خمرٌ ، وغدا أمر »

أما أبو العلاء فليس في حياته خمر ولا ثأر . وإنما الذي كان فيها رحلة إلى بغداد ، كانت بصريح قوله وشهادة سلوكه وإجماع مؤرخيه : الحد الفاصل بين شطرين من حياته ، إنسانا وأديبا ومفكرا .

على تفاوت ما بين مؤرخيه ومترجميه ، في مدى العناية بهذه الرحلة الفاصلة : جاء بها بعضهم خبراً عابراً في سياق التتابع الزمني لأحداث

حياته ، وآخرون منهم التقطوا أخبارا عن الرحلة ، تتعلق بما شُغلوا به من أمر عقيدته ، أو ما بهرهم من عجيب ذكائه ونادر حفظه .

وجمع « ابن العديم » – ت سنة ٦٦٠ هـ – ما صح لديه من الأخبار والمرويات عن الرحلة ، في فصل من كتاب « الإنصاف والتحري » عنوانه : « في ذكر رحلته إلى بغداد وعوده إلى معرة النعمان ، وانقطاعه عن الناس وتسمية نفسه : رهين المحبسين – رحمه الله » .

وأرى مؤرخيه مع ذلك التفاوت ، لم يعطوا للرحلة تفسيرا مقنعا ، يثبت للنظر الناقد .

أبو العلاء وحده ، هو الذي يعطينا هذا التفسير ، في آثاره التي تؤرخ لنا رحلته النفسية والفكرية مع الدنيا ، وتسجل نبض وجدانه ومنطلَق تأملاته ، منذ وعَى الوجودَ إلى أن نام واستراح ...

ديوان (سقط الزند) فيه شعر الشطر الأول من حياته ، كما ذكر مؤرخوه .

وفي الشطر الثاني على التحقيق ، أملى : الفصول والغايات ، ولزوم ما لا يلزم ، ورسالة الغفران ، وملقى السبيل ، ورسالة الملائكة ، ورسائله إلى داعي الدعاة ...

وبين الشطرين ، في مفترق الطرق ، أملى رسالته إلى أهل بلده عند منصرَفه من بغداد ، ورسالته إلى خاله « أبي القاسم علي » عند أوبته إلى المعرة .

وسائر رسائله ، لا يشق على دارس أن يلتمس الشواهد الهادية إلى

تاريخ إملائها ، ليعرف ما كان منها في هذا الشطر من حياته أو ذاك ..

ومن مقابلة النصوص ، نستطيع أن نتبين أثر الرحلة البغدادية التي أحدثت ذلك التحول الحاسم في حياته إنسانا ، وفي فنه وتأملاته أديبا ومفكرا . ونطيل الإصغاء إلى أبي العلاء وهو يفسر لنا سر تلك الرحلة ، ويقول الحق فيما ذكره مؤرخوه عنها ، وما أهملوه ...

مناخ العصر

هذي بضائعُ الناسِ معروضةً
فعاشِروا العالَمَ أو فارقوا
أبو العلاء
(لزوم ما لا يلزم)

ونحتاج هنا إلى نظرة تطل على ذلك العالمَ الذي خرج إليه أبو العلاء ، لنعرف المناخ الذي تنفس فيه ببغداد .

نظرة من أفق عام ، لا تنعزل فيه بغداد عن الحياة العامة للدولة الإسلامية التي كانت مدينة المنصور عاصمة لها ، منذ أسسها سنة ١٤٥ هـ.

وأبو العلاء عاش ما بين سنتي ٣٦٣ : ٤٤٩ هـ .

وحين ندرس عصره ، نقف به عند منتصف القرن الخامس لا نتجاوزه إلى ما بعد رحيله عن الدنيا .

لكنا نرجع ببدايته إلى حوالي منتصف القرن الرابع ، قبل مولد أبي العلاء ببضع عشرة سنة ، تقديرا للمؤثرات القريبة التي شاركت في توجيه مجرى الأحداث وسير الحياة العامة ، إلى حيث قدر لها في زمن أبي العلاء .

والنصف الثاني من القرن الرابع ، قد شهد بدء انهيار الدويلات الفتية التي قامت في أقطار الدولة الإسلامية ، وكان لها من القوة في أول أمرها ، ما هيأ لها الظفر بالاستقلال الذاتي مع التبعية الرسمية لبغداد ، مركز الخلافة . كما كان لها دور واضح في النهوض بالأقاليم ، في ظل الحكم الذاتي ...

وكان من الممكن ، لو أسعفت الظروف وقبلت سنة الحياة ، أن تقوى الدولة الإسلامية بقوة أقطارها . لكن ضعف السلطان المركزي في بغداد ، عجّل بانهيار الدويلات القوية في الأطراف : إذ كان أمراؤها ملزمين بالحرص على الارتباط الرسمي بخليفة المسلمين ، احتفاظا بالمظهر الديني لقيادة الجماهير . فكانوا يلتمسون السندَ الشرعي بولاء جبري للخليفة ، تدعيما لسلطتهم الإقليمية وكسبا لطاعة الجماهير المحكومة .

ثم إذا مات الأمير ، مؤسس الدولة الإقليمية ، وخلفته ذرية ضعاف ، ضاع التدبير وانهار المُلك ، بعد أعوام قد تُعد بالعشرات ، وليست ، بالتي تُحسب في أعمار الدُول والممالك :

كل قائد يبلغ مبلغ القوة ، يستطيع أن يخرج على الأمير ، إذا اشترى تأييد الخليفة .

وكل مظهر من مظاهر الضعفِ في وُلاة الأقاليم ، يعالجه الطامحون من جندهم ومواليهم ، أو جيرانهم ومنافسيهم ، بضربة باترة يباركها خليفة المسلمين .

وكل عرش يموت أميره ، تتطاول إليه أعناق ذوي القوة ، ولا على القوي أن يطأ الرءوس ويخوض في الدم ، مادام في حسابه أن تؤيده بغداد بصكٍّ شرعي !

والشعوب بمعزل عن هذا كله ، وإن كانت شرعية الحكم تلتمس من الخليفة ، للسيطرة عليها .

وإنما حسبها ، في واقع الأمر ، أن تتفرج على الصراع الدائر ، ولا فرق عندها بين غالب يحكم باسم خليفة المسلمين ، ومغلوب كان يحكم باسمه كذلك ...

****

والقرن الخامس ، هو الذي شهد ترسخ الإمارات الإقليمية ، تحت معاول الفتنة والتآمر ، ولطمات الدسِّ والكيد ،

والعدو واقف بالمرصاد ، يتربص بها الدوائر .

وقلب الدولة ـ بغداد ـ قد وهَى وتصدَّع ، فهي في عصر أبي العلاء مسرح للفتن والمغامرات ، وسوق للصفقات والمزايدات . ضعُف شأن الديلم القائمين بالأمر فيها ، وتسلط المرتزقة من جند الترك فأكثروا فيها الفساد .

وجلجلت أصواتٌ بِنِحَلٍ دخيلة ومِلَل طارئة غريبة ، من مثنوية وحلولية وتناسخ وزندقة ... واحتدم الصراع الشعوبي والمذهبي فتاهت

القيمُ في غبار النقع المثار .

وضريت الطبقية : فالثروة في المجتمع المتصدع يستأثر بها أفراد معدودون ، والحقوق الاجتماعية للناس غير مقررة ولا مؤداة ، بل يأكل الأقوياءُ الضعفاء .

ونجم عن خلل الأوضاع الاقتصادية وفساد الأحوال السياسية ، أعراضٌ مرضية : من سوء النظرة للحياة ، وانتظار المباغتات . وظهر سوءُ الخلقية الفردية فيما شاع من نفاق و دجل ونفعية وصولية . كما ظهر سوءُ الخلقية العامة في تمزق الوحدة والسكوت على المنكر ، وفي تصارع المذاهب والقوى دون أن يكون في الأمر شيءٌ من حقوق مقررة أو قيم ثابتة أو نظم مستقرة أو تقاليد راسخة . وإنما هو التنازع العاري على السلطة والجاه والثراء : بالقوة والاغتصاب ، أو بالمكر والحيلة والنفاق ، أو بالتزلف والتملق والاستجداء . وصار الدين إلى صبغة مذهبية ، تؤثر عليه الأعراض الطارئة ويتغير بتغير الأسر الحاكمة ، وما أسرع ما كانت تتغير وتتبدل !

* * * *

والحق أن هذا الفساد لم يكن طارئا مفاجئا ، بل كانت له من قديم بذور كامنة ، لبثت طويلا تعمل عملها في الخفاء وتنخر في أساس الدولة ؛ لكنها في عصر أبي العلاء كانت قد نمت وترعرعت ، وآتت أُكُلَها السامَّ المشئوم .

والحق ، كذلك ، أن أبا العلاء لم يكن قبل رحلته إلى بغداد ، بمعزل عن هذا كله . فمدينة « حلب » من كبريات حواضر الشام .

والشام من قديم يقف بين التيارات المتدافعة : في الجالية كان بين روم وفرس وعرب ؛ وفي العصر الأموي كان بين حجاز وعراق ؛ وهو في عصر أبي العلاء بين العباسيين والفاطمين ، والروم منه غير بعيد .

والمعري يتنفس في هذا الجو ، وعلى بابه تصطخب الأمواج . وقد وُلِد في عنفوان الصدام ، سنةَ أُقيمت الدعوةُ بالحرمين للمُعِز العبيدي الفاطمي وقُطِعت خطبة بني العباس . يلتفت عن يمين فإذا العراق غير بعيد منه ، فيه خلافة عباسية سُنية قائمة ، بايعها جمهور المسلمين ورسَّخها عمر طويل قارَب منتصف قرنه الثالث .

ويلتفت إلى يسار ، فإذا مصر قريبة منه واصلة إليه ، قد استقرت فيها دولة فاطمية قوية فتية ، في عنفوان نشاطها وضجيج دعوتها . ومن حولها التفَّ الناقمون والطامحون والمغامرون ، وحفَّتْ بها إيحاءات غيبية وهمسات سِرية ...

و « حلب » كانت تابعة للعباسية في عصرها الأول . ثم استقلت بها الحمدانية استقلالا ذاتيا مع التبعية الرسمية لبغداد . وولد « أبو العلاء » ليشهد انطفاء الشعاع البارق ، وقد طويت الصفحات المجيدة التي كتبها « سيف الدولة الحمداني » بجهاده وبطولاته ، ووُضِعت مكانها صفحاتٌ سود مكتوبة بالتخاذل والتمزق والهزيمة ، واستجداء المعونة من الروم الذين أمضى سيف الدولة حياته يحاربهم مجاهدا ، ويدفعهم عن ديار الإسلام .

انتهى ذلك المُلك الشامخ إلى « أبي الفضل » حفيد سيف الدولة ، سنة ٣٨١ هـ ، فسلبه منه « أبو نصر بن لؤلؤ » أحد موالي أبيه سعد

الدولة . ثم وثب على أبي نصر ، مولاه « فتح » فاعتصم في قلعة حلب ، وكاتَب الخليفة الفاطمي العلوي بمصر ، فولّاه عليها وأعطاه معها « صيدا ، وبيروت » على حين سار « ابن لؤلؤ » إلى أنطاكية ، وهي يومئذ للروم ، فأقام معهم بها .

وظلت حلب – عاصمة سيف الدولة – تنتقل من يد إلى يد ، حتى غزاها « صالح بن مرداس » سنة ٤١٤ هـ.واستقر بها بضع سنوات ، إلى أن غزاه جيشُ الظاهر الفاطمي العلوي ، فقتله سنة ٤٢٠ هـ ، وقتل معه ولده وأرسل رأسيهما إلى الخليفة الظاهر بمصر !

بعد سنتين اثنتين ، كان الروم يسيرون إلى حلب ومعهم « حَسَّان ابن مفرج الطائي » – وكان قد هرب إليهم إثر هزيمته من عسكر الظاهر على الأردن . وسجل التاريخ سنة ٤٢٢ هـ ، مشهد دخول « حَسَّان » الأمير العربي ، وعلى رأسه علَمٌ فيه صليب ، ومن حوله عساكر الروم يقتحمون حلب غزاة ظافرين منتقمين ، ليذيقوا أهلها وبال التعذيب وذل الأَسر والسباء .

ونجا « أبو كامل شبل الدولة : نصر بن صالح بن مرداس » فسار إلى حلب وحارب الروم عنها ، وظل يحكمها إلى أن قتله جيش « المستنصر الفاطمي » في حماة ، سنة ٤٢٩ هـ .

وتتابعت جولات الصراع بين الولاة والحكام ، إلى وفاة أبي العلاء ... [1]

****

(١) عرضت لعصر أبي العلاء بمزيد تفصيل في (الغفران : دراسة نقدية) ط . دار المعارف بالقاهرة .

كلا ، لم يكن أبو العلاء قبل رحلة بغداد ، بمعزل عن ذلك الصراع الدائر هناك أو هنالك ، وقد نقلنا ـ فيما مضى من حديث شبابه ـ بعض حماسياته من (سقط الزند) في المعارك بين المسلمين والروم . ونقلنا معها من شعره الأول ، ما ينم عن ضيقه بفساد العصر واختلال القيم واضطراب الموازين ،

لكنه فيما يبدو ، كان مشغولا إلى حد كبير ، بمعركة التحدي وأماني الطموح ، بحيث يمكن القول بأن إحساسه بفساد الحياة العامة ، كان يتوارى خلف إحساسه القوي بهمومه وأمانيه ، تاركا مع ذلك رواسب في أعماقه ، لن تلبث أن تظهر في تأملاته وأماليه ، بعد أن خلا إلى نفسه في عزلته ، واعتكف يرصد خَلل العصر وأمراض المجتمع .

على أنه مهما يكن شعوره بمجرى الأحداث في الشام ، فإن المعترك في الإقليم لا يُقاس بالذي في العاصمة الكبرى ، صخبا واختلاطا ووهَجا ونشاطا .

وإذا لم يكن قد فاته لمحُ ما هنالك على البُعد ، فإن « بغداد » رغم كل شيء ، لم تفقد جاذبيتها وسحرها . وهي عاصمة الدولة وحاضرة العربية والإسلام . وفيها كما عرف أبو العلاء وقال : « مجتمع أهلِ الجدلِ وموطن بقية السلف » وإليها رحلة أعلام العصر وأعيان الزمان .

ولم يحد من نشاطها العلمي والأدبي ، أنْ لم يكن كله خالصا لوجه العلم ونشر الثقافة . بل كان منه ما أريد به كذلك استكمال مظهرية الرياسة وأبهة السلطان .

ولعل هذا الوضع . كان من أسباب نشاطها ودواعي خصبها : فقد

جذب إلى العاصمة مع العلماء والكتاب ، كثيرا من الشعراء وطلاب الشهرة والجاه . وهناك ... وصل منهم مَن وصل إلى المناصب العالية ،

ووقف آخرون على أبواب السادة الحكام والأُمراء . يستجدون فضلات موائدهم ، يحدوهم صوت زعيمهم المتنبي ، في النصف الأَول من القرن الرابع :

أبا المسكِ هل في الكأْس فضل أنالُه
فإني أغني منـــذ حيـــنٍ وتشرب !

****

وإلى هذا المعترك الصاخب مضى أبو العلاء ، ليجد نفسه هناك في دوامة المو ج الهادر ...

وفي ذلك المناخ تنفس ، وأقام يختبر طاقته ويكتشف نفسه . إلى أن انتهى إلى عزلة وانفراد ...



حَديث الذهَاب

فيا برقُ ليس الكرخُ داري وإنما
رماني إليه الدهــرُ منذ ليـــالِ
فهلْ فيك من ماء المعرة قطــرةٌ
تغيث بهــا ظمــآنَ ليس بِسَالِ

أبو العلاء
(سقط الزند)

متى سافر إلى بغداد ؟

ولماذا ألقى بنفسه ، وهو الضرير المستطيع بغيره . في خضمِها المائج الهادر ؟

وماذا لقي فيها من صدمة زلزلت كيانه ودفعت به إلى أن يصدر على نفسه القرار الصارم بالعزلة والرفض ؟

أما متى سافر ، فمن الإخباريين من قالوا : سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ،

كابن الأنباري ، وياقوت ، والصفدي ، وابن حجر [1] .

ومنهم من قالوا : سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، كابن الجوزي والقفطي ، وأبي الفداء ، والذهبي [2] .

وهو خلاف يسير ، يمكن أن يفسره لنا قولُ « ابن العديم » إن أبا العلاء « رحل إلى بغداد سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، ودخلها سنةَ تسع وتسعين » .

روايةً بالمكاتبة ، تلقاها ابن العديم من كتابٍ سيَّره إليه « قاضي المعرة شهاب الدين أبو المعالي أحمد بن مُدرك بن سليمان » أحد بني سليمان آل أبي العلاء [3] .

وعلى هذه الرواية الموثقة ، يكون بعض الإخباريين قد حددوا زمن الرحلة بوقت خروج أبي العلاء من معرة النعمان ، وحددها الآخرون بوقت وصوله إلى بغداد .

ووهِمَ « ابنُ خلكان » فجعلهم رحلتين ، في سنتي ٣٩٨ هـ و ٣٩٩ هـ [4] ، وهو ما انفرد به لم يقله أحد سواه ، وليس في آثار أبي العلاء حديث إلا عن رحلة واحدة لم تتكرر .

والذي يعنينا على كل حال ، هو أنه سافر إلى بغداد ناضج الشباب فتيَّ الرجولة ، في نحو السادسة والثلاثين من عمره .

****

(١) في تراجمهم لأبي العلاء من مصنفاتهم : نزهة الألبا ، ومعجم الأدباء ، والوافي ، ولسان الميزان .
(٢) في تراجمهم لأبي العلاء من مصنفاتهم : المنتظم ، وإنباه الرواة ، والمختصر ، وتاريخ الإسلام .
(٣) الإنصاف والتحري : ٥٤٤/ تعريف .
(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان : أبو العلاء .

ولم سافر ؟

قيل : « إنه أوذي في وقفٍ له ، فرحل إلى بغداد متظلما من أمير حلب » وممن ذكر ذلك : « القفطي » في إنباه الرواة ، و « الذهبي » في تاريخ الإسلام .

لكنهم أمسكوا بعد ذلك ، فلم يأتوا بأي خبر يشير إلى أن أبا العلاء تحدث في مظلمته المتعلقة بهذا الوقف ، أثناء مقامه الذي طال ببغداد وامتد إلى سنة ٤٠٠ هـ .

كما لم يشر أبو العلاء إلى ذلك الوقف قط ، فيما أطال من حديثٍ عن رحلته ، بل إنه نفى نفيا قاطعا أن تكون متعلقة بمال .

فهل كانت رحلته التماسا لسعةٍ في الرزق واستكثارا من النشب ؟

يبدو أنه كان ، عند بعض القوم ، مظنة أن يفعل ، شأنه في هذا ، شأن الكثرة من العلماء والأدباء الذين رحلوا إلى بغداد .

وذلك ما نفاه مؤرخه « ابن العديم » بقوله : « ولم يرحل ، إلى بغداد ، لطلب دُنيا ولا رِفد »[1] واستشهد بأبيات أبي العلاء :

أإخواننا بين الفرات وجلّقٍ ... يَد الله لا خبَّرتُكم بمُحالِ
أنبئكم أني على العهد سالـم ... ووجهيَ لمَّا يبتذلْ بسؤالِ
وأني تيممت العراقَ لغير مـا ... تيمَّمه غيلانُ عند بـلالِ
فأصبحت محسودا بفضليَ وحده ... على بُعدِ أنصاري وقلةِ مالي

الأبيات من (سقط الزند) وصريح نصها أنه سيَّرها وهو مقيم

---

(١) الإنصاف والتحري : ٥٤٢/ التعريف .

ببغداد ، على بُعدِ أنصارِه ، بلاغا إلى عامة الإخوان ما بين الفرات وجلق ، من أهل العراق والشام ، بأن من المُحال عنده أن يبتذل وجهه بسؤال . أما لماذا آثر بالذكر « غيلان » دون سائر الشعراء الذين تيمموا العراق التماسا لرفد الولاة والخلفاء ، فلأن غيلان ذا الرمة ، كان يتيمم الكوفة على عهد واليها « بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري » فكان يسخو في صلته دون أن يسأله ، وقد عُرِف عن ذي الرمة أنه « إذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع »[1] .

فكأنما كبُر على أبي العلاء أن يذكر سواه من الشعراء الذين ابتذلت وجوهُهم بالسؤال . وإنما حسبه أن يشير إلى غيلان الذي كان يتقبل عطاء بلال دون سؤال ، على حين رفض أبو العلاء أن يقبل صلة من أي إنسان ، ولو عُرِضت عليه دون سؤال .

فلنذكر مع أبياته التي سيَّرها من بغداد ، واستشهد بها « ابن العديم » على نفي أن يكون رحل « لطلب دنيا أو رفد » أن أبا العلاء عاد فأكد هذا النفي القاطع ، وأكد معه أن المال عُرِض عليه فأباه عليه طبعه ورفضته مروءته . أملى في بلاغه إلى أهل المعرة ، برسالته التي سيرها إليهم عند خروجه من بغداد في طريق الإياب :

« وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب ...

« والله يحسن جزاء البغداديين ، فلقد وصفوني بما لا أستحق ... وعرضوا عليَّ أموالَهم عرض الجد ، فوجدوني غيرَ جَذِلٍ بالصفاتِ ، ولا هَشٍّ إلى معروف الأقوام » .

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١/٤١ ط . المعارف بالقاهرة .

وأملى في رسالته إلى خاله « أبي القاسم علي بن سبيكة » مشيرا إلى محاولة البغداديين قضاء حاجاته ، حرصا منهم على بقائه بينهم :

« وكلما عَرَضوا قضاء حاجةٍ أعرضتُ عن تكليف المشقة ، لأني أعتقد حكمة « زهير » في قوله :[1]

ومن لا يزل يستحمل الناسَ نفسَه

ولا يُعفها يوما من الذلِّ يُسأم

« وأمروني لرغبتهم في صقبي - جِواري - منهم ، بأُمورٍ تنهى عنها القناعة وتكفُّ دونَها العادةُ :

على حين أنْ ذكَّيْتُ وابيضَّ مفرقي

أُسامُ الذي أعييتُ إذ أنا أمرَدُ

****

أماويَّ ما يغني الثراءُ عن الفتى

إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدرُ »[2]

وأبو العلاء عندنا المصدَّق . وكلماته تشهد بأنه لم يتكلف رفض العطاء والمنةِ تجمُّلا ، وإنما ذاك حُكم العادة وإباء الطبيعة والسجية ، فليس بحيث يُسام وقد ابيض مفرقه ، ما أعياه وهو أمردُ .

فلعله إذنْ قد سافر يستزيد من العلم ويستكثر من عدد شيوخه ، على مألوف عصره ، إذ كان العالِمُ يعتز بكثرة مَن لقي من الشيوخ ؟

---

(١) زهير بن أبي سلمى ، والبيت من معلقته .

(٢) البيت لحاتم الطائي ، وقد عذلته زوجه ماوية على إتلاف ماله جوداً - وانظر رسالتي أبي العلاء في مجموع رسائله .

يخطر ذلك على البال .

لولا أن أبا العلاء ينفيه نفيا قاطعا في رسالتيه اللتين أملاهما عند منصَرفه من العراق ، فقال في إحداهما ، لخاله أبي القاسم :

« ومنذ فارقتُ العشرين من العمر ، ما حدَّثت نفسي باجتداء علمٍ من عراقي ولا شامي ... وانصرفت – من بغداد – وماءُ وجهي في سِقاءٍ غير سرب ، لم أُرق منه قطرة في طلب أدبٍ ولا مال ... » .

وقال في الأُخرى ، لأهل المعرة :

« وأحلف ما سافرتُ أَستكثر من النشب ، ولا أتكثر بلقاءِ الرجال[1] »

****

ففيم إذن كان السفر ؟

أبو العلاء يصرح في رسالته إلى خاله ، بأَن الذي أقدمه إلى تلك البلاد « مكانُ دارِ الكتب بها » .

كما يصرح في رسالته إلى أهل بلده ، أنه إنما « آثر الإقامة بدار العلم » .

وليس قوله عندنا بمتهم ، ويذكرون في تاريخه أنه « لما وصل إلى بغداد ، طلب أن تُعرض عليه الكتب التي في خزائنها » .

لكن بقي أن نسأَل : إذا كانت هذه هي الغاية من الرحلة ، ففيم كان ذلك التحول الخطير في حياته بانصرافه من بغداد ، وقد حقق غايته من السفر إليها وعُرِضت عليه كل الكتب التي طلبها هناك ؟

---

(١) أنظر مع رسالتيه ، قصيدة أخيه أبي الهيثم عن هذه الرحلة البغدادية . وتأتي القصيدة في مقال يلي : « في خضم العاصمة » .

ويذكر « ابن فضل العمري » أنه لما أجيب إلى طلبه « جعل لا يقرأ كتابا إلا حفظ جميع ما يُقرأُ عليه »[1] ويضيف « القفطي » أنه حضر خزانة الكتب التي بيد عبد السلام وعرض عليه أسماءها ، فلم يستغرب شيئاً لم يره – من قبل – سوى « ديوان تيم اللات » فاستعاره ، وخرج من بغداد وقد سها عن إعادته . ولم يذكره حتى صار بالمعرة ، فأعاده إليه[2]

وفي النصوص العلائية ما يؤيد هذه الأخبار عن رحلته[3] . فتكون بذلك قد حققت غايتها ونجحت كل النجاح ، بحيث يعوزنا أن نَفهم سر قراره بالانسحاب والعزلة ، والانقطاع عن الدنيا .

ولقد لقينا أبا العلاء في (سقط الزند) قبل رحلته ، وسمعناه يجلجل بقصائده المسرفة في التحدي والمكابرة ، المعبرة عن طموح لا يعرف مدى يقف عنده . وسمعنا قبلها ما نقل « الثعالبي » من قول المصيصي الشاعر : « لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب . رأيت أعمى شاعرا ظريفا يلعب الشطرنج والنرد ، ويدخل في كل فن من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء . وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر ، فقد صنع لي وأحسَنَ بي إذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء »[4] .

---

(١) مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري / ص ٢٢٤ تعريف .

(٢) إنباه الرواة : ترجمة أبي العلاء .

(٣) أنظر رسالته إلى عبد السلام البصري في مجموع الرسائل . ومعه حديثه عن دار العلم ببغداد ، في (رسالة الغفران) ص ١٤٧ ط الذخائر الخامسة .

(٤) أبو منصور الثعالبي : تتمة اليتيمة ١/ ٩ .

مع الأيام والسنين ، نضج وعيه لذاته واكتشافه لنفسه وإدراكه لكنه ظل طويلا يقاوم دواعي القنوط ويفر من الاستسلام للهزيمة فيما أراد من تحدي الأيام و « معاندة القدر » حتى بدا له آخر الأمر أن يحسم معركته بالسفر إلى بغداد ، التماسا « لإحدى الراحتين » .

وأغلب الظن أنه صفّى حسابه قبل الرحلة ، مع طموحه ، فلم يستبق منه إلا الرجاء في المجد العلمي والجاه الأدبي . وكانت له منذ صباه شهرة إقليمية إن لم يشهد بها المروي من أخبار شبابه بالمعرة ، فإن في (سقط الزند) شواهد ناطقة بما أتيح له من تفوق ، وشعوره بأنه فات بمواهبه من تعلقوا بمنافسته ، فما عادوا قادرين على أن يبلغوا شأوه إلا أن تختل الموازين وتضل المقاييس ، فيصف « مادرٌ » حاتم الطائيَّ بالبخل ، ويُعير « باقلٌ » قسَّ بن ساعدة الإيادي ، بالفهاهة والعي ، ويقول السُّهى للشمس : أنت ضئيلة ، وتفاخر الشهبَ الحصى والجنادلُ ...

وقد بقي ، ليسجل هذه الشهرة الإقليمية ، أن تعترف به بغداد ، حين كان اعترافها مطمحَ كل عالم وأديب يجد في علمه أو مواهبه ما يؤهله للظفر بشهادةٍ من عاصمة العربية والإسلام .

وشدَّ رحالَه إلى مدينة السلام ، يحدوه رجاء كبير في أن يفر من هواجس الحيرة التي أنهكته بين شد وجذب ، وأن يعرف ماذا وراء أمله الباقي في أن يفرض وجوده على الدنيا والناس .

وتزود للرحلة بأسلحته التي يملكها :

ذكاء شبه أسطوري ، ورسوخ عميق في علوم العربية والإسلام ،

وموهبة أدبية أصيلة مبدعة .

تلك كانت أسلحته في الجولة الحاسمة من معركته مع نفسه ، ومع الدنيا .

طال عليه الطريق وأجهده السرى وهو يتعجل الوصول إلى بغداد ، نافد الصبر ضيق الصدر بكلال ناقته .

ولم يذكر مؤرخوه من حديث الذهاب ، إلا خبراً نقله « ابن العديم » سماعا من والده عن مشايخ أهل حلب ، في معرض الكلام عن ذاكرته العجيبة .

قيل إنه مرَّ وهو راكبٌ بشجرة ، في طريقه إلى بغداد. فقال له مَن يقوده : « طأطئْ رأسك » ففعل . حتى إذا آب من الرحلة بعد عام وبعض عام ، ومرَّ بذلك الموضع ، طأطأ رأسه من تلقاء نفسه . فسئل في ذلك فأجاب : « ها هنا شجرة » قالوا : « ما ها هنا شيء » ثم فحصوا الموضع فإذا أصل شجرة مجتثة [1] .

« طأطئ رأسك » .

ما أشقها من كلمة على الحس المرهف لهذا الضرير الذي يخرج لأول مرة إلى خضم العالم الواسع ، وقد كان من قبلُ أَلِفَ الحركة في حدود عالمه الصغير الضيق ما بين المعرة وحلب ، مهتديا بحسّه الذكي وبصيرته الثاقبة ، ومترنما بمثل قوله في الدهر الأول :

وأغدو ولو أن الصباح صوارم
وأسري ولو أن الظلام جحافل !

(١) الإنصاف والتحري : ٥٥٩/ تعريف . ومثله في (مسالك الأبصار) لابن فضل الله العمري .

وهذه هي شجرة فحسب على الطريق ، أنَّى له أن يتقي الاصطدام بها إلا أن يقول له مَن يقوده ، منبها ومرشدا : طأْطىء رأسك !

***

غير أن شح الأخبار عن رحلته ، يعوضه سخاء أبي العلاء في تسجيل كل خطواته وخواطره . وفي (سقط الزند) قصيدة مطولة أرسلها وهو في طريق الذهاب ، إلى « أبي حامد الاسفرايينى ، من أعلام بغداد » يسأله أن يكون دليلَه في متاهة العاصمة . أعني قصيدته العينية التي مطلعها :

لا وضعَ للرحلِ إلى بعد إيضاع
فكيف شاهدت إمضائي وإزماعي
يا ناق جِدِّي فقد أفنت أناتُك لي
صبري وعمري وأحلاسي وأنساعي [1]

ومنها نعلم أنه أخذ طريق الأنبار والقادسية . ثم عبرَ بادية الشام نحو بغداد . ويحدثنا عما تجشم من مشاق السفر في المهمَهِ القفر ، مع مخاوفه ووحشته :

سارتْ فزارت بنا الأنبارَ سالمـة
تزجي وتدفع في موجٍ ودفّـاع
والقادسيـة أدّتْهـا إلى نَفَـرٍ
طافوا بها فأناخوهـا بجَعجـاع

---

(١) الأحلاس : جمع حلس ، وهو كساء يطرح على ظهر البعير . والأنساع : جمع نسع ، سير تشد به الرحال .

ورُبَّ ظُهْرٍ وصلناها على عجل
بِعَصْرِها ، في بعيد الوِرد لمَّاع
بضربتين : لِطهر الوجهِ واحدةٌ
وللذراعين أخرى ذات إسراع
وكم قصرنا صلاةً غيرَ نافلةٍ
في مَهمَهٍ كصلاة الكسف شعشاع
وما جَهَرنا ، ولم يصدح مؤذننا
من خوفِ كلِّ طويل الرمح خَدَّاع [1]

. . . .

إلى أن قال :

وبالعراق رجالٌ قربُهم شرف
هاجرتُ في حبِّهم رهطي وأشياعي
اسمعْ أبا حامدٍ فتيا قُصِدتَ بها
من زائر لجميلِ الودِّ مُبتاع
مؤدبِ النفس أكَّالٍ على سغَب
لحمَ النوائب شرابٍ بأنقاع
أرضى وأنصِفُ إلا أنني رُبَّما
أربيت ، غيرَ مجيزٍ خرق إجماع

(١) يشير إلى قطاع الطرق في البادية المقفرة . ومن خوفهم كان ما ذكره من الجمع بين صلاتي الظهر والعصر ترخصا ، وقصر صلاة من الفرائض لا النوافل . ويعني بضربتين لطهر الوجه والذراعين : التيمم ، والورد بعيد كالسراب .

وذاك أنيَ أعطِي الوسقَ منتحيـا
من المودة ، مُعطِي الودَّ بالصاع
ولا أُثقِّل في جاهٍ ولا نشـب
ولو غدوتُ أخـا عُدْمٍ وإدقـاع
من قال : صادق لئام الناس قلت له
قولَ ابن أسْلَتَ : قد أبلغت أسماعي[1]

*

مطيّتي في مكـانٍ لستُ آمنـه
على المطايا وسرحانٍ لـه راع
فارفع بكفِّي فـإني طائش قدمي
وامدُد بضبعي فإني ضيقُ باعـي
وما يكن فلَكَ الحمد الجميل به
وإن أُضِيعتْ فإني شاكر داعِ

هواجس كانت تساوره وهو في طريقه إلى العاصمة ، يخشى فيها عثرة القدم وضيق الباع ، ويخاف على رحله في مكانٍ لا يأمنه على المطايا ، والذئب راعٍ فيه ! .

وإذ يحتاج إلى عونٍ من جميل ودِّ أبي حامد الإسفراييني ، يبادر فيعرف رجال العراق بزائرهم الذي هاجر فيهم رهطه وأشياعه :

مؤدب النفس ، أكّالٍ لحمَ النوائب ، على شدة جوع . ينصف

(١) تضمين لقول أبي قيس بن الأسلت في بيته :

قالت ، ولم تقصد لقيل الخنا … مهلا ، لقد ابلغـت أسماعي

برعاية حقوق المودة ، إلا أنه ربما ضاعف جزاءها ستين مرة ، فأعطى بالصاع منها وسقاً ـ والوسق ستون صاعاً ـ رِباً حَلالاً .

وحدد مؤرخوه ليوم وصوله إلى بغداد ، ظرفا كئيبا لطم قلبَه الحسَّاس لطمة قاسية . وأنقل هنا من وصفهم لمشهد وصوله :

« واتفق يومَ وصوله إلى بغداد ، موتُ الشريف الطاهر والد الشريفين الرَّضِي والمرتضى . فدخل أبو العلاء إلى عزائه والناس مجتمعون والمجلسُ غاصٌ بأهله . فتخطى بعضَ الناس فقال له ، ولم يعرفه : « إلى أين يا كلب ؟ » قال أبو العلاء : « الكلب مَن لا يعرف للكلب سبعين اسماً » ثم جلس في أخريات المجلس ، إلى أن قام الشعراء وأنشدوا مراثيهم ، فوقف أبو العلاء وأنشد ، مرتجلا ، قصيدته في رثاء الفقيد :

* أوْدَى فليت الحادثات كفافِ *

فلما سمعه ولَدا الشريف الطاهر ، قاما إليه ورفعا مجلسه وقالا له : لعلك أبو العلاء المعري ؟ قال : نعم . فأكرماه واحترماه »[1] .

مأتم يستقبله يوم وصوله ؟

والكلب ، أول لقبٍ تقدمه إليه بغداد ؟

ما أعجبه من اتفاق ! لكأنما وقفت الدنيا مترصدة تنتظر مقدم ذلك المغرور المتعالى ، لترده إلى موضعه على الأرض ، بعد ما طال مزعمه أن النجم دونه !

وأوى إلى فراش غربته محزونا يجتر قهره ويلعق جرحه ، ويرنو بوجدانه عبر الظلام الدامس المتكاثف ، إلى برق لاح له من ديار الشام

(١) ابن العديم : الإنصاف والتحري ، ٥٤٣/ تعريف .

فهاج مواجعه . ويصغي في صمت الليل وفراغ الوحدة ، إلى صدًى ملء مسمعه من تحنان الإبل يعذبه . كانت تحن إلى الديار ، رغم حرصه على ستر وجوهها كيلا تلمح إيماض البرق المتعالي من ناحية الشام . ولولا ما بينه وبين المطايا من تعاطف وما جُبِل عليه من حفاظ ورحمة ، لأمر صاحبه – رفيقه في السفر وقائده – أن يقيد بالسيف جموحها نحو مرابعها الأليفة . وإنه مع ذلك ليعجب لهذه البهم : هل زارها طيف خيال كما زاره طيف خيال فهاجه ؟ وما أبعد الفرق بينها وبينه : إنها لن تلبث أن تنسى بمياه دجلة مياه قويق ، ومياها أُخرى وردتها من قبلُ بالفلاة ، وهيهات لمثله أن ينسى . وإنها لذاهلة عما تلهب بتحنانها من وجدٍ في صدره ، وهيهات لمثله أن يذهل أو يسلو !

ومن أعماق وحشته ، يأتينا صوتُه ولمَّا يمض عليه في بغداد غير ليالٍ ، مسجلا مرهف تأملاته وخواطره ، ونبض وجدانه ورجع شجوه وشجنه ، في لاميته الرائعة التي تذكرني بداية « طرفة بن العبد » المعلقة ، إذ أطال الوصف الحسي لشكل ناقته وأعضائها وحركاتها ، على حين أطال أبو العلاء الصحبة الوجدانية للمطايا ، وشُغل في رؤياه الشعرية بالعالم النفسي عن ظواهر الحسيات وأشكال الأعضاء :

طرِبْـنَ لضـوء البـارق المتعـالي
ببغداد وهْناً ، ما لهنَّ ومـا لي !
سمتْ نحوه الأبصار حتى كأنها
بناريه ، من هنا وثَمَّ ، صوالي

إذا طال عنها سرُّها لو رعُوسُها

تُمد إليــه في رعُوس عــوالــي

تمنت « قويقا » والصراةُ حيالَها

سرابٌ لها من أينُقٍ وجمال [1]

إذا لاح إيماضٌ سترتُ وجوهـهـا

كأنِّيَ عمرو ، والمطــي سعــالي [2]

وكم هَمَّ نِضوٌ أن يطير مع الصبا

إلى الشام ، لولا حبسُه بِعُقالِ

ولولا حِفاظي قلت للمرء صاحبي

بسيفِــك قيِّدْهــا فلست أبــالي

أأبغي لها شرّاً ولـــم أر مثلَهـــا

سفائرَ ليــلٍ أو سفائــنَ آلِ ؟

لقد زارني طيف الخيال فهاجني

فهل زار هذي الإبْلَ طيف خيالِ

لعل كَراها قد أراها جذابَهـــــا

ذوائبَ طلحٍ بالعقيق وضـــــالِ

---

(١) قويق : نهر حلب . والصراة : نهر ببغداد .

(٢) من أساطير العرب أن عمرو بن يربوع بن حنظلة ، تزوج السعلاة — أنثى الغول . فقيل له : إنك ستراها خير امرأة ما لم تر برقا ، فإنها إذا رأت البرق لم تلبث مكانها .

فكان عمرو اذا لاح برق سترها عنه . إلى أن غفل ذات ليلة ولاح البرق فاندفعت لا تلوي على زوج أو ولد ، وقالت فيما زعموا :

أمسك بنيك عمر إني آبق

برق على أرض السعالي آلق !

ومسرحَها في ظلٍّ أحوى كأنهـا
إذا أظهرَتْ فيه ذواتُ حِجـال

حلمنا بأسنانِ الكهولِ ، وهذه
شوارفُ تزهاهـا حلـومُ إفـال

ترى العودَ منهـا باكيـا فكأنه
فصيلٌ حمـاه الخلفَ ربٌّ عيال (١)

ستنسى مياهـاً بالفـلاة نميـرة
كنسيانهـا وِرْداً بعيـن إثـال (٢)

وإن ذهلت عما أجـنَّ صدورُها
فقد ألهبت وجدا صدور رجـال

ولو وَضعتْ في دجلة الهامَ لم تفق
من الجزْع إلا والقلوبُ خـوالِ

تَلَوْن زبورا في الحنيـن منـزلا
عليهن ، فيه الصبرُ غيرُ حلالِ

بكى سامريُّ الجفن أن لامَسَ الكرى
له هدب جفنٍ مسَّه بِسجـال

تهاداني الأرواحُ حتى تحطـني
على يد ريح بالفراتِ شمـال

(١) العود : المسن من الإبل . والخلف : الضرع . وحماه بمعنى منعه .
(٢) عين إثال : عين تردها الوحوش . كأنه يعني نسيان الإبل عهد توحشها الطليق بالفلاة .

فيا برقُ ليس الكرخ داري وإنما
رمــاني إليه الدهر منذ ليــالِ
فهل فيك من ماء المعرة قطــرة
تغيث بهــا ظمآنَ ليس بســالِ

****

أإخواننا بين الفــرات وجِلَّـــقٍ
يدَ الله ، لا خبَّرتكــم بمحــالِ
أنبئكم أني على العهــد سالــم
ووجهــي لمــا يبتــذل بســؤال
وأني تيممت العراق لغيــر مــا
تيممه غيــلانُ عنــد بـــلال
فأصبحت محسودا بفضليَ وحده
عــلى بُعد أنصاري وقلــة مــالي

****

ندمت على أرض العواصم بعدما
غدوتُ بها في السَّوْم غيرَ مغالي [1]
أروح فلا أخشى المنايا وأتقــي
تدنُّس عِرضٍ أو ذميمَ فعـــال

---

(١) العواصم : حصون من حلب إلى حماة ، منها معرة النعمان . وأبو العلاء نادم هنا على أن ساوم على العواصم ، بدار الغربة في بغداد ، فكانت صفقة خاسرة .

إذا ما حبالٌ من خليلٍ تصرّمــتْ

عَلِقتُ بخِـلٍّ غيــرِه بحِبــال

ولو أنني في هالةِ البــدر قاعــد

لمَا هــاب يومي رفعتي وجــلالي

****

في النفس إذنْ بقية من طموح ، ما تزال تعينه على محنته وتمده بشيء من طاقة الاحتمال ، بعد أن رماه الدهر إلى الكرخ منذ ليال ، وليس الكرخ داره كما قال .

فليطو إذن حنينه المُلتهب ، وليطوِ معه ما أحسَّ من وقع لفظ « الكلب » على وجدانه المرهف . وهو على كل حال لم يسكت على اللفظ الجارح ، بل أخرج من جعبته سلاحه : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما ...

وأرضاه أن سمعت أذناه ما اطمأن به إلى أن شهرته بإقليم حلب ، قد سبقته إلى بغداد ، إذ سأله الشريفان الرضي والمرتضى : لعلك أبو العلاء المعري ؟

أجل ، إنه هو ...

هو الذي يعرف للكلب سبعين اسما ، والذي يرتجل مرثية في الشريف الطاهر ، ينشدها في عزائه يوم وصوله إلى بغداد ، فيجذب الأسماع والقلوب ، ويحظى بالإكبار والتقدير .

. . . .

في خضم العاصمة

فيا دارَها بالحَزْنِ إن مَزارَها
قريب ، ولكنْ دون ذلك أهوالُ
تمنَّيتُ أن الخمر حلَّتْ لِنشوةٍ
تُجهِّلني كيف اطمأنت بيَ الحالُ
فأذهل أني بالعراقِ على شفىً
زريّ الأماني ، لا أنيس ولا مال

أبو العلاء

(سقط الزند)

في محلة « القطيعة » على شط دجلة كان منزله ....
ومن ماله الذي حمله معه من « المعرة » كان يدبر ضرورات عيشه .
وإليه توافد الناس في أول الأمر يختبرونه .
فلم يكن البغداديون بحيث يكتفون بشهادةٍ إقليمية يحملها أبو

العلاء معه من خارج العاصمة أو تسبقه إليها . فالذي يبهر الناسَ في المعرة أو حلب ، قد يكون في الحاضرة الكبرى للدولة غيرَ لافت ولا مثير ؛ ولا بد من أن يكون لأهل بغدادَ الكلمةُ الفاصلة فيما اشتهر من واسع علمه وعجيب ذكائه ونادر حفظه .

وفي الخبر أنهم أعدوا له امتحانا ، أشار إليه عدد من المؤرخين ، منهم « ابن فضل الله العمري » في كتابه (مسالك الأبصار) . ونص عبارته فيه :

« ولما دخل بغداد أرادوا امتحانه ، فأحضروا دستورَ الخراج الذي في الديوان ، وجعلوا يوردون عليه ما فيه مياوَمةً وهو يسمع إلى أن فرغوا . فابتدأ أبو العلاء وسرد عليهم كل ما أوردوه له » .

وهكذا اجتاز الامتحان بنجاح ، وأقر له البغداديون بأنه أعجوبة الزمان في حفظه وعلمه باللغة . كما شهدوا له شاعراً أصيلا مبدعا ، بقراءتهم عليه ديوانه (سقط الزند) بعد وصوله إلى بغداد .

وبدا له أن المعركة توشك أن تنتهي بما لاح له في دجاه من رجاء الإقامة في عاصمة العربية والإسلام ، مرفوعَ المكانة كريمَ الموضع .

وكانت معركته على وشك الانتهاء فعلا ، لكنْ على غير الوجه الذي ظنَّه أو رجاه .

دخَلَ خزائن العلم وعُرِض عليه كل ما فيها من كتب فوعاها حفظا واستيعابا ، بحيث لم يلق فيها ما يحمله معه عند خروجه من بغداد ، إلا ديوانا واحدا استعاره من خزانة بيت الحكمة — لعلها التي كانت بيد عبد السلام البصري — وهو (ديوان شعر تيم اللات) قبيلة أبي العلاء .

وتجوَّل بين الورَّاقين وخالطهم مذاكِراً . ولبث إلى ما بعد سنين طوال يذكر جولته بين الوراقين في مدينة السلام ويسترجع ذكرياته هناك . أملى في (رسالة الغفران) بعد نحو ربع قرن من رحلته إلى بغداد :

« وكنت بمدينة السلام فشاهدت بعض الورَّاقين يسأل عن قافيَّةِ عديٍّ بن زيد :

بكر العـاذلاتُ في غَلَسِ الصبْـــح يقولون لي أمـا تستفيقُ

ودعا بالصبوح فجراً فجاءت قينة في يمينهـا إبريــق

وزعم الوراق أن « ابن حاجب النعمان » سأل عن هذه القصيدة وطُلبتْ في (ديوانِ عديٍّ) فلم توجد . ثم سمعت بعد ذلك رجلا من أهل « أستراباذ » يقرأُ هذه القافية في ديوان العبادي – عدي بن زيد – ولم تكن في النسخة التي في دار العلم » . [1]

وأحبَّ أبو العلاء بغدادَ لما شغفه من خزائن الكتب فيها ، فضلا عن نشاط مجالسها العلمية حيث يُتاح له حضورٌ متألِّق جذَّاب ، في مجتمع علماء ذاك الزمان .

وظن أن « الزمان يسعفه على المقام بها » كما قال ...

لكن ظنه خاب !

وإذا كان لم يلق سلاحه يوم استقبلته بغداد بمأْتم الشريف الطاهر ، وصكَّت سمعَه الكلمة الجارحة ، فإن الأَيام كانت تدخر له ببغداد ما هو أقسى وأَمَرُّ :

---

(١) تجد في نسختنا المحققة من (رسالة الغفران) في طبعة ذخائر العرب ، إملاء لأبي العلاء حول بيتَي العبادي . وعلى هامشه تعريف بالأعلام في النص المنقول هنا من الرسالة .

ذكر « ابن الأنباري » في (نزهة الألبا) أن أبا العلاء قصدَ مجلس إمام النحو ببغداد « أبي الحسن علي بن عيسى الربَعي » فلما استُئذِن له قال أبو الحسن : ليصعد الإصطبل !

والإصطبل هو الأعمى بلغة أهل الشام ، فيما ذكر « ياقوت » في معجم أدبائه ، و « الصفدي » في (نكت الهيمان) .

وانصرف « أبو العلاء » من فوره لم يلق أبا الحسن .

وفي قلبه أثرُ السهم الجارح ، جاءه هذه المرةَ من شيخٍ نحوي ، في مجلس علم يعرف أبا العلاء ؛ وليس من رجل من العامة يجهله ، في مأْتم الشريف الطاهر .

وتركها تفوت ، أو طواها في أعماقه متجلدا ، ما يزال في طاقته بقية احتمال .

ثم كانت الطعنة النافذة ، من يدِ « الشريف المرتضى » نفسه ، ذاك الذي أكرم أبا العلاء ورفع موضعه ، عندما أنشد مرثيته في مأْتم الشريف الطاهر أبي السيد المرتضى :

يذكرون أن أبا العلاء « كان يوما بمجلس المرتضى وقد جاء ذكر « المتنبي » فتنقصه الشريف وجعل يتتبع عيوبه . فقال أبو العلاء :

– لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلا قصيدته :

* لكِ يا منازل في القلوبِ منازلُ *

لكفاه فضلا .

« فغضب السيد المرتضى وأمر فسُحِب أبو العلاء برجلِهِ وأُخرج مهانا من مجلسه . وقال لمن يحضرونه :

– أتدرون أي شيء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة ؟ فإن للمتنبي ما هو أجود منها لم يذكره .

قالوا : النقيبُ السيدُ أعرَفُ .

فقال : أراد قول المتنبي – في هذه القصيدة اللامية – :

وإذا أتتكَ مذمَّتي من ناقصٍ

فهي الشهادةُ لي بأنّي كامــلُ »

هل تفوت هذه أيضا ؟

« ياقوت » يربط بينها وبين انسحاب أبي العلاء إلى محبسه ، فيعقب على الحوار بين نقيب الأشراف ومَن حضروا مجلسه الذي طُرِدَ منه أبو العلاء ، بما نصه :

« ولما رجع إلى المعرة لزم بيته فلم يخرج منه ، وسمى نفسه رهين المحبسين »[1] .

على أن الموقف لم يكن بمثل هذا القرب ، بل احتاج إلى طول معاناة ما بين هذه الإهانة الساحقة ، وإنفاذ قرار العزلة .

أن يكون أبو العلاء تحامل على نفسه ولم يخرج فورا من بغداد إثر طرده مهانا مسحوبا من رجله ، من مجلس نقيب الأشراف ، فلا بد أنه كان يشق على نفسه بأكثر مما في طاقتها أن تحمله .

والذي لا ريب فيه عندنا ، هو أنه إذا لم يكن انسحب فورا من المعركة في ظاهر أمره وناجزِ فعله ، فقد انسحب منها نفسيا وبدأ يحس التعب والكلال ونفاد الحيلة والصبر ، ويصغي بوجدانه الجريح إلى

(١) ترجمة ياقوت لأبي العلاء ، في معجم الأدباء .

قصيدة سيَّرها إليه من المعرة أخوه الشاب « أبو الهيثم عبد الواحد » يستعطفه فيها على من خلَّف بالشام من دار وأهل وأحباب ، وينقم على بغداد أن اجتذبت ببريقها الخادع ، ذلك الماجدَ الأَبيَّ الكريم . وهي قصيدة مطولة ، نقل منها « ابن العديم » أربعة وثلاثين بيتا [1] .

وفيها يقول أبو الهيثم :

بغدادُ لا سُقيت ربوعُك ديمــةً
وغدتْ رياضُك حنظلا ومــرارا

أنت العروس يروق ظاهرُ أمرهــا
وتكون شينــا في اليقين وعــارا

أضرمتِ قلبي باجتذابــك ماجداً
كالسيفِ أعجب رونقــا وغــرارا

منَّيتِه محضــا ، فلمــا شفَّــه
ظمأٌ أتــاكِ به ، سقيتِ سمــارا

وجذبتِه فأتــاكِ يعتسف الــردى
ويخوض منه لُجــةً وغمـــارا

شغفا بدارِ العلم فيكِ ، وقلبُــه
مــا زال رَبْعــا للعلــوم ودارا

ما زدتِ عما عنده ، فسقاكِ مَن
رفع السمــاء نقيصــةً وعِثـــارا

. . . .

---

(١) في (الإنصاف والتحري) : ٥٤٤ / تعريف .

أأبا العلاء ، نداء عبدٍ أدركت
منه النوى لما نأتْ بك ثارا
حاشاك أن تُبدي الجفاء لخلة
وتعيدَ أقران الوفاء قصارا
أدْرِكْ بإدراكِ المعرة مهجةً
تَفنى عليك مخافةً وحِذارا
بلغت بك الهممُ المرادَ فأيأسَتْ
منك الحسودَ ولم تَنِطْ بك عارا
فأقمت في الزوراء ثم غدوتَ في
أفق المفاخر كوكبا سيَّارا
فاجنحْ على مرضاة ربِّك طالباً
منه الجزاء وجانِب الإصرارا
واسلم لقومِك إذ غدوت لمجدهم
تاجا تشرف فضله وسِوارا

فهل كانت أنباء أبي العلاء في غربته ، وما يلقى من خبث الناس وشرهم ، تصل إلى أهله بمعرة النعمان فتحزنهم وتشغل بالهم ؟

أو كان « أبو الهيثم » وهو من أقرب الأهل إلى أخيه أبي العلاء وأعرفهم بخلقه وسجيته وطبعه ، يتمثل حال الغريب النازح ، فيذوب قلبه « مخافة عليه وحِذارا » من المقام في بلدٍ تسرح فيه ثعالب الإنس وذئاب البشر ؟

كلا الفرْضَين ، مما يحتمل ...

في بغداد أيضا ، قبل أن يمضي ، قال قصيدة في صديقه « أبي علي النهاوندي ، محمد بن محمد بن فورجه » فجاءت نشيجَ وداع وأنينَ حسرة ولُهاث غليل ، وفي سمعه نعيب الطير من بوم وغربان ، منذرة بفراق محتوم ، وتحنان نياقٍ هاجها دنوُّ الرحيل ، فهيهات له أن يقيم أو يظفر بغفوة قيلولة ومنام :

كفى بشحوبِ أوجُهِنا دليلا   على إزماعِنا عنك الرحيلا
أبَتْ صِنفا النواعب من نياقٍ   وطيرٍ ، أن نقيم وأن نقيلا
تأمّلْنا الزمانَ فما وجدنا   إلى طِيب الحياة به سبيلا
يفجِّعنا ابنُ دأية بابن إنسٍ   نفارقه ، فلا تَبِعَ الحمولا
كَلِفْنا بالعراقِ ونحن شرخ   فلم نلمم به إلا كهولا
ورِدْنا ماء دجلةَ خيرَ ماءٍ   وزُرنا أشرفَ الشجر النخيلا
وأبنا بالغليل وما اشتفينا   وغايةُ كلِّ شيءٍ أن يزولا

****

وتسرب من كفيه سراب ما كان له أملا في شرخ الشباب ، واستسلم للهزيمة نفسيا قبل انسحابه من بغداد ، حين أيقن أن المكابرة ضالة ، وأن النضال عقيم والأمل سراب ...

وإنه لفي مدينة السلام غريب غريب ، ظامىء والورد قريب ، يتمنى لو أن الخمر حلت لنشوةٍ تذهله عما يشوده من قهر وغربة ، ومن وحدة وضيق :

وأقام بعد ذلك ما أقام في بغداد ، وهو يعيد النظر فيما تزود به من عُدَّة وسلاح :

الأدب ؟

لا جدوى منه إلا إذا عزف للسلطان وتمرغ على أعتاب ذوي الجاه والنفوذ والمقام . لقد أكرمه نقيب الأشراف حين وقف في مأتم والده راثيا يعدد مناقبه ويذكر كريم سجاياه . ثم أهانه وأذلّه حين جهر برأيٍ له في شاعرٍ ، يخالف رأيَ السيد النقيب الشريف .

العلم ؟

إن مجتمع العاصمة في عصره – ولعله كذلك في أغلب العصور – يُقدر من يعرف كيف يأتي بالثعلب من ذيله ، أكثر من تقديره مَن يعرف للثعلب أو للكلب سبعين اسما أو ثمانين ...

العفة والإباء والصدق ؟

يا لها من بضاعة نافقة في سوق يروج فيها النفاق والزيف ، فليست بحيث تسمح لكلمة حرة أن تقال في مجلس الشريف المرتضى مخالفة لرأيه . بل تلفظها وترفضها لتخلي المكان لقول شهود المجلس وهم خبراء بالسوق والبضاعة :

« السيد النقيب أعْرَفُ » !

وأجمع أمره على العزلة وهو ما يزال في خضم المعترك ، وقد عرف أن أسلحته مفلولة ، تغلبها أسلحة أخرى لا يملكها من مكر الحيلة ونعومة المداهنة ولؤم النفاق .

وأيقن ألا مكان له في دنيا الناس ، وقد أعوزه عمى البصيرة وبلادة الحِس والضمير ، ومرونةٌ في الخلق والطبع يتلون بها في موكب المنافقين والمهرجين والدجالين ...

وبدأت رحلة الإياب ، وهو في بغداد مقيم .

بل إنه ودَّعها وداعَ محزون لفراقها ، في قصيدة أنشدها وهو بمدينة السلام ، تهنئة بمولودٍ لصديقه « أبي القاسم ابن القاضي التنوخي » فقال :

ولولا ما تكلِّفنا الليالي لطال القولُ واتصل الروِي
إذا نأت العراق بنا المطايا فلا كنا ولا كان المطِيُّ
على الدنيا السلامُ فما حياةٌ إذا فارقتُكم إلا نعيٌّ !

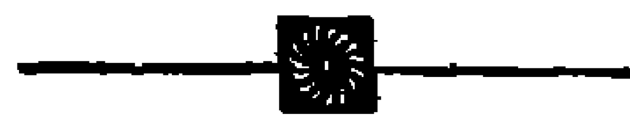
يهنئ بمولود ، فيذكر النعيّ ؟

يا للهَ ما أقسى الذي كابد من وطأة إحساسه الباهظ بما « تكلفه الليالي » ورسوخ شعوره بموت الحيات في مولد الحياة !

فيا دارَها بالحَزْنِ إن مزارَها
قريب ولكنْ دون ذلك أهوالُ
إذا نحن أهلَلْنا بنؤيك ساءنا
فهلّا بوجه المالكية إهلالُ
تُسيء بنا يقظى فأمّا إذا سرَتْ
رقادا ، فإحسان إلينا وإجمالُ
وغنّت لنا في دار سابورَ قينةٌ
من الوُرْق مِطراب الأصائل ميهال
رأت زهرا غضا فهاجت بمزهرٍ
مثانيه أحشاءُ لطُفن وأوصالُ

فقلتُ : تغنَّيْ كيف شئتِ، فإنما
غناؤك عندي يا حمامةُ إعـوالُ
تمنيت أن الخمر حلَّـتْ لنشوةٍ
تجهِّلني كيف اطمأنت بيَ الحالُ
فأذهل أني بالعراق عـلى شَفَـى
زريِّ الأماني لا أنيس ولا مـال
مُقل من الأهلين : يسرٍ وأسرة
كفى حزَناً بَيْنٌ مُشِتٌّ وإقـلال
متى سألت بغدادُ عني وأهلُهـا
فإنيَ عن أهـل العواصـم سآلُ
إذا جَنَّ ليلي جُنَّ لُبي ، وزائـدٌ
خفوقُ فؤادي كلما خفـق الآلُ
وماءُ بلادي كـان أنجع مشربـا
ولو ان ماء الكرخ صهبـاءُ جِريال
فيا وطني إن فاتني بك سابـق
من الدهر فلينعمْ لساكنِك البـالُ
فإن أستطع في الحشر آتِكَ زائرا
وهيهاتَ ! لي يومَ القيامـة أشغال

. . . .



حَديث الإياب

« وهو أمرٌ سُرِيَ عليه بِلَيلٍ ... ليس
بنتيج الساعةِ ولا ربيب الشهر والسنة ،
ولكنه غَذِيُّ الحِقَبِ المتقادمة وسليلُ الفِكر
الطويل ... »

أبو العلاء
(من رسالته إلى أهل بلدِه)

على هذا النحو ، كان انسحابه النفسي من بغداد ، قبل أن يحمل شبابه المدبِر المقهور ورجاءه الخائب الضائع وأمانيه الزرِيَّة ، ليعود من حيث جاء إلى موضعه في معرة النعمان .

ولم تكن هناك حاجة قط ، إلى مطاردة من فقهاء بغداد تخرجه منها هاربا منهزما . أعني المطاردة التي أشار إليها « ابنُ كثير » في (البداية والنهاية) و « البدرُ العَيْني » في (عقد الجُمان) .

وموجز حكايتها أن فقهاء بغداد تعرضوا لقوله في اليَدِ : ديتُها خمسمائةُ دينار ذهباً ، وتُقطع في السرقة ولو كان المسروق رُبع دينار :

يَدٌ بِخَمسٍ مئينٍ عسجدٍ وُدِيَــت
ما بالها قُطعت في رُبعِ دينــارِ
تناقض ما لنا إلا السكوتُ لــه
وأن نعوذ بمولانــا من النـــار

« ولما عزموا على أخذه بها ، خرج من بغداد طريدا منهزما ورجع إلى بلده ، ولزم منزله فكان لا يخرج منه » .

وابن كثير توفي سنة ٧٧٤ هـ ، والعيني توفي سنة ٨٥٥ هـ . والخبر في روايتهما مرسَل بغير إسناد ، فلسنا نعرف طريق وصوله من زمن الرحلة ـ ٣٩٨ : ٤٠٠ هـ ـ إلى القرنين الثامن والتاسع ، ولم يذكره معاصرو أبي العلاء من المؤرخين والإخباريين ، كالثعالبي والخطيب البغدادي والباخرزي وابن الأنباري . وجاء « الصفدي » بالبيتين ، وهما من اللزوميات ، دون أن يحدد لخصومة الفقهاء فيهما ، زمانا أو مكانا . على حين ساق « ابن حجر » المعاصِر للبدر العيني ، الخبرَ على صورة أُخرى لا صلة لها بالرحلة البغدادية [1] .

ونسأل أبا العلاء عن هذه المطاردة من الفقهاء فلا نجد لديه إشارة إليها أو كلمة عنها . وإنما الحديث عنده عن مطاردة أُخرى من نفسه ، ألحت عليه في الإياب ، وحاول عبثا أن يطاولها أو يتجاهلها ، ثم لم يجد مفرا من الاستسلام حين لم تعد تجدي مطاولة أو عناد .

---

(١) في (لسان الميزان) ، نقلا عن الحافظ السلفي .

وأملى في رسالته إلى أهل المعرة ، عند مُنصَرَفه من العراق :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتابٌ إلى السكَنِ المقيم بالمعرة شملهم الله بالسعادة ، من أحمد بن عبد الله بن سليمان . خَصَّ به من عرفه ودانا. سلَّم الله الجماعة ولا أسلمها ، ولمَّ شعثها ولا آلمها .

« أما الآن فهذه مناجاتي إياهم منصَرفي عن العراق ، مجتمع أهل الجدال وموطن بقية السلف . بعد أن قضيت الحداثة فانقضت ، وودَّعت الشبيبة فمضت ، وحلبت الدهرَ أَشطُرَه ، وجرَّبت خيره وشره ، فوجدت أوفَق ما أصنعه في أيام الحياة ، عُزلةً تجعلني من الناس كبارح الأَروى من سانح النعام ،وما أَلَوْتُ نصيحة لنفسي ولا قصَّرت في اجتذاب المنفعة إلى حيِّزي ، فأَجمعت على ذلك واستخرتُ الله فيه بعد جلائه على نفرٍ يوثق بخصائلهم ، فكلهم رآه حزما وعدَّه إذا تم رشدا .

« وهو أمرٌ سُرِي عليه بليلٍ .... ليس بنتيج الساعة ولا ربيب الشهر والسنة ، ولكنه غذيُّ الحقب المتقادمة وسليل الفِكر الطويل ....

وبادرت إعلامهم – السكنَ المقيم بالمعرة – ذلك ، مخافة أن يتفضل منهم متفضل بالنهوض إلى المنزل الجاريةِ عادتي بسُكناه ليلقاني فيه ، فيتعذر ذلك عليه ، فأكون قد جمعت بين سَمِجَيْن : سوء الأَدب وسوء القطيعة . ورُبَّ مَلومٍ لا ذنب له . والمثلُ السائرُ : « خلِّ امرأً وما اختارَ » .

«وما سمحت القَرونُ بالإياب حتى وعدتُها أشياء ثلاثة : نبذةً كنبذة فتيق النجوم ، وانقضابا عن العالَم . » وثباتا في البلد إن حالَ أَهلُه من خوفِ الروم .

« وأحلِف ما سافرت أستكثر من النشب ولا أتكثر بلقاء الرجال .

ولكنْ آثرتُ الإقامة بدار العلم فشاهدت أنفسَ مكانٍ لم يسعف الزمن بإقامي فيه ، والجاهلُ مغالِبُ القدَرِ ، فلهيت عما استأْثر به الزمان .

ويُحسن الله جزاءَ البغداديين ، فلقد وصفوني بما لا أستحق ، وشهدوا لي بالفضيلة على غيرِ علم ، وعَرضوا عليَّ أموالهم عرضَ الجِدِّ؛ فصادفوني غيرَ جَذِلٍ بالصفات ، ولا هَشٍّ إلى معروف الأَقوام . ورحلتُ وهم لرحيلي كارهون . وحسبيَ اللهُ وعليه يتوكل المتوكلون » .

والرسالة صريحة في الكشف عن مطاردة من نفسه – لا من فقهاء بغداد – بدأت من زمن بعيد كأَنه الحقب المتقادمة . وقد طال عناؤه بها وتفكيره فيها ، حتى أجمع أَمره على عزلة استخار فيها اللهَ بعد أَن استشار الصحاب ، وحدَّدَ قراره لنفسه : نبذة العزلة والانفراد ، وانقضابا من العالم لا يتزوج ولا يلد ، وأَن يلزم داره في بلده ، وإن تحول أَهلها عنها مخافة الروم الذين كانوا يجوسون خلال إقليم الشام غُزاةً طامعين ...

ورحلَ ، والبغداديون لرحيله كارهون لا مطاردون . شهدوا له بالفضيلة وأَحسنوا الرأْي فيه فصادفوه غير جذلٍ بجميل الصفات ، وعرضوا عليه أَموالهم فصدَّ عنها في إباء لا يهش لمعروف الناس . وستقرأُ في رسالته إلى خاله ، بعد قليل ، أَن البغداديين أكرموه وأَفردوه بحسن المعاملة وتشبثوا به وأَظهروا الحزن لفراقه ، وودَّعوه باكين . وقد شقَّ عليه الموقف الصعب ، وحزن على الفراق المحتوم ، فما مَلَكَ بعد أَن جرع كأْس البَيْن إلا أَن أَنشد مودعا بغداد وأَهلها ، حين بعُدت الديار وشط المزار :

نبيٌّ من الغربان ليس على شرع
يخبرنا أن الشعوب إلى الصدْعِ

أصدِّقه في مريةٍ وقد امترت
صحابة موسى بعد آياته التسع

كأن بِفِيه كاهنا أو منجما
يحدثنا عما لقينا من الفجع

أودعكم يا أهل بغداد ، والحشا
على زفراتٍ ما يَنين من اللذع

وداعَ ضناً لم يستقل وإنما
تحامَلَ من بعد العِثار على ظَلع

فبئس البديل الشام منكم وأهله
على أنهم قومي وبينهمُ رَبعي

ألا زودوني شربة ولو آنني
قدرت ، إذن أفنيت دجلة بالجرع

أَبيتُ فلم أطعم نقيعَ فراقكم
مطاوعةً ، حتى غُلِبتُ على النشع

لبست حداداً بعدكم كلَّ ليلة
من الدهْم ، لا الغُرِّ الحسانِ ولا الدرع

أظن الليالي وهي خودٌ غوادر
بِردِّي إلى بغداد ضيقةَ الذَّرْع

وكان اختياري أن أموتَ لديكمُ
حميدا ، فما ألفيتُ ذلك في الوُسع
فليت حِمامي حُمَّ لي في بلادكم
وجالت رِمامي في رياحِكم المسع
فدونكم خفضَ الحيـــاة فإننـــا
نَصَبْنا المطايا بالفلاةِ على القطع

. . . .

وحدَّد « أبو العلاء » تاريخ انسحابه من بغداد بالسنة والشهر واليوم : « عام أربعمائة ، لِستٍّ ليالٍ بقين من رمضان »[1] .

فأعفى مؤرخيه وأعفانا من حيرة اختلاف أو من إهمال وإغفال .

كما حدد طريق الإياب بتفصيل يغني عن مزيد مراجعة وبحث : سلَك طريق الموصل وميافارقين ، ثم نزل بالحسَنية ووصل بعدها بمدينة آمد . ومنها اتجه إلى المعرة مارًّا بحلب الشهباء دون أن يدخلها ، وفيها أخواله بنو سبيكة ، إصرارا منه على ما عقد عليه العزم من عزلة وانفراد .

وكانت الرحلة – فيما وصَفَ – شاقة مضنية ، جمعت إلى وعثاء السفر وأخطار الطريق وغوائل السبيل ، أثقالَ انكساره وشواغل همومه النفسية ؛ وأعوزها الرجاء الذي كان يحدوه في طريق الذهاب ، فيعينه على مشاق الرحلة .

وبعض مؤرخيه يذكر من حديث إيابه ، ما سبقت الإشارة إليه

---

(١) في « رسالته إلى خاله أبي القاسم » عند وصوله إلى المعرة .

من أنه مرَّ بموضع في الطريق فطأطأ رأسه . ولما سئل في ذلك قال : أما هاهنا شجرة ؟

وكان قد مضى على مروره الأول بهذا الموضع عام وبعض عام ، وما يزال يذكر قولَ قائده في طريق الذهاب : « طأطئ رأسك » .

وهذا هو يطأطئها من تلقاء نفسه ، فيسمع أن الشجرة اجتثت من موضعها الذي كانت فيه ، فما عاد بحاجة إلى أن يحترس .

لكن آثار هزيمته لم تجتث من نفسه ، فليطأطئ رأسه مُقِرّاً بها مستسلما لما تصنع به الأيام والليالي ،

بغير عنادٍ ولا مكابرة .

وإذا ارتاب مرتابٌ في خبر الشجرة ، وحمله على إضافات الإخباريين فيما اشتهر من قوة ذاكرته ، وقد جاء الخبر في سياقها ،

فإن لدينا على كل حال ما يغنينا عن نقد الخبر ، بحديث أبي العلاء عن رحلته ، كاشفا عما كان يضنيه ويئوده من آثار الهزيمة والانكسار ، بعد طول مجاهدة أوصلته إلى بابٍ مسدود ، فليس يملك إلا أن ينكفئ راجعا من حيث جاء . وليأخذ نفسه باليأس والقنوط ، فقد آن لها أن تعود إلى مباركها الهابطة . ويا ويلَه منها إن لم ترحمه من عقم الرجاء وضلال المقاومة والعناد ! لقد أعيته وهو في أشر الشباب وبَطر الفتوة ، فماذا عساه أن يملك لها في وهَن الشيخوخة وعجزها ؟ وتأبَّت عليه بعصيانها منذ شبَّ فتيّاً إلى أن دبَّ كهلا وفات الأوان ...

أو بنصِّ كلماته يحدث نفسه ، في رسالته إلى خاله أبي القاسم علي :

« وجدتُ بغداد كجناح الأَخيَل ، حسن وليس فيه ما حُمِل :

إن العراق لأَهلي لم يكن سكَنـا

والبابُ دون أَبي غسانَ مسدودُ

« لنفسي أَقول : أعييتِني بأَشرٍ فكيف بدردر ؟ وعصيتِني من شَبَ إلى دَبَّ . ليس بعُشِّك فادرُجي ، هذا أَحقُّ منزلٍ بتركٍ . الصيفَ ضيعتِ اللبنَ . الربيعَ أغفلتِ الكمأةَ ، وعلى المفازة أَرَقْتِ السقاء ؛ عُودي إلى مبارِكِكِ ...

وكنت ظننت أن الأَيام تسمح لي بالإقامة هناك ، فإذا الضارية أَحجأُ بعراقِها ، والأَمَةُ أَبخَلُ بصربتها ، والعبدُ أَشَحُّ بكُراعِه ، والغراب أَضَنُّ بتمرته .

ووجدتُ العلمَ ببغداد أَكثرَ من الحَصَا عند جمرة العقبة ... ولكنْ ، على كل خير مانع ...

إذا لم تستطع شيئا فــدَعْه وجــاوزه إلى مــا تستطيــع

يكفيك ما بلَّغك المحَلَّ . إن عجز ظِلٌّ عن شخصِك فلا يعجزَنَّ عن عضوٍ منك ....

« وكلما عرَضوا عليَّ حاجةً أعرضتُ عن تكليفِ المشقة ، لأَنّي أَعتقد حكمة زُهير :

ومَن لا يزل يستحمل الناسَ نفسَه

ولا يُعفِها يوما من الذلِّ يُسأَمِ

« ... ولو علمتُ أَني أَرجعُ على قروائي ، لم أَتوجه لهذه الجهة . ولكن البلاءَ موكَّلٌ بالمنطق ... لا يدري الرجلُ بم يولع هَرِمُه ، ولا إلى

أي أَجَمةٍ يسوقُه جَدُّه : « ولو كنتُ أعلم الغيبَ لاستكثرتُ من الخيرِ وما مسّني السوءُ » .

« ورعايةُ الله شاملة لمن عرفته ببغداد . فلقد أفردوني بحسن المعاملة وأثنوا عليَّ في الغَيبة ، وأكرموني دون النظراء والطبقة . ولما آنسوا تشميري للرحيل وأحسوا بتأهبي للظعن ، أظهروا كسوفَ بالٍ وقالوا من جميلٍ كلَّ مقال ، وتلفعوا من الأسف بِبُردٍ قشيب وذرفتْ عيونُ أشياخٍ شيب . فلا إله إلا الله ، أي نابتةٍ ليست لها راعية !

« ... وأمروني لرغبتهم في صقبي منهم ، بأُمورٍ تنهى عنها القناعةُ وتكف دونها العادةُ :

على حين أن ذكّيْتُ وابيضَّ مفرقي

أُسامُ الذي أعييت إذ أنا أمرَدُ

****

أماويَّ ما يُغني الثراءُ عن الفتى

إذا حشرجتْ يوما وضاق بها الصدرُ

« واللهُ يحسن جزاءهم ؛ إن كان ما فعلوه حفاظا فهو مِنّةٌ عظيمة ، وإن كان نفاقا فهو عشرة جميلة . وانصرفت وماءُ وجهي في سِقاءٍ غيرِ سَرِب ، ما أرَقْتُ منه قطرةً في طلبِ أدبٍ ولا مال . ومنذ فارقت العشرين من العمر ، ما حدثتُ نفسي باجتداءِ عِلمٍ من عراقي ولا شامي : « من يَهدِ اللهُ فهو المهتدِ ومَن يُضلل فلن تجد له وليّاً مرشدا » .

« والذي أقدمني تلك البلادَ مكانُ دارِ الكتب بها :

ولستُ وإن أحببتُ مَن يسكن الغَضَى
بأوّلِ راجٍ حاجةً لا ينالُها
شرَفاً لذلك منزلا ، وللساكنين به نَفَراً ، ولماء دجلة واديا ومشربا :
وإني وتهيامي بعَزّةَ بعدما
تخلّيتُ من حبلِ الهوى وتَخَلتِ
لكالمبتغي ظِلَّ الغمامة كلما
تبوأ منها بالمقيلِ اضمحلّتِ
« وكنت إذا خبّرتُ رجلا بمسيري بانت فيه كآبة ، وبدَت عليه كبوة . فكتمتُ ذلك عنهم كتمانَ المرأة ضُرّتَها بالغيبِ ما في جسدها من سوء وعيب . فلما علق حرباء البيْنِ تنضبتَه ، ووقف صرد الفراق موقِفه ، كنت وإياهم كأبي قابوس [النعمان بن المنذر] وبني رواحة :
قال لهم خيرا وأثنى عليهمُ
وودّعهم وداعَ أنْ لا تلاقِيا
« وسرتُ عن بغدادَ لستٍّ بقين من شهر رمضان ، سيرا تخطُّ إبِلُه وتشطُّ نسوعُه وتوقّعُ الغرق سُفُنُه ... الغمرات ثم ينجلين !
ومررتُ بطرف الشهباء لأني سلكتُ طريقَ الموصل وميافارقين ...
وردتُ مياهاً مِلحةً فكرهتُها فسُقيا لأَهلي الأوّلين وماثيا
... ولما نزلنا بالحسنية ، تساوى حاملُ المالِ وحاملُ الرمال ، وقلَّ بلاءُ الغادي أين قالَ [قيلولةً] والرائح اين عرّس وبات . فلم نزل كذلك حتى بلغنا آمدَ ، ثم عادت السبيلُ إلى غوائلها ...
« ولما فاتني المقامُ بحيث اخترتُ ، أَجمعتُ على انفرادٍ يجعلني

كالظبي في الكناس ويقطع ما بيني وبين الناس ، إلا مَن وصلني الله به وصلَ الذراع باليد والليلة بالغد ... » .

***

وأبو العلاء قد سجل هنا ، وفي رسالته الأُخرى إلى أهل المعرة ، شهادةَ العاصمة له بالفضل والعلم ، وإفراد أهلها إياه بحسن المعاملة وجميل الثناء ، وإكرامه دون النظراء ورجال طبقته من أعيان العلماء الأُدباء في جيله .

مما يؤكد لدينا أن رحلته لم تكن لهذا قصداً ، وإنما كانت الشهادة المرجوة بعضَ ما تعلَّق به في معركته مع نفسه ، عندما أراد أن يستبين حقيقة موقفه في مفترق الطرق ، وأن يحسمَ الشكَّ باليقين فيما خامره بعد موت أبيه من تردد وحيرة ، التماسا لإحدى الراحتين .

ولو كانت شهادة بغداد كل غايته ومبتغاه ، لأَرضاه ظفره بها . أو لو كانت خزائن الكتبِ كلَّ ما تعلق به في طريق الذهاب ، لكفاه أن أباحت له كنوزها وذخائرها ، ولم يخرج من دار العلم مهزوما « زريَّ الأَماني » يطارِدُ بعضُه بعضا ...

****

لم ينصرف أَبو العلاء عن بغداد زهداً فيها وبُغضا لها كما زعم بعض دارسيه ، ولا خرج منها طيبَ الخاطر لفراقها كما وَهموا وأَوهموا ، وإنما أَحبها بصريح اعترافه ، وتمنى لو أَسعفه الزمان على المقام بها ، لكن أعوزته الحيلة والوسيلة ، وأدرك بعد فوات الأَوان أنه لم يتزود في الشطر الأَول من حياته لمجتمع العاصمة ، بالزاد الصالح والعدة

الملائمة . فلقد شب عن الطوق وما عاد في استطاعته أن يغير طبعه ويطوِّع نفسه لغير ما خُلقت له ، ويروضها على غير ما جُبلت عليه ، وهو كما قال في رسالته إلى خاله : « وحشي الغريزة إنسي الولادة » وقد حاول البغداديون أن يكلفوه ما ليس من طبعه ، وأرادوا أن يحملوه على أُمور « تنهى عنها القناعة وتكف دونها العادة » وسامته بغداد ، وقد جاوز سن الفتوة والشباب ، ما أعياه أن يُسامَ وهو أمرد ،

وسيظل يذكر بغداد ويلتفت إليها من وراء أسوار عزلته ، ويحن إلى مَن ترك هناك من صفوة الأَصحاب ، فيقول من قصيدة أرسلها إلى صديقه « أَبي القاسم بن المحسن التنوخي » :

يا عارضا راح تحدوه بوارقُــه
للكرخ سُلِّمتَ من غيثٍ ونُجِّيتا
لنا ببغدادَ مَن نهوى تحيتَـــه
فإن تحملتَها عنــا فحُيِّيتـــــا
يا ابن المحسِّن ما أُنسيتُ مكرمةً
فاذكر مودتنا إن كنـت أُنسيتا
سُقياً لدجلة ، والدنيــا مفرِّقــة
حتى يعود اجتماع النجم تشتيتــا
وبعدَها لا أُريد الشربَ من نهَــرٍ
كأنما أنا من أَصحاب طالوتا [1]

(١) يشير إلى الآية الكريمة : « فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني ... » البقرة : ٢٤٩ .

رحلتُ لم آتِ « قرواشا » أزاوله

ولا « المهذبَ » أبغي النَّيْلَ تقويتا [1]

والموتُ أحسنُ بالنفسِ التي أَلِفت

عزَّ القَناعة من أن تسأل القُوتا

بَتَّ الزمانُ حِبالي من حِبالكـم

أعزز عليَّ بِكونِ الوصلِ مبتوتا

أعدُّ من صلواتي حفظ عهدكـم

إن الصلاةَ كتابٌ كان موقوتا [2]

****

ومن قصيدته إلى خازن دار العلم ببغداد :

رجوتُ لهم أن يقرُبوا فتباعدوا

وأن لا يشطوا في المزار ، فقد شطُّوا

خليليَّ لا يَخفى انحساري عن الصِّبا

فحُلاَّ إساري قد أضرَّ بيَ الربطُ

ولي حاجة عند العراق وأهلِـه

فإن تقضياها فالجزاء هو الشرطُ

سَلا علماءَ الجانبيـن وفِتيـةً

أبنوهما حتى مفارقُهم شُمـطُ

---

(١) قرواش : والي أمر بغداد . والمهذب : وزيره .

(٢) تضمين للآية الكريمة : « فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ، فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » النساء : ١٠٣ .

أعندهمُ عِلمُ السلُوِّ لسائلٍ
به الركب لم يعرف أماكنه قطُّ
وهل يُنشِطنِّي من عقالي إليكمُ
رضى زمني ، أم كلُّ شيمتِه سُخطُ
وإن خلَطتني بالترابِ منيتي
فبعضُ ترابي من مودَّتِكم خلطُ

وأملى ، بعد سنين طوال ، ردّاً على رسالة صديق في بغداد ، يُذكره بأيام الودِّ فيها ، حين كان « بالقطيعة » منزله ، على شط دجلة :

أذاكِرٌ أنت عصراً مرَّ عندك لي
فليس مِثلي بناسٍ ذلك العصرا
أيامَ واصلتني ودّاً وتكرمة
وبالقطيعة داري تحضر النهرا
والآن أشرح أمري غير معتمد
فيه الإطالة ، كيما تعلم الخبرا
مُدَّ الزمانُ وأشوتني حوادثه
حتى مللتُ وذمَّت نفسيَ العُمرا
وخُنتَ كُلِّي سِوى شيبٍ تجاوزني
ولم يُبيض ، على طول المدى ، الشَّعرا
جنيتُ ذنبا وألهى خاطري وسَنٌ
عشرين حولا ، فلما نُبِّه اعتذرا

سوف يشيخ إذن – وإن تأخر شيبُ شعرِه – وفي أعماقه شوق إلى بغداد يطويه . ويظن أنه نسِيَ على تقادمِ الحقب عهدَ مودةٍ مع أصحابٍ له هناك فارقهم ، وجفاهم لكي يتحقق له ما ابتغى من راحة السلو والنسيان ، ثم لا يكاد يأتيه كتابُ أحدهم حتى يثير مطويَّ مواجده ويهيج كامن ذكرياته ، ويشده بعد عشرين عاما ، إلى ماضٍ ببغداد ولّى وراح !

****

فماذا صنعت بغداد بمن قصد إليها في عز رجولته ، مشوقا متعلقا بأذيال الرجاء مستبسلا في المقاومة ، فردَّته ، على حبه لها ، إلى عزلة صارمة ، مهيض الجناح مكسور الخاطر ضائع الحيلة ؟

لم تفعل شيئا إلا أنها ردَّته إلى نفسه ، ونبهت وجدانه من غفلة الوسَن ، وكشفت له عن عقم محاولته الهروبَ من ذاته !

ولمَّ شتات ذاته وأشلاء أمانيه الزرية ، وركب راحلته مُلقِياً زمامها إلى من يقوده عائدا به من حيث جاء .

وأمضى أيامه ولياليه في طريق الإياب ، يجتر ذكريات مقامه ببغداد ، ويطيل التفكير فيما هو بسبيل أن يستقبل من عزلة وقيود .

موزع الخواطر بين حزن على فراق « أنفس مكان لم يسعف الزمان بإقامته فيه » ،

وشوقٍ إلى الراحة من أوهام التحدي وشطط المكابرة وأكاذيب المنى ،

ولهفة على لقاء أمه الغالية التي بلغه أنها مريضة في المعرة ...

ويرتجف قلبه بين أضلعه إشفاقا من المخبوء له في الغيب المضمر . وربما ألم به الكرى فساورته هواجس رؤى يقيسها على ما كان من « سوء بخته » فلا يرى في الجميل منها إلا أضغاث أحلام . أما المفزع المخيف فنذير شرٍّ واقع لا محالة ، أو كما قال :

إلى الله أشكو أنني كــلَّ ليلـــة
إذا قمت لم أعدم خواطرَ أوهــام
فإن كان شرا فهو لا بد واقع

****

وإن كان خيرا فهو أضغاث أحلام

حتى هواجس الكرى ، لم يفته رصدها وتسجيلها ...

ولشدَّ ما تشاءم – وقد بلغه مرض أمه بالمعرة – من رؤياه أن أحد نواجذه سقط ! وإن لم يصح عنده أن تضل الأحلام فيكون سقوط ناجذ ، ما أهونه ، نذيرا بمصاب في أمه ، ما أهوله !

ولم يستطع مع ذلك أن يمحو الحلم من ذاكرته ، وتركزت خواطره حول أمه ، وهو يقطع المرحلة الباقية من طريق الإياب ....

****



مَوتُ الأم

« ... يا سلوةَ الأيام موعدُكِ
الحشرُ . موعدٌ والله بعيد ... وحزني
لفقدِها كنعيمِ أهلِ الجنة كلما نَفَدَ
جُدِّد . وشرحُه إملالُ سامع وإفناء زمان»

أبو العلاء

(من رسالته إلى خاله)

مضتْ وقد اكتهلتُ فخِلتُ أني
رضيع ما بلغتُ مدى الفِطـامِ
سألتُ متى اللقاء فقيـل حتى
يقوم الهامدون من الرجـامِ
فليت أَذِينَ يوم الحشر نـادى
فأجهشت الرمـامُ إلى الرِّمامِ

(سقط الزند)

آب الضرير إلى منزله مثخنا بالجراح ، ليجد في انتظاره طعنة مصمية أعدتها له الدنيا تحيةَ الوصول !

غال الموتُ أمَّه قبل وصوله ، فرحلت عن الدار بلا وداع ...

وإذا لم يكن قد بقي في كيانه موضعٌ لسهم ، فإن الطعنة الجديدة هزت الكيان الجريح بفرط ضراوتها ، وردَّته أشبه بطفلٍ رضيع يتيم ، فقد مناط وجوده ووسيلة بقائه ....

وليت الصدمة مع ذلك أذهلته ، لينجو بالذهول من وطأة ألمه الساحق وأساه الفادح ! لقد تلقى المسكين الصدمة بوعيٍ غير مخدَّر ، وأبَى أن يتقبل في فقيدته العزاء ، وأجهشت أشلاؤه في إثر الراحلة :

سمعتُ نعيَّها ! صمى صمامِ
وإن قال العواذلُ لا همامِ
وأمَّتْني إلى الأجداث أمٌّ
يعز عليَّ أن سارت أمامي
وأكبِر أن يرثيها لساني
بلفظٍ سالكٍ مجرى الطعام
كأن نواجذي رُدِيَتْ بصخرٍ
ولم يمززْ بهن سوى كلام
مضتْ وقد اكتهلتُ فخلتُ أني
رضيع ما بلغت مدى الفطام
فيا ركب المَنونِ أما رسولٌ
يبلغ روحَها أرجَ السلام

سألتُ متى اللقاء ؟ فقيل حتى
يقوم الهامدون من الرجام
ولو حَدُّوا الفراقَ بعُمرِ نسرٍ
طفقت أعدُّ أعمارَ السِّمام
فليت أذين يوم الحشر نادى
فأجهشت الرمامُ إلى الرِّمام

****

ولا نعلم على وجه اليقين ما إذا كان أبو العلاء قد زار قبر أمه قبل أن يدخل محبسه ، أم أنه بدأ ينفذ قراره بلزوم دارِه من لحظة وصوله إلى المعرة ؟

وقد نستبعد أن يصم النعي مسمعه إثر الوصول ، فلا يسعى إلى قبر فقيدته يُحيي رمامَها ويودعها إلى لقاء لا يدري متى يحين أوانه ، إلا أن يكون قعوده عن زيارة القبر ، تعبيرا قاسيا عن يأسٍ بائس ، وشعورٍ بعُقم المسعى إلى جَدث أصمَّ يضم بقايا الجسد الهامد لمن كانت ملء حياته ، فما عادت تحس طيف زائر أو تسمع دعاء محزون ونشيجَ مودِّع مفجوع ، وإنه ليقول :

وقفتَ على أجداثهم وسألتهم
فما رجعوا قولا ، ولا سألوكا

****

ولم يسمعوا قولا ، أمِن صممٍ بهم
ولم يفهموا رَجْعا كأنهم خُرسُ

****

إذا الحـيُّ أُلبِسَ أكفانَـــــه
فقــد فــي اللبسُ والـــلابسُ
ويَبــلى المحيا ، فــلا ضاحـكٌ
إذا سَرَّ دهر ، ولا عــــابِسُ
ويُحبَس في جــدثٍ ضيـــــق
وليس بمطلقــه الحـــابسُ
يجــاور قومــا أجــادوا العظــا
تِ ومــا فيهم أحــدٌ نــابسُ

****

« سلَّم الله عليكم ،أهلَ ديارٍ لا يشعرون بتبلُّجِ الصبح ولا ترحل النهار . أشتاق إليكم وإلى من أشتاق ؟ لا الأرواح متكلمة ولا الأجساد ملتئمة ، ولا المنازلُ برِحاب ....

« كيف أصبحتم، أهلَ المنازل الدارسة ؟ إن ما أصابكم للخَطبُ الجليل ... يهتف بكم الصائحُ فلا يجاب ... « ما فعل الترابُ بالجثث ؟ فعَل بها فعلَ المجتث ... » .

(الفصول والغايات)

****

ما كاد يدخل منزله الذي قرر أن يكون له سجناً ما عاش ، حتى بدأ فأملى في رسالة سيَّرها إلى خاله « أبي القاسم » بحلب ، كلمات ممزقة مشردة الالتفات ، تتوهج بلهب الجمر الذي كان يَكويه ، ندما على ما أضنى أمَّه من أسىً لسفرِه إلى بغداد ، وحُزناً لفقدها يوقن أنه سيظل

يتجدد كلما نفد ، حتى يوم الحشر الذي ضربه للسلوّ موعدا ، ويا له من موعدٍ بعيد ...

« كتابي ، أطال الله بقاء سيدي ... من معرة النعمان ، ولكل نبأ مستقر . ورَدتُها بعد سآمة ورودَ « كعب بن مامة » فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وله الحمدُ ممزوجا به الدمعُ ، مُسْتَكاً له من الوجد السمع . وصلى الله على سيدنا محمد وعترته ، صلاة يثقل بها لساني حزنا ، وترجح في المحشرِ قدرا ووزنا . ثم أذكر قصصي بعد ذلك :

ألا ليتـني والمرءُ مَيْــــتٌ   وما تُغني عن الحِدثانِ ليتُ

« رحمكِ الله من ساكنةِ رمسٍ ، أصبحت حياتُك كأمس :

فإن ينقطع منكِ الرجاءُ فإنــه
سيبقى عليكِ الحزنُ ما بقي الدهرُ

« لا آمُل بَعدها خيرا ، ولا أزيد في المِحَنِ إلا إيضاعاً وسيرا :

صلى الإله عليكِ من مفقــودةٍ
إذ لا يلائمك المكـانُ البلقَـع
أنىّ حللتِ ، وكنتِ جِدَّ فروقــة
بلدا يمر به الشجاعُ فيفــزع

****

لا بارك اللهُ في الدنيا إذا انقطعت
أسبابُ دنياكِ عن أسباب دنيانا

« يا سلوةَ الأيامُ موعدُك الحشرُ . موعدٌ واللهِ بعيد . لا سلوة حتى يئوب عَنَزِيٌّ إلى القرظة ، ويرجع النعمان إلى الحيرة ، ويُبعث نبيٌّ من مكة .

لو لم تكن الآجال زُبُرا لَوَجب أن أُقتَل بها صبرا ! على أني والله قد أعلمتُها أني مرتحل وأن عزمي على ذلك جادٌّ مزمع ، فأَذِنَتْ فيه . وأحسبها ظنَّته مذقة الشارِب ووميضَ الخالب ، ولِكلٍّ أجلٍ كتاب . وحزني لفقدها كنعيم أهل الجنة كلما نفد جُدِّد ! وشرحه إملالُ سامع وإفناءُ زمانٍ .... » .

****

كنعيم أهل الجنة ؟

ما أعجبها من كلمة في وصف الحزن المقيم المتجدد أبدا !

هل خان أبا العلاء ، في دُوار الصدمة ، أن يصف تجدد حزنه بعذاب أهل السعير ، وفاته أن يذكر في وصفه تجدده كلماتِ البيان القرآني المعجز : « وكفى بجهنم سعيرا . إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضِجتْ جلودُهم بدَّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » ؟

كلا ! لم يخنه التعبير قط .

وإنما يغيب عن ذوي الحس الغليظ منا ، أن أبا العلاء كان يجد راحته في حزنه على أمه . ويطيب نفساً لهذه النعمة . فيرى أن إبلاءَ جسمه في طلبها والتعلق بها ، إبلالٌ مما يضنيه من أوصاب وأشجان ، ويروعه أن يتصور إمكان نفادِ نعمة حزنه ، بسلوٍّ لا يعني عنده إلا العقوق والخيانة ، وتبلُّدَ الإحساس وسوادَ القلب وموتَ الضمير . وهو الذي أوجب أن يُقتلَ بأُمِّه التي أهلكها بسفره إلى بغداد ، لولا أن الأَجلَ قدَر مكتوب !

ولست أقول هذا تفسيرا من عندي أبرر به وصفَه لحزنه بأنه « كنعيم أهل الجنة ، كلما نفَدَ جُدِّد » بل قاله أبو العلاء نفسه ، وقد تذكر رؤياه التي سلَفت ، وتحقق من صدق تأويلها في صرامة الواقع ووعي اليقظة ، لا في خاطرات الوهم وهواجس الأحلام . ويفتقد العزاء - وسيظل يفتقده على تطاول الأيام - ولا عزاء إلا فيما يجد في حزنه على أمه من راحة ونعمة . ويلتمس البرء من أوصابه بالموت حسرةً عليها ، وليس يبالي إذا جاءته المنية أين تكون حُفرته ، غير أن مما يؤنس قلبَه الحزين ، أن يُقال له إن آله سوف يدفنونه إلى ظلٍّ من قبرِ فقيدته الثاوية في ثَرى المعرة ، والتي ما فتئ طيفها يُلم به على مَرِّ سنين :

خلوٌّ فؤادي بالمـودةِ إخـلالُ
وإبلاءُ جسمي في طِلابكِ إبلالُ
ولي حاجة عند المنية : فتكُهـا
بروحيَ ، والأهوالُ - مذْ كنَّ - أهوالُ
إذا متُّ لم أحفِل ، أبالشام حفرة
حوتني أم ريم برعـان منهـالُ
على أن قلبي آنِسٌ أن يقال لي
إلى آلِ هذا القبرِ يدفنُكَ الآلُ
دعَا اللهُ أمّاً ليت أني أمامهـا
دُعيتُ ولو أن الهواجرَ آصـالُ
مضَتْ وكأنّي مُرضَعٌ ، وقد ارتقت
بيَ السنُّ حتى شكل فودَيَّ أشكالُ

أراني الكرى أني أصبت بناجذٍ
ألا إنّ أحلام الرقـاد ضـلالُ
أجارحتي العظمى تُشبَّـه ساهيا
بِسِنٍّ لها في ساحة الفم أمثـالُ
وبين الردى والنوم قُربى ونسبة
وشتان برءٌ للنفـوس وإعـلال
إذا نمتُ لاقيتُ الأحبَّةَ بعدما
طوتهم شهورٌ في التراب وأحوالُ

****

بموتِ أمّه ، بدأ إحساسه العميق بأنه أمسى أشبه بغصنٍ مجتَثٌّ مُلقى ، بغير جذور ولا فروع : لقد كان من بين ما قرَّ عليه عزمه وهو ينسحب إلى محبِسه ، ألا يتزوج ولا يلد . وها قد مضى أبواه فانقطع عن جذوره ، ولن يلبث ماء الحياة أن يجف فيه وينضب ، فيصير إلى حذفٍ وإدغام :

فصرَّفني وغيَّرني زمانٌ سيعقبني بحذفٍ وإدغام

ويُلح هذا الخاطر على وجدانه في طور عزلته ، فيتمثل نفسه في (اللزوميات) نبتاً مرَّ عليه يومٌ وليلة منفِضان من الزاد ، فاستأصلاه جزّاً :

كأنيَ نَبْتٌ مَرَّ يومٌ وليلـةٌ عليَّ وكانا مُنفضين فجَزَّاني

****

ولبث حزنه على أمه كلما نفد جُدِّد كما قال . وأوغل الجرح في

أعماقه تنكؤه الرزايا تُلم به من حين إلى حين . ولم يمضِ على مصابِه في أمه غير بضع سنين ، حتى غال الموت أخاه الأصغر « أبا الهيثم عبد الواحد » سنة خمسٍ وأربعمائة .

وكان أبو الهيثم لأبي العلاء أخا حبيبا وصديقا عزيزا غاليا . وقد مرت بنا قصيدته المؤثرة في رحلة أبي العلاء إلى بغداد ، حيث كاد الحزن يتلفه أسىً لفراق أخيه وحذارا عليه . وهذا هو أخوه قد عاد إلى المعرة ، فلم يلبث الشمل أن تمزق ، ولا رجاءَ هذه المرة ، في لقاء .

وحزن أبو العلاء حزنا مُرا على أخيه الصديق الذي اغتاله الموت شابا لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره [1].

وتراكمت من حول رهين المحبسين ، وفوق صدره ، أطلالُ ما تقوض من بيت أسرته وما انهار من دنياه ، يتردد بينها ملءَ مسمعه ، صدىً من أبياتِ أخيه الراحل ، وقد مرَّ ذات يوم برجلٍ يقلع حجارة من أطلال « سياث » المعرة القديمة :

مررتُ بربَعٍ من سياث فراعني
به زجَلُ الأحجار تحت المعاولِ
أتُتلفَها شُلّتْ يَمينُك خَلِّها
لمعتبرٍ أو زائرٍ أو مُسائلِ
منازل قومٍ حدثتنا حديثهم
فلم أرَ أحلى من حديث المنازل [2]

****

(١) ابن العديم : الإنصاف والتحري ٤٩٤/ تعريف .

(٢) فيما روى ابن العديم، بإسناد إلى أبي المجد الأخ الأكبر لأبي العلاء وأبي الهيثم، أن أبا

وتتابع الراحلون من الأهل والأحباب ، إلى مقابر الموتى، ومجتمع الرمم .

وصوت أبي العلاء في أثرهم ، يتساءل في شجن وأسى : كيف لم يتلفه الحزن على أهل الصالحين :

« يا قلبُ ، لعل أَسْوَدَك زِنجيٌ من ولد حام ... ألا تبتئس لأولِ من فعل معك الجميل ؟ ألا تجزع لتقوُّضِ الأقربين ؟ يا شِمالُ ، ألم يحزنكِ شللُ اليمين ؟ أقمت وتحمل الناسُ وإن لحاقي بالظاعن لَوَشيك . عند الله أحتسب ما رُزِئتُ من أهلٍ ولقيتُ من همٍّ كاد الغربيب له يشيب وتعبٍ رسخَ ألمُه في الأعضاء ...

« يا معشر أهلنا الصالحين ، بئس القومُ نحن ! لم نوفكم الواجب من الوفاء : شربنا بعدكم الباردَ ولبِسنا ناعمَ اللباس ، وأظلتْنا الجدُرُ وأفنيةُ الدُّورِ . لو كنا أهلَ حِفاظٍ عِضْنا بَعدَكم النُّطَفَ العِذاب ... » .

(الفصول والغايات)

ويجأر في (اللزوميات) :

لعمري لقد وَكَلَ الظاعنــون بقلبيَ نجماً بطيءَ الغــروب
أقول وقد طال ليلي عـــليَّ أما لِشبابِ الدجى من مشيب ؟

****

= الهيثم كتب هذه الأبيات من شعره ، على جدار الحائط المهدم .

وقد جاء بها ياقوت ، دون إسناد ، في بلدة سياث بمعجم البلدان « مما أنشده القاضي أبو يعلى المعري » .

والإنشاد لا يمنع أن يكون أبو يعلى قد أنشدها قراءة من كتابة أبي الهيثم ، على الجدار المهدم .

وما كان أطول ليله !

من سنته الرابعة ، بدأ ذلك الليل ، ممتدا إلى آخر العمر ...

وقد خيل إليه حينا ، في ميعة الصبا وأشر الشباب ، أنه مستطيع أن ينسخ ذلك الليل بنهار متألق الضياء ، وأن يجعل سُراه في داجي الظلمة ، تحليقا مع النجوم في مسبَح الفلَك .

حتى آب من رحلته إلى بغداد وقد انجابت عنه غشاوة الوهم ، وأعوزه ما تعلل به في طريق الإياب من الأُنس بقرب أمه .

وأوحش ليله ، وتتابعت أماليه ، ورسائله وقصائده ، من وراء الأسوار العازلة والظلمات المتراكمة ، تضيءُ لنا العالَم الفكري والوجداني لشاعرٍ إنسان ، كُشِف له الغطاءُ عن نفسِه ، واستروح إلى الإفضاء بمطويّ همومه ومواجعه ، والكشف عن تأملاته ورؤاه .

وتلاشت نغمة الاستعلاء الجامح والطموح المشتط والمكابرة العنيدة ، لنسمعه يقول لنفسه في أول رسالة أملاها بالمعرة ، إلى خاله أبي القاسم :

« ليسَ بِعُشِّكِ فادرجي ! هذا أحقُّ منزلٍ بترك . الصيفَ ضيعتِ اللبنَ ، الربيعَ أغفلتِ الكمأةَ ، وعلى المفازةِ أرقتِ السقاءَ . عودي إلى مباركك ... » .

ويملي في (الفصول والغايات) بعد عودته من بغداد :

« ما أضيقَ عليَّ دنياي ! وأنتَ ، مولايَ ، المفزَعُ إذا بطلَ كلُّ احتيال ... » .

« إن جَناحي لمهيض . طِرتُ في الصعيد فوقعتُ غيرَ بعيدٍ ، والله مُنهِض المنهاضين » .

« الله ملك الملوك ، وأنا معترف مُقِرٌّ ، أن شهدَ الدنيا مَقِر وأن غنيَّها مفتقر . أعوزني فيها مسكنٌ آوي إليه ، وتبوأت الناسجةُ [العنكبوت] بين المثاب » .

« أضحك فلا ضحكتُ ، وأنا بالبكاء حقيقٌ ، مما كان ويكون ... »

« أرتفعُ والقدَرُ يكبُّني ، يأْلبني دائما ويلبني . كم أستنسر وأنا من البغاث ! » .

وينشد من (اللزوميات) :

رب متى أرحل عن هذه الـدنـ
ـيا فإني قد أطلـت المقـامْ
لم أدرِ مـا نجمي ولكنـه
في النحس مذ كان ، جرى واستقامْ
فلا صديقـي يترجّـى يـدي
ولا عـدوّي يتخشى انتقـام
والعيش سُقم للفـتى مُنْصِـبٌ
والموت يأْتي بشفـاء السقـام

****

رماني مَن لـه وتَـري وقـوسي
وكَفِّي والسهامُ ، فكيف أرمي ؟

****

ملامٌ لنفسي حق عنــدي لمثلها
وكنتُ حقيقــا عندهــا بمــلامِ
وإظلامُ عينٍ بعده ظلمــةُ الثرى
فقل في ظلامٍ زيد فوق ظلامِ

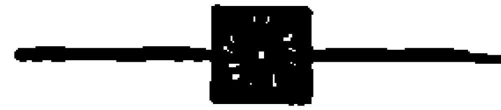
****

إن يرحل الناسُ ولم أرتحــلْ
فعن قضــاءٍ لم يُفــوَّضْ إلــيّْ
خُلِّفتُ من بعد رجــالٍ مضَــوا
وذاك شرٌّ لــي وشرٌّ عــــليّْ

****

فيــا دارَ الخسار أَلِــي خَــلاصٌ
فأَذهبَ في الجنوب أو الشمالِ
وظلم أن أحــاول فيك ربحــا
ولم أخرج إليــكِ برأسِمــالِ

. . . .



الفصل الثاني

مجاهدة، وجهاد

نهاية المطاف

(تراث وآمال)

(٤)

مجاهدة وجهاد

- رهين المحبسين .
- صائمُ الدهر .
- السرُّ المذاع .
- الأديب الحر .
- خصومة واتهام .

رَهِينُ المحبسين

هذا زمــانٌ ليس في أهلــــه
إلا لأَن تهجــرَه أهــلُ
حان رحيلُ النفسِ عن عالَمٍ
ما هو إلا الغدرُ والجهلُ

أبو العلاء
(لزوم ما لا يلزم)

من اللحظة الأُولى لإيابه إلى معرة النعمان ، بدأ ينفذ ما فرضه على نفسه من قرارٍ : بنبذة العزلة ، وانقضاب عن العالم ، وثباتٍ في بلده إن حالَ أهله عنه من خوف الروم :

وتفسير القرار ، أو الوعد كما سمّاه : أن يلزم بيته في معرة النعمان لا يبرحه لأيّ سبب أو داع ، ويمتنع عن الزواج ، ويسد الذرائع فيقنع من الطعام بما يمسك رمقه مما تنبت الأَرض ، ومن اللباس بما

يستره من خشن الثياب ، ومن الفِراش بحصيرٍ من بردي أو لباد ،

وأن يروض نفسه على الزهد في الدنيا والسلو عنها ، كيما يهون عليه احتمال محنة الوجود ووطأة الحرمان .

ذلك ما استقر عليه عزمُه وأجمع عليه أمرَه ، منذ انسحب نفسيا من معركته الأُولى ، وأخذ طريق الإياب من بغداد .

وبه سارت رسالته ، بلاغا ، إلى أهل بلده .

فكيف كان مسلكه ، وماذا أطاق من ذلك كله ، وماذا أعياه أن يطيق ؟

****

أما العزلة ، فالتزمها من جانبه إلى أقصى المدى :

لبث تسعا وأربعين سنة في محبسه بمعرة النعمان ، لم يغادره إلا مرة واحدة لم تتكرر ، حين حمّله قومُه على الخروج ليشفع لهم لدى « أسد الدولة : صالح بن مرداس ، صاحب حلب » وكان قد خرج إلى المعرة ليخمد حركة عصيانٍ من أهلِها ، سببُها فيما نقل المؤرخون [1] : « أن امرأة دخلت جامع المعرة صارخة ، تستعدي المصلين على صاحب الماخور الذي أراد اغتصابها . فنَفَر كل مَن في الجامع وهدموا الماخور ونهبوا ما فيه . وكان أسد الدولة في نواحي صيدا فأسرع إلى هناك وعسكر بظاهر المعرة وشرع في قتالِها ورماها بالمنجنيق ، واعتقل من أعيانها سبعين رجلا ، إقامة لهيبة السلطان .

---

(١) ابن العديم في « الإنصاف والتحري » والقفطي في « إنباه الرواة » والذهبي في « تاريخ الإسلام » والصفدي في « نكت الهيمان » .

« فلما رأى أهل المعرة ألا قِبَلَ لهم بذلك ، سعوا إلى أبي العلاء يسألونه الخروج إلى أسد الدولة في معسكره بظاهر المعرة ، والشفاعةَ لهم عنده . وما زالوا به حتى خرج متوكئاً على يدِ قائدٍ له . وقيل لصالح : إن باب البلدة قد فُتح وخرج منها رجل يقادُ كأنه أعمى . فقال : هو أبو العلاء ، أوقِفوا القتال .

« وأذِن له وأكرمه ، وعرَّفه شوقه إلى لقائه . ثم سأله : ألك حاجة ؟ فلما ذكر له أنه جاء شفيعا لقومه ، أجاب صالح : قد وهبتها لك يا أبا العلاء – يعني معرة النعمان . ثم استنشده فأنشد :

تغيبــتُ في منزلــي برهــــةً
ستيــرَ العيــوب فقيــدَ الحسَدْ
فلمــا مضى العمرُ إلا الأقــلَّ
وحُمَّ لروحي فــراقُ الجســـد
بُعِثــتُ شفيعــا إلى صالـــح
وذاك من القــوم رأيٌ فسَــدْ
فيسمــع مني سجــع الحمـــا
م وأسمعُ منه زئيــر الأَســد

قال صالح : بل نحن الذين تسمع منا سجعَ الحمام ، وأنت الذي نسمع منه زئير الأسد .

« ثم أمر بخيامه فوضِعت ، ورحل عن المعرة » وعاد أبو العلاء إلى محبسه وهو يقول ردا على اعتراف القوم بفضله في ردِّ أسد الدولة عن البلد :

نجّى المعرة من براثن صالـــح
رب يداوي كـــلّ داء مُعضِــلِ

ما كان لي فيها جنــاحُ بعوضة
اللهُ ألحقَهم جنــاح تفضـــل

والبيتان من (اللزوميات) .

والخبر كما رواه المؤرخون ، يعطي سببا لخروج أبي العلاء ، تحت ضغطٍ من إلحاح قومه « ما زالوا به حتى خرج » ،

كما يعطي شاهدا على منزلة أبي العلاء :

لدى قومه الذين اختاروه شفيعا لهم عند أسد الدولة صالح بن مرداس ، عن يقين بأن مَن اختاروه خليق بأن تُقبل شفاعته .

ولدى « صالح بن مرداس » صاحب حلب ، الذي لم يكد يسمع من بعض جنده أن باب المعرة قد فُتح وخرج منه رجلٌ يقاد كأنه أعمى ، حتى عرف من فوره أنه أبو العلاء ، فأمر بوقف القتال وأكرم وفادته . وكان هو الذي سأل أبا العلاء : « ألك حاجة ؟ » فأعفاه بذلك من أن يبدأ بعرض حاجته ، سؤالا والتماسا .

قد نلمح من الحوار بين الرجلين ، رأيَ كل منهما في الآخر ، ولكن الخبر لا يحدد وراء ذلك ، موقف أبي العلاء من الحادث الذي استنفر قومه غضبا لحرمة امرأة منهم ، فأغضبوا أسد الدولة بتمردهم وعصيانهم ، فوطئ المعرة وطأة فادحة ، حتى نجاها الله من « براثن صالح » ...

أبو العلاء ، على العهد به ، هو الذي يعطينا كلمته بيانا لموقفه ،

مسجّلا في قصيدة من لزومياته :

أتت جامعٌ يوم العروبة جامعـا
تقص على الشُّهَّادِ بالمصير أمرهـا
فلو لم يقوموا ناصرين لصوتِها
لَخِلتُ سمـاءَ الله تمطِـر جَمْرَها
فهلُّوا بنَاءً كـان يـأْوي فنـاءه
فواجرُ ألقت للفواحشِ خُمْرَهـا
أَلِفنا بلاد الشام إلـفَ ولادةٍ
نلاقي بهـا سود الخطوب وحَمْرَها
. . . .
فإنِّي أرى الآفاق دانت لظالـم
يغر بغاياها ويشرب خمرهـا

****

ومتى كان الحادث ؟

في عهد « صالح بن مرداس » بحلب ، أي فيما بين سنتي ٤١٧ ، ٤١٨ هـ . وقد مضى علي أبي العلاء نحو ثماني عشرة سنة في محبسه ، وبلغ من العمر نحو خمس وخمسين سنة ، حسبها وقد طالت عليه ، أشرفت به على النهاية فلم يبق من عمره إلا الأقل ، « وحُمَّ لروحي فراقُ الجسد » .

لكن ظنه أخلفه ، فما يزال عليه أن يكابد الحياة أكثر من ثلاثين سنة ؛ بعد خروجه شفيعا لقومه .

ويضيف أبو العلاء في تأريخ الحادث الجلَل الذي أخرجه ، ما فات المؤرخين أن يلتفتوا أو يلفتوا إليه : لقد حدث ذلك « يوم العروبة » وهو يوم الجمعة ! فيه دخلت السيدة المسلمة المسجدَ الجامع وقد احتشد المسلمون لصلاة الجمعة ، فقصَّت عليهم أمرها مع صاحب الماخور الذي أراد أن يحملها على الفاحشة . فنفروا جميعا غضابا وهدُّوا الماخور ، ولو لم يفعلوا لأمطرتهم سماءُ الله جَمرها ، فيما خال « أبو العلاء » الذي ما هان عليه قط ، أن يقوم إلى جواره ببلده ، في صميم ديار الإسلام ، ماخور يحتال على التغرير بنساء المسلمين فيأْوي منهن إلى فنائه « فواجر ألقت للفواحش خُمْرَها »

وينفذ الهواء إليه في محبسه ، ملوثا بأنفاس البغايا ممن غرَّهن الفاجر الظالم ، فيحس بالاختناق ، ويود لو أنه استطاع أن ينجو من المناخ المسموم ، لكنه كان مقيدا بعهده الذي قطعه على نفسه ؛ أن يلزم بلده ما عاش .

وعاد إلى محبسه ، بعد خرجته اليتيمة التي لم تتجاوز ظاهر المعرة . ثم لم يبرحه قط حتى خرج من الدنيا بعد بضع وثلاثين سنة ، محمولا على الآلة الحدباءِ إلى جوار « قوم أجادوا العظاتِ ، وما فيهمُ أحدٌ نابسُ »

****

أطاق أبو العلاء الحبس في منزله بالمعرة نحو نصف قرن من الزمان ، لكن الذي لم يستطعه ، هو أن يحول دون اقتحام الناس عليه عزلته ، ولقائهم إياه في محبسه ...

قبل وصوله إلى المعرة ودخوله محبسه ، أرسل إلى أهل بلده بلاغا بقراره البات ، رجاءَ أن يُخلُّوه وما اختار ، فيعفوه من حرج السعي إلى منزله الموصد عليه ، ولا سبيل لهم إلى لقائه .

أو بنص كلماته ، في رسالته « إلى السكن المقيم بالمعرة » ، منصرَفَه من بغداد :

« ... وبادرتُ إعلامَهم ذلك ، مخافة أن يتفضل متفضلٌ بالنهوض إلى المنزل الجارية عادتي بسكناه ليلقاني فيه ، فيتعذر ذلك عليه . فأكون قد جمعتُ بين سَمجَين : سوء الأدب وسوء القطيعة . ورُبَّ ملومٍ لا ذنب له . والمثلُ السائر : خلِّ امرأً وما اختار »[1] .

غير أنهم مع ذلك أبوا أن يستجيبوا له .

غلَبهم الحرصُ على لقائه ، وكرهوا أن يخلوا بينه وبين ما اختار من عزلة صارمة وانفرادٍ موحش .

وحاول مخلصاً أن يصرفهم بكل ما أطاق من جهد . وأفلح في ذلك إلى حين ، فما سمح بالدخول إليه إلا لخاصة أهله الأدنَين ، ممن ذكرهم في رسالته إلى خالِه أبي القاسم .

« .... أجمعتُ على انفرادٍ يجعلني كالظبي في الكناس ويقطع ما بيني وبين الناس ، إلا مَن وصلني الله به وصلَ الذراع باليدِ والليلة بالغد » .

لم يتجاوزهم إلى بني الأعمام والأخوال !

(١) أنظرها في « رسائل أبي العلاء » تحقيق مرجليوث وفي « الإنصاف والتحري » لابن العديم : ٥٤٦/ تعريف .

ولَدى الأَهل الأَقربين الذين أَذِن لهم أبو العلاء في الدخول ، التمس أَهل البلد مَن يفتح لهم بابَه الموصَد .

كتب « ابن العديم » مؤرخُه المنصف المتحري :

« أقام مدة ويلة في منزله مختفيا لا يدخل عليه أحد . ثم إن الناس تسببوا إليه – يعني : التمسوا الأَسباب – وأَلحوا في طلب الشفاعة لديه من أقاربه الأَدنين » .

وروى فيما روى ، قصيدة لأَبي صالح محمد بن المهذب ، استشفع فيها بأَبي الهيثم عبد الواحد ، لدى أَخيه أَبي العلاء . وفيها يقول « محمد ابن المهذب » شاكيا متوسلا :

أَراها أَبَتْ إلا النوى بيَ مغرما
ولو رضيتْ هجرانهَا لكفاني
تضن بإهداء السلام تجاهلا
ولو علمتْ أَن الرقاد جفاني
هبِي هجعةً كيما أَرى الطيفَ مرةً
بها تحت أَرواقِ الدجى ويراني
لعلِّيَ أَشفي عِلتي بلقائه
فكم من خليل زارني فشفاني
وود كريم لو ينال خلائقا
هي النجم زادتْه علوَّ مكانِ
تخيَّر قلبي والحشا ، ثم إنه
ثوى بمحلٍّ عن سواه مُصانِ

أبا الهيثم اسمع ما أقول فإنما
تُعين على ما رُمْتَ خيرَ معان
قريضي هجاءٌ إن حُرِمتُ مديحَه
لأروعَ وضاح الجبين هجانِ
أطلَّ على بغداد كالغيث جاءها
به سعدُ نجمٍ في أجلِّ أوانِ
نضاها ثيابَ المجد وهي لباسُها
وبدَّلها من شدةٍ بليانِ
فيا طِيبَ بغدادٍ وقد أرِجتْ به
على بُعدِها الأطرافُ من أرجانِ

. . . .

نأى ما نأى والموتُ دون فراقِه
فما عُذره في النأي إذ هو دانِ
فكُنْ حاملا مني إليه رسالة
تبين إليه في هضاب أبان
فإن قال أخشى من فلانٍ تشبها
فقُلْ : ما فلانٌ عندنا كفُلانِ
هو الخِلُّ ما فيه اختلالُ مودةٍ
فلا تخش منه زلَّةً ، بِضمانِ
فإن خنتُ عهدا أو أسأْتُ خليقة
ولم يك شأْني في المودة شاني

فلا أحسنتْ في الحرب إمساكَ مَقبضي
يميني ، ولا يُسراي حفظَ عناني
لعل حياتي أن تعود نضيــــرةً
لديه كما كانت ، وطِيبَ زماني

****

القصيدة وثيقة بالغة الأهمية والخطر ، من حيث دلالتها على ما كان يعنيه أبو العلاء بقوله : « أجمعت أمري على انفراد يجعلني كالظبي في الكناس ويقطع ما بيني وبين الناس ، إلا مَن وصلني الله به وصلَ الذراع باليد » ....

ومن حيث شهادتها لمبلغ صدقه فيما قال :

فأبو صالح محمد بن المهذب : من أعيان العصر فضلاً وعلما وتقى . وهو ابن عمة أبي العلاء ، ورفيق صباه وزميله في الدرس وصديقه الصفيّ في الشباب . وهذا هو يستشفع بابن خاله أبي الهيثم ، ليُفتح له البابُ الموصَد حتى على ذوي الرحم والقربى ، من أمثال أبي صالح الذي يمت إلى الضرير المعتزل بأقوى الأواصر وأقرب الأسباب !

هل كان أبو العلاء في كرم سجاياه ومروءة حفاظه بحيث يصم مسمعه عن مثل ذلك التوسل الضارع من ابن عمته ورفيق صباه ؟

أو كان ، وقد رق له قلبه فأذن له ، بحيث يملك أن يقول لسواه من ملتمسي لقائه بالشفاعة والتوسل : « ما فلانٌ عندنا كفلان » ؟

لقد فاته وهو يصدر قراره ، أنه يتجاوز نفسه إلى أهل بلده ، ويشق عليهم بما لا يطيقون من قطيعته ، وهم الذين حزنوا لسفره إلى

بغداد وألحوا في رجائه أن يعود .

ولكن أنهم صبروا على ما لا حيلة لهم فيه من فراقه ، ومنزله ببغداد ناءٍ بعيد . أنَّى لهم الصبر وهو دانٍ قريب ، ليس بينهم وبينه إلا بابٌ وجدار !

وتذكر المثل السائر الذي ضربه لهم :

« خلِّ امرأً وما اختار » .

وقد اختار لنفسه العزلة فليبق في محبسه حيث اختار .

واختاروا لأَنفسهم أن يحظوا بلقائه ، ومن الإنصاف أن يخليهم وما اختاروا !

****

وفُتِحَ البابُ الموصَد ،

لا ليخرج منه أبو العلاء إلى الناس ،

بل ليدخل عليه الزائرون من ذوي قرباه وأهل بلده ، ثم من سائر بلدان العالم الإسلامي .

فصار منزله الذي أراده سجناً له ، داراً للعلم يحج إليها الطلاب من أقطار المشرق والمغرب ، يقرأون عليه أماليه ورسائله وديوان شعره ، ويتعلمون منه ويأْخذون عنه .

وفرغ للتدريس والإملاء ، فإذا خلا بنفسه في غير أوقات الدرس ، فللعبادة والتأَمل .

قال القفطي وابن خَلكان : (١)

---

(١) في : « إنباه الرواة » و« وفيات الأعيان » .

« وأخذ عنه الناس ، وسار إليه الطلبة من الآفاق ، وكاتبه العلماءُ والوزراءُ وأهلُ الأقدار » .

وقال ابنُ فضل الله العُمَري : (١)

« وأخذ عنه خلق كثير لا يعلمهم إلا الله عز وجل . كلهم قُضاة وأئمة وخطباء وأهلُ تبحُّر ، واستفادوا منه ، ولم يذكره أحد منهم بطعن ، ولم ينسب حديثه إلى ضعفٍ أو وهن » .

****

وفي هذه المرحلة الخصبة الطويلة من عمره ، احتاج إلى عدد من الكتبة الحُذَّاق الأُمناء ، يفرغون لكتابة ما يمليه . واختص به نفرٌ من المُجوِّدين يدونون رسائله ومصنفاته ، ويكتبون عنه إجازات السماع والرواية ، لمن يسمع منه ويستجيزه . وفي كتاب (الإنصاف والتحري) لابن العديم ، فصل في ذكر هؤلاء الكتاب المختصين بأبي العلاء ، منهم :

* ولَدا أخيه أبي المجد محمد :

« أبو محمد عبد الله بن محمد » وكان برّاً بعمِّه ملازما لخدمته والكتابة له . ويقع بخطِّه من المصنف الواحد نسختان أو أكثر . وقد وليَ قضاء المعرة على كُرهٍ من عمه . وكان مولده بالمعرة سنة ٣٩٧ هـ ، ووفاته بها سنة ٤٦٥ هـ .

و « أبو الحسن علي بن محمد » : تولى قضاء المعرة وقضاء حَماة سنة ٤٥١ هـ بعد اعتزال أخيه القاضي أبي محمد عبد الله .

وقد نسخ بخطِّه جميعَ أمالي عمِّه أبي العلاء .

---

(١) في : مسالك الأبصار .

* وابن أخيه أبي الهيثم : « الشيخ أبو نصر زيد بن عبد الواحد » المتوفى سنة ٤٤٢ هـ .

* وولدُه « منافِر بن زيد » وقف بخطِّه كتبا من تصانيف عمٍّ أبيه ، « تدل على فضله وحسنِ نقله » .

* « جعفر بن أحمد بن صالح بن سليمان بن داودبن المطهر التنوخي » وكان من أعيان كُتاب أبي العلاء .

وقرأ عليه كثيرا من كتب الأدب ، وروى عنه « وكان خَطه على غاية من الصحة والضبط » .

* « ابراهيم بن علي بن الخطيب » اشتهر بالضبط والإتقان وإجادة الخط . كتب معظم تصانيف أبي العلاء ورسائله . كما كتب عنه في السماع عليه والإجازة عنه .

* « أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم المعري» وكان « من العُدول الأُمناء الفضلاء . تولى أوقاف الجامع بمعرة النعمان . ولزم أبا العلاء وكتب مصنفاته بأَسرها . وربما كتب من المصنف الواحد عدة نسخ ، غاية في الضبط » .

* وولده « أبو الفتح محمد بن علي » ، وكان كوالده « ملازماً لخدمة أبي العلاءِ والكتابة له » . . . . .

وقد اعترف « أبو العلاء » بجميل كُتابه . فذكر في بعض شِعره ابنَ أخيه أبا محمد القاضي ، شاكرا له صادق بِره وكريم فضلِه ، وإياه عَنَى بقوله :

وقاضٍ لا ينام الليلَ عــــني وطول نهاره بين الخصوم

وقال فيه ، وذكر أمّه :

أعبدَ الله مــا أسدى جميــلا
نظيرَ جميلِ فعلك غير أمــي
سقتني دَرَّهــا ودعت وباتــــت
تعوذني ، وتقــرأ أو تسمــي
هممتَ بــأن تجنبني الرزايــا
فرُمتَ وقــايتي من كــل همٍّــي
كــأن الله يلهمــك اختيــــاري
فتفعله ، ولم يخطــر بوهمــي
حمدتك في الحياة أتــم حمدٍ
وأيــامي ذممــــتُ أتــمَّ ذمٍّ
أجِدَّكَ ما تركت وأنت قــاضٍ
تعهَّدَ مُقعــدٍ أعمــى أصــمٍّ

****

كما ذكر بالحمد والثناء والدعاء ، كاتبه « أبا الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم » فقال :

« لزمتُ مسكني منذ سنة أربعمائة . واجتهدتُ أن أتوفرعلى تسبيح الله وتمجيده إلا أن أضطر إلى غير ذلك . فأمليتُ أشياء وتولى نَسْخَها الشيخُ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم ، أحسن الله معونته . فألزمني بذلك حقوقا جمة وأياديَ بيضا ، لأنه أفنى فيّ زمنَه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنَه. واللهُ يحسن له الجزاء ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء ».

أما ولده « أبو الفتح بن علي » فقد صنف أبو العلاء كتابا باسمه عنوانه : (المختصر الفتحي) كما اختصه بكتابه (عون الجُمَلِ) – آخر كتاب أملاه . وفيه شرحٌ لبعض ما في (كتاب الجُمل : لأبي إسحق الزجاجي) .

وسجل شهادته لبني أبي هاشم ، بالأمانة والورع والثقة والضبط ، في (رسالة الضبعين) التي كتبها إلى « معز الدولة ثمال بن صالح » يشكو إليه فيها تحريف رجُلين لبعض شعره في (لزوم ما لا يلزم) ليتهماه بالإلحاد . قال :

« وفي حلب حماها الله ، نسخ من هذا الكتاب – اللزوميات – بخطوط قومٍ ثقاتٍ يعرفون ببني هاشم ، أحرار نسكة ، أيديهم بحَبل الورَع متمسكة ، جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمليه . وإن أُحضِرتْ – النسخ – ظهرت الحُجة بما قلت فيه » .

****

واشتهر من تلاميذه :

* أخوه الأديب الشاعر ، أبو الهيثم عبد الواحد ، وابنه زيد .
* القاضيان عبد الله وعلي ، ابنا أخيه أبي بكر محمد .
* « أبو القاسم علي بن المحسن بن علي التنوخي القاضي » .

وهو من أقران أبي العلاء . وقد لقيه ببغداد وكان صاحبا له وصديقا طولَ مقامه بها . وإليه أرسل أبو العلاء القصيدة التائية التي مَرَّت في « حديث الإياب » :

يا عارضا راح تحدوه بوارقُــه
للكرخ سُلِّمتَ من غيثٍ ونُجيتا
لنا ببغداد مَن نهوى تحيتَـــه
فإن تحملتَهــا عنــا فحُيِّيتـــا
يا ابنَ المحسِّن ما أُنسيتُ مكرمةً
فاذْكرْ مودتَنا إن كنت أُنسِيتــا

. . . .

بَتَّ الزمــانُ حبالي من حبالِكمُ
أَعزِزْ عليَّ بكونِ الوصلِ مبتوتــا
أَعُدُّ من صلواتي حفظَ عهدِكمُ
إن الصلاة كتاب كان موقوتــا

* « أبو زكريا الخطيب التبريزي » من أعيان القرن الخامس . وقد رحل إليه وأطال المكث عنده . ووصلتْ إلينا نسخة موثقة من (رسالة الغفران) مقابلة على النسخة التي كتبها التبريزي بخطه .

* « أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأَصبهاني » من فضلاء العصر . قصد إلى معرة النعمان ولازمه مدة حياته يقرأ عليه إلى أن مات . وله صنف أبو العلاء كتاب « ضوء السقط » شرحا لديوان سقط الزند .

* « نصر بن صدقة القابسي النحوي » رحل إلى المعرة ولزم أبا العلاء وقرأ عليه وأخذ عنه ديوانه (سقط الزند) وكتب منه نسخة جيدة . (١)

---

(١) في (بغية الوعاة) للسيوطي ، أن ابن صدقة لما عاد إلى مصر قدم الديوان إلى الحاكم بأمر الله الفاطمي فأعجبه نظمه .

من تلاميذه أيضا :

* الإمام أبو المكارم عبد الوارث بن محمد الأبهر .
* والفقيه أبو تمام غالب بن عيسى الأنصاري الأندلسي .
* والخليل عبد الجبار القزويني .
* وأبو طاهر محمد بن أحمد الأنباري .
* وأبو الحسن علي بن همام .

. . . .

ولم يقبل قط أن يأخذ على العلم أجرا . بل إنه كان يود لو أن موارده المالية المحدودة احتملت ضيافة تلاميذه وقاصديه . وما سُمع في المرحلة الثانية من عمره ، يشكو من ضيق ذاتِ يدِه ، إلا لقصوره عن الوفاء بما عدّه حق الضيافة وزكاة المروءة . فكان ، فيما نقل القفطي والذهبي : « يتأوه من ذلك ويعتذر إلى قاصديه » .

وحاول مع ذلك أن يقتر على نفسه في القليل الضئيل من رزقه ، ليوفر من إيراده المحدود ما يؤدي به زكاة مروءته .

ذكر « ابن العديم » أن أبا العلاء « كان لا يقنع بالدفع إلى مَن يقومون على خدمته ، بل كان يدفع من إيراده الضئيل شيئا لأُولي الحاجة ممن يتردد إليه » .

ثم نقل بإسنادٍ عن الخطيب التبريزي ، قال : « كان المعري يجْري رزقا على جماعة ممن كان يقرأ عليه ويتردد لأجل الأدب إليه » .

كما روى ابن العديم ، وجادة ، مما قرأه بخط أبي الفرج محمد

ابن أحمد بن الحسن ، الكاتب الوزير ، في وصف رحلته إلى الحج من أذربيجان ، ومروره بالمعرة للقاء أبي العلاء :

« وله مَعاشٌ يكفيه ويمونه . وأولادُ أخٍ يخدمونه ويقرأون بين يديه ويدرسون عليه ويكتبون له . ووراق برسمِه مستأجَر . ثم ينفق على نفسه من دَخل معاشِه نفقة طفيفة . وما يفضُل عنه يفرقه على اللائذين به وفقراء القاصدين له من الغرباء »[1] .

وقد أبت عليه مروءته أن يقبل من تلميذه « الخطيب التبريزي » نفقة إقامته التي طالت عنده . وفي الخبر أن الخطيب « كان – عند وصوله إلى أبي العلاء قد أعطاه صُرَّة فيها ذهب ليدفعها إلى من يختار ، كي ينفق منها على ما يحتاج إليه من طعام ، ويتوفر هو على القراءة والدرس . فأخذ أبو العلاء الصرة ، وهيأ لتلميذه مطالب العيش طول مقامه بمعرة النعمان ، وهو يظن أن ذلك من ذَهبه الذي دفعه إلى الشيخ . فلما حان وقت رحيله وودع شيخه ، دفع إليه صرته بعينها لم تُمس »[2] .

****

واتصل به من غير التلاميذ وطلاب العلم والأدب ، عددٌ من أعلام العصر : إما بالرحلة إليه كالكاتب الوزير أبي الفرج محمد بن أحمد بن الحسن ، والرحالة الفارسي ناصر خسرو ، وعزيز الدولة أبي شجاع فاتك ، والي حلب للحاكم بأمر الله ، موفدا منه لحمله إلى مصر .

وإما عن طريق المراسلة . واشتهرت رسائله إلى بعضهم ، مثل :

(١) الإنصاف والتحري : ٥٧٥/ تعريف .

(٢) ابن العديم : الإنصاف والتحري ٥٧٦ / تعريف .

(رسالة الغفران) أملاها ردًّا على رسالة تلقاها من معاصره الأديب الحلبي « علي بن منصور ، المعروف بابن القارح »[1] .

(رسائله إلى داعي الدعاة) أبي نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران . ردّاً على رسائل تلقاها منه ، يجادله في امتناعه عن أكل اللحوم وإيذاء الحيوان . . . .

وكتب إليه عدد من الأمراء والولاة ، يسألونه تشريفهم بتصنيف كتبٍ برسمِهم . وأجاب دون أن يقبل من أحدهم أجرا .

أذكر من هذه التصانيف :

(الصاهل والشاحج)

و (لسان الصاهل والشاحج) على لسان فرسٍ وبغل. و (القائف) ، وفيه أمثال على معنى كليلة ودمنة .

ألف الثلاثة ، للأمير « عزيز الدولة شجاع بن فاتك » والي حلب من قِبَل المصريين ، في أيام الحاكم وبعض أيام الظاهر .

(الرسالة السندية)

و (رسالة العرض)

ألفهما لسند الدولة الكتامي ، والي حلب من قبل المصريين أيضا .

(اللامع العزيزي) في تفسير شعر المتنبي .

ألفه للأمير « عزيز الدولة ثابت بن ثمال بن صالح » .

(عبث الوليد)

---

(١) تجد نص رسالة ابن القارح ، مع (رسالة الغفران) في طبعة الذخائر . وانظرها مع بحث نقدي موسع في : (جديد في رسالة الغفران) . نشر : دار الكتاب العربي بيروت ، ١٩٧٢ .

على نسخة من شعر أبي عبادة الوليد البحتري ، كان « أبو اليمن المسلم بن الحسن ، صاحب الديوان بحلب » قد بعث بها إلى أبي العلاء ، فأعادها إليه مع (عُبث الوليد) مراجعة ونقدا وتصحيحا .

(شرف السيف)

عمله لأمير الجيوش « أنوشتكين » والي دمشق وحلب .

(الرياشي المصطنعي) في شرح ديوان الحماسة .

بعث به إلى مصطنع الدولة أبي غالب كليب بن علي ، وكان قد أرسل إلى أبي العلاء (ديوان الحماسة) مع شرح أبي رياش . وسأله أن يخرج في حواشيها ما لم يفسره أبو رياش .

(رسالة الإغريض)

كتبها إلى ذي الرياستين « أبي القاسم الحسين بن علي المغربي » وكان قد سيَّر إليه كتابه الذي اختصر فيه « إصلاح المنطق لابن السكيت » .

(سجع الحمائم)

ألفه لبعض الرؤساء إجابة لطلبه ، وهو على لسان حمامة ، في العظة والحث على الزهد . مقداره ثلاثون كراسة .

إلى جانب ما ألَّفه للأصدقاء وذوي الحاجة ، ممن سألوه أن يزودهم ببعض مؤلفات في موضوعات يحتاجون إليها . منها :

(سيف الخطبة)

فيه نماذج لخُطب الجُمَعِ والعِيدين ، وأدعية الاستسقاء والكسوف والخسوف . على حروف المعجم . سأله فيه أحد المشتغلين بالدين .

(ضوءُ السقط)

شرح لديوانه سقط الزند ، وضعه لتلميذه أبي عبد الله محمد الأصبهاني .

(المختصر الفتحي)

و (عون الجُمل)

عملهما لَوَلَدِ كاتبه أبي الفتح محمد بن الشيخ أبي الحسن علي .

(الظل الطاهري) في النحو .

عمله لأبي طاهر المسلم بن علي ، من أفاضل الحلبيين .

(الجلى والجلى)

سأله فيه رجل من أكابر الحلبيين وأعيانهم . مقداره عشرون كراسة .

(تاج الحُرَّة)

في عِظات النساء بخاصة . صنفه لإحدى الجليلات من النساء . قال ابن العديم : « ويغلب على ظني أنها : طرود ، زوج ابن مرداس . ومقداره أربعمائة كراسة »(١) .

(شرح خطبة أدب الكاتب)

عمله لأبي الرضى سالم بن الحسن الحلبي ، وكان من الفضلاء الأدباء الشعراء .

. . . .

ولم نذكر الحشد الكاثر من الزائرين ، ومن الأصدقاء الذين تبودلت

---

(١) الإنصاف والتحري : ٥٢٩/ تعريف .

بينهم وبينه الرسائل الإخوانية أو اللغوية والأدبية ، على مدى ما يقرب من نصف قرن ...

مع كل ذلك الاتصال بطلاب العلم وأعيان العصر ، لزم مسكنه لم يبرحه حتى آخر العمر . وقد حاول « الحاكم بأمر الله الفاطمي » أن يحمله إلى القاهرة – مع مَن جلب إليها من علماء الدولة الإسلامية في زمنه – لما بلغه من واسع علمه ورسوخ درايته . وفي خبرٍ نقله الجلال السيوطي في (بغية الوعاة) أن « نصر بن صدقة القابسي توجه إلى المعرة فلازم أبا العلاء وأخذ عنه ديوانه سقط الزند ، وكتب منه نسخة جيدة . فلما عاد إلى مصر قدمه إلى الحاكم [بأمر الله الفاطمي] فأعجبه نظمه وقرر أن يستدعيه من المعرة » .

وذكر « ابن العديم » أن « الحاكم » أمر وزيره عليّ بن جعفر بن فلاح أن يكتب إلى عزيز الدولة أبي شجاع فاتك . والي حلب أعمالها ، بحملِ هذا العالم إلى مصر ليبني له بها دارَ علمٍ يكون متقدما فيها . على أن يُسمح له بخراج معرة النعمان طول حياته . فلما تلقى عزيز الدولة كتاب الوزير ، نهض من فوره وسار إلى معرة النعمان واجتمع بأبي العلاء وقرأ عليه الكتاب . فاستمهله ريثما أملى إلى الوزير الفلاحي رسالة مطولة ، يستعفيه بها من كل ما عَرَض ، وينفي ما اشتهر به من علم ، ويعتذر بعجزه وقصوره من عدم إجابة الطلب . على ما به من شوق إلى الحَضْرة ، ومجالسة من في دار العلم بمصر من السادات الكبراء [1] .

(١) في « الإنصاف والتحري » : ٥٧٠ – وقابله على رسالته إلى الوزير الفلاحي ، في « رسائل أبي العلاء » : ص ٥٩ / مرجليوث .

وأنقل هنا من رسالته إلى الوزير :

« ما اعتزلتُ حتى جددت وهزلتُ فوجدتُني لا أصلح لجدٍّ ولا هزل ، فعندها رضيت بالأَزْل .

« ما حمامة ذاتُ طوق يُضرب بها المثل في الشوق ، كانت في وكر مصونٍ بين الشجر والغصون ، تـأْلف من أبناء جنسها ريدا فيتراسلان تغريدا ، مسكنُها نعمان الأَراكِ تـأْمن به غوائل الأَشراك ، وتمر في بكرتها بالبيت الحرام لا تفرق لمكانِ صائدٍ ولا رامٍ ، فغرَّها القدرُ إذ لم ينفع الحذر ، فخرجت من الأرض المحرَّمة فأَصبحت وهي جدٌّ مغرمة ، صادها وليدٌ في الحِلِّ ، ما حفِظ لها من إلٍّ ، فأَودعها سجنا للطير ومنعها من كل مير ،

بـأَشوقَ إلى المعيشة مني إلى تلك الحضرة . ولكنْ صنَع الزمانُ ما هوَ صانع ، واعترض دون الخير مانع ... الموردُ نميرٌ أزرق ، ولكن المدنف بالشرابِ يَشرَق :

لما رأى لُبَدُ النسورَ تطايـرت
رفع القوادم كالفقير الأَعـزلِ

انهضْ لُبَدُ ! هيهات ، صدَّك الأَبَدُ .

وإن العامة عهِدتني في صدر العُمر أستصحب شيئا من أساطير الأَولين فقالت : « عالم » والناطقُ بذلك هو الظالم . ورأَتْني مضطرا إلى القناعة فقالت : « زاهد» وأنا في طلب الدنيا جاهد . وزاد تقوُّل القوم عليَّ حتى خشيتُ أن أكون أحد الجُهال الذين ورد فيهم الحديث المأْثور : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الناس ، ولكن يقبض

العلم بموتِ العلماء . حتّى إذا لم يبق عالِم اتخذ الناسُ رءوساً جُهالاً ، فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » .

« ... وكيف يتأدى العلم إليَّ وأنا رجل ضرير ، وكفى من شرٍّ سماعُه ، ونشأتُ في بلدٍ لا عالم فيه ... ولم أكن صاحب ثروة فكيف الحُداءُ بغير بَعيرٍ والإنباضُ مع فقد التوتير ؟ فإن بلغ سيدي الشيخَ أن سارى الليلِ قبض على سُهيلٍ ، وأن الأرض أنبتت وشْياً وحريرا ، والسحاب أمطر مداما وعبيرا ، فهو أعلمُ بردّه على المبطلين ...

« لهفي على فواتِ هذه المنزلة ! ...

من لا يصلح لمجالسة النظراء فكيف يُنتدب للقاءِ السادات الكُبَراء ؟

لقد أسمعتَ لو ناديت حيّـــاً

ولكن لا حيـــاة لمن تنـــادي

« هل آمل من الله ثوابا ، وإنما أنا كقَتلى بدرٍ أسمع ولا أملك جوابا ؟ ولمثل هذه الرتبة سهر من أهل العلم الساهرون : « يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » .

« وعزيز الدولة يُعين الكسيرَ بالجبر ، فكيف يأمر بإخراج ميّتٍ من قبر ! ... »

****

لنا أن نقول إذن : إن عزلة أبي العلاء وإن لم تسلم له على النحو الذي أراد ، فإنه التزمها من ناحيته فلبث رهين محبسيه حتّى مات . وكان الناس هم الذين أصروا على أن يقتحموا عليه عزلته ، فشَغلوه وشُغلوا به ..

على كرهٍ منه ...

وكان أحيانا يضيق بزائريه ، وينكر أن يكون لديه مأربٌ لقاصدٍ أو مُنتَجَعٌ لرائد ، أو كما قال في اللزوميات :

يزورني القومُ ، هذا أرضُه يَمَنٌ
من البلاد وهذا دارُه الطبسُ
قالوا سمعنا حديثا عنك قلت لهم
لا يبعد الله إلا معشرا لبِسوا
يبغون مني مبنىً لست أُحسِنــه
فإن صدقتُ عرتْهم أوجُهٌ عُبُسُ
ماذا تريدون ؟ لا مالٌ تيسر لي
فيُستمــاح ولا علــمٌ فيُقتبس
أنا الشقي بأنّي لا أطيــق لكم
معونةً ، وصروفُ الدهرِ تَحتبِسُ

****

وطالما اشتهى الوحدة التامة ورأى فيها الراحة العظمى المرجوة لمثلِه في دنياه ، والطهارةَ من دنَس العصر ولؤم أهله :

هذا زمــان ليس في أهلـــه
إلا لأن تهجــره أهـــلُ
حان رحيــلُ النفس عن عالَم
ما هو إلا الغــدر والجهــلُ

****

في الوحدةِ الراحةُ العظمى فأَحْي بها
قلباً ، وفي الكونِ بين الناس إثقال

****

طهارةُ نفسي في التباعُد عنكم
وقربُكمُ يجني همومي وإدنــاسي

****

من لي بأني وحيــدٌ لا يصاحبني
حيٌّ سوى اللهِ ، لا جِنٌّ ولا إنسُ

****

بنو الوقتِ إن غرُّوك منهم بحكمةٍ
فما خلقها إلا غرائــزُ جُهَّــالِ
لذاك سجنتُ النفسَ حتى أرحتَها
من الإنس ما أخلاه ربع بــإخلال
إذا ما حللتُ الجدبَ فردا بلا أذى
فسقيا له من روضةٍ غير محــلال

****

وما باختياره كان يلقى زوَّاره .

ولا باختياره كذلك كان انسحابه من دنيا ، لم يخرج إليها برأس مالٍ ، وقرارٌ بالعزلة والانفراد . حمله عليه عجزُه عن احتمال نُكر العصر وفساد المجتمع . وإنه ليقول مع ذلك في اجتماعية الإنسان كلماتٍ جَرَتْ مجرى الأمثال ، كقوله :

النّاسُ للنّاس من بدوٍ وحاضرةٍ
بعضٌ لبعض ، وإن لم يشعروا خَدَمُ

****

ولـــو أنّي حُبِيتُ الخُلْــدَ فــردا
لمــا أَحببتُ بالْخلــد انفــرادا
فلا هطلتْ عــليَّ ولا بأَرضـــي
سحائــبُ ليس تنتظــم البــلادا

****

صَائِم الدهر

أنا صائم طول الحياة وإنما
فِطري الحِمامُ ، ويومَذاك أُعيِّدُ

****

ووجدتُ نفسَ الحرِّ تجعل كفَّه
صِفرا ، وتلزمه بما لا يلزمُ

أبو العلاء

(لزوم ما لا يلزم)

* * *

ذلك ما قد كان من أمره مع العزلة ،

فماذا عن تزهده وحرمانه من متع الحياة الدنيا ؟

كان أمرها – فيما يبدو – محتملا ، حيث استطاع أن يبقى على الحرمان ما عاش : لبث إلى آخر عمره لم يتزوج ، وأمضى نحو نصف

قرن « طعامه البقلُ ، ولباسُه خشن القطن ، وفراشُه سجادتُه : من لباد في الشتاء، وحصير البردي في الصيف » ...

أجمع على ذلك مؤرخوه بغير استثناء .

وشهدت به آثاره التي أملاها في طور عزلته .

وكان له إيرادٌ يسير يأتيه من وقفٍ له ؛ مقدارُه بضعة وعشرون دينارا في السنة، « يدفع نِصفَه أجراً لخادمٍ ووراّق ؛ ويقيم أودَه بالنصف الباقي » .

وعلى هذا النحو ، حدَّد إيرادَه ومصروفه ، في إحدى رسائله إلى داعي الدعاة .

فإذا ضاق هذا القدر الضئيل عن الوفاءِ بأدنى ضرورات العيش ، تخلَّى عما يطيق الاستغناءَ عنه منها ؛ وأبَى أن يلتمس زيادةً في رزقِه من أي سبيل .

أو كما قال في شيخوخته العالية . من رسالته الأُولى إلى داعي الدعاة :

« ولست أُريد في رزقي زيادة ، ولا أُوثر لسُقمي عيادة » .

وكما رفض في بغداد قبول ما عرضه عليه البغداديون من أموالهم عرضَ الجِد ، أبَى بعد عزلته أن يقبل عطاءً من أي مخلوق ، ولو كان أجراً على مُصَنَّف يُطلَب منه . وقد مرَّ من حديث « رهين المحبسين » خبرُه مع « الحاكم بأمر الله الفاطمي » حين أراد أن يحمله إلى مصر لما سمع من علمه « على أن يُسمَح له بخراج معرة النعمان طول حياته » فأبى واعتذر .

ويذكرون كذلك في تاريخه ، « أن المستنصر بالله الفاطمي صاحب مصر – ٤٢٧ هـ – بذل له ما ببيت المال في معرة النعمان ، فلم يقبل منه شيئاً »[1] .

****

وأبى أن يرجع عما ألزم به نفسه من امتناع عن أكل اللحم واللبن والبيض وإيذاء الحيوان ، وأصر على القناعة بما تنبت الأرض من بقلٍ ، على الرغم من إنكار مجتمع عصره لهذا المسلك ، واتخاذه ذريعة للطعن والتجريح والاتهام .

وتشهد الرسائل التي تبودلت بينه وبين المؤيَّد داعي الدعاة « أبي نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران العلوي » على ما أجهد أبا العلاء في شيخوخته من عُنف الخصومة على موقفه ، وعنَت الجدال فيه ، وعلى ما تكلف من مشقة وعناءٍ ، كي يبرر مسلكه .

كان أبو العلاء قد قال من قصيدته اللزومية :

غدوتَ مريض العقل والدين فالقَني
لتسمع أنباءَ الأُمور الصحائح
فلا تأْكلَنْ ما أخرج الماءُ ظالماً
ولا تبغ قوتاً من غريضِ الذبائح
ولا تفجعنَّ الطيرَ وهي غوافل
بما وضعتْ ، فالظلم شرُّ القبائح

---

(١) الإنصاف والتحري : ٥٦٥/ تعريف .

ودع ضَرَبَ النحل الذي بكرَتْ له

كواسبَ من أزهارِ نبـتٍ فوائح

فما أحرزتْه كـي يكون لغيرهـا

ولا جمعتْـه للنـدى والمنائـح

مسحتُ يدي من كـل هذا فليتني

أبهت لشأني قبـل شيب المسائح

****

ماذا ؟ هل نسي الشيخ أن الله تعالى أحل لعباده صيد البر والبحر ، وأحلّ زينة الحياة الدنيا والطيبات من الرزق ؟

كلا ، لم ينس ذلك قط ،

لكنه لم ينس كذلك الآية المحكمة ، خطابا للمصطفى عليه الصلاة والسلام :

وابتغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنس نصيبَكَ من الدنيا». ـ القصص ٧٧

المجتمع الإسلامي هو الذي أُنسِيَ بأوضاعه الفاسدة ، ابتغاء الدار الآخرة ،

بل أُنسِي كذلك ، فيما استحل من زينة الحياة الدنيا ومتاعها ، أن يميز بين حلال منها وحرام ، بين طيِّبات وخبائث ، فما عاد يُذكَّر إلا بأن الإسلام أحلَّ زينة الحياة الدنيا ، وأن الطيبات من الرزق لا تعني نقيض الخبائث ، وإنما تعني ما لذَّ وطاب !

وسيطر على الناس من استعبدتهم الشهوات ، فغدا المسلم منهم

مريض العقل بما غفل عنه من داء الشهوة المتلف ولعنة الترف الوبيل ، مريض الدين بما استباح من غير الطيبات من الرزق ، وما ضل عنه من ابتغاء الدار الآخرة .

وإذ اضطربت الموازين وضلّت السبُل ، وآلت زينة الحياة الدنيا إلى تهالك بشع على المُتَع الحسية وتناحر على التكاثر في الأموال والأولاد ، وضَرِيت أمراض الأثرة والحرص والطمع والنفاق والقسوة ، فماذا على الشاعر الشيخ وقد نجا بعقله ودينه من عبودية الشهوة وذل الطمع ولؤم النفاق ، إذا خطر له أن يوصي المَرْضى بمجاهدة شاقة ، سدّاً للذرائع ؟ وأن يندم على ما فات من عمره الأول ، حين كان يُقبل على الدنيا كما يقبل سائر الناس ، فلقي من أشر الشباب وجموح الرغبات ما أمرَضه وأضناه !؟ أوَلا يوصي الطبيبُ مَرضاه بالحِمية ؟

لكن عصره المريض الموبوء ، لم يكن بحيث يحمل أبيات الشاعر على هذا النحو اليسير القريب ، فما إن تناقلها الناسُ وبلغتْ مركز السلطة الحاكمة في مصر ، حتى تلقفها داعي دعاتهم ،ووجدها فرصة سانحة ليكف من غلواء هذا الشيخ الساكن في بلدة من إقليم الشام ، الخاضع للأُسرة الفاطمية بمصر ، وما فتئ يجهر بكلمات خطرة على النظم الحاكمة ، ويوشك بمسلكه العجيب أن يفتن الناس عما ألفوا من أوضاع .

وإذ قال الشاعر الشيخ في قصيدته :

غدوت مريض العقل والدين فالقَني

لتسمع أنبــاء الأُمــور الصحائح

فليكن داعي الدعاة ، ذلك المريض الذي يلتمس لدى طبيب العقل والدين ، البرء والشفاء !

وكتب إليه فيما التمس ...

وبدأ المتمارض ، بالعقل . فسأله عن العلة في تحريمه على نفسه أكل اللحم واللبن . « سؤال من يعرف أن القوة الإنسانية مستولية على الحيوان استيلاء الحيوان على النبات ، لرجحانها عليه بالنطق . فهي مسخَّرة له على أنواع من التسخير ، ولولا ذلك لكان موضوعُ الحيوان باطلا . فتجافِي الشيخ ، وفقه الله ، عن الانتفاع بما هو موضوعٌ له مخلوق لأجله ، إبطال لتركيب الخلقة » .

وانتقل إلى الدين ، فقال :

« ثم امتناعه من أكل الحيوان ليس يخلو القصد به من أحد أمرين :

إما أن تأخذه رأفة بها فلا يرى تناولها بالمكروه ، وما ينبغي أن يكون أرأف بها من خالقها . فإذا ادَّعى أن تحليلها وتحريمها إنما كان من بعض البشر ، يعني به أصحابَ الشرائع ، وأن الله لم يُبِح إراقة دم حيوانٍ وأكله ، كان الدليل على بطلان قوله : وقوع المشاهدة لجنس السباع وجوارح الطير التي خلقها اللهُ سبحانه على صيغةٍ لا تصلح إلا لِنَتْش اللحوم وفسخِها وتمزيق الحيوانات وأكلها . وإذا كان هذا الشكل قائمَ العين – المشاهدة – في الفِطرة ، كان جنس البشر وسيع العذر في أكل اللحوم ، وكان مَن أَحَلَّ لهم ذلك محقا .

« والثاني – من أمرين لا يخلو القصد من أحدهما – أنه يرى سفك دم الحيوان خارجا عن أوضاع الحِكمة ، وذلك اعتراضٌ منه على خالقه

الذي أوجده ... » .

هكذا ، خرجت القضية من مجاهدة صائم وتأملات شاعر ونصيحة حكيم مجرب إلى مجادلة كلامية في نظام الكون وترتيب الكائنات وحكمة الخالق !

وردَّ أبو العلاء ، محاولا أن يخرج الموضوع من هذا المجال الكلامي الذي أقحم عليه ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون تزهدا ورحمة :

« ... وقد علم الله أن سمعي ثقيل وبصري عن الإبصار نقيل . قُضِي عليَّ وأنا ابنُ أربعٍ لا أفرِّق بين البازلِ والربع . ثم توالت مِحَني فأشبه شخصي العودَ المحني ...

« وأما ما ذكره السيد الرئيس الأجل المؤيَّد في الدين ، فالعبدُ الضعيف العاجزُ يذكر له مما عَناه طَرَفا ، فأقول : إن الله جلَّت عظمته حكم عليَّ بالإزهاد فطفقت من العدم في جهاد . وأما قول العبدِ الضعيف العاجز :

* غدوت مريض العقل والدين فالقَني *

فإنما خاطب به من هو في غمرة الجهل ، لا مَن هو للرياسة عَلَمٌ وأصل . وقد عَلِمَ أن الحيوان كلَّه حساس يقع به الألم ... ولم يزل مَن يُنسَب إلى الدين يرغب في هجران اللحوم لأنها لم يوصَل إليها إلا بإيلام الحيوان ... وقد تردد في كلام العرب ما يلحق الوحشيةَ من الوجد والناقةَ إذا فقدت الفصيلَ . فقال قائلهم :

فما وجَدت كوجدي أمُّ سقبٍ
أضاعته فرجَّعت الحنينا

وعرض الشيخ لاختلاف العلماء في الشر والخير ، « وهذه عقدة

قد اجتهد المتكلمون في حلِّها فأعوزهم »

ثم قال :

« فلما بلغ العبدَ الضعيفَ العاجزَ اختلافُ الأقوال ـ في الشر والخير ـ وبلغ ثلاثين عاما ، سأل ربّه إنعاما . ورزقه صومَ الدهر فلم يفطر في السنة ولا الشهر إلا العيدين ، وصبر على توالي الجديدين . وظن اقتناعَه بالنبات يُثبت له جميلَ العافية .

« ومما حثني على ترك أكلِ اللحوم ، أن الذي لي في السنة نيف وعشرون دينارا ، فإذا أخذ خادمي بعض ما يجب ، بقي لي مالا يعجب ، فاقتصرت على فولٍ وبلسن ، وما لا يعذُب على الألسن ... ولست أُريد في رزقي زيادة ، ولا لسُقمي عيادة . والسلام » .

****

وطالت بينهما المكاتبة وطالت المجادلة .

حتى بدا لداعي الدعاة أن يُبطل حجتَه في الامتناع عن أكل اللحوم لفقره ، فكتب إليه :

وقد كاتبتُ مولاي تاج الأُمراء ـ ثمال بن صالح ، والى حلب للفاطمية ـ أن يتقدم بإزالة العِلة ، فيما هو بُلغةُ مثلِه من ألذ الطعام ، ومراعاته به على الإدرار والدوام ، ليكشف عنه غاشية هذه الضرورة ، ويجري في أمر معيشته على أحسن ما يكون من الصورة ... » .

ألذ الطعام ؟

ذلك ما فهموه من «طيبات الرزق» الحلال ، غير الخبائث !

وداعي الدعاة لا يعرضه على الشيخ في صورة اقتراح ، بل يُعلمه

بأن الأمر قد تقرر ، وصدرت به مكاتبة إلى والي حلب ، ليعيِّن لأبي العلاءِ « ما هو بلغة مثله من ألذ الطعام ، ويجري في أمر معيشته على أحسن ما يكون من الصورة » .

وإنه لَعلى يقينٍ أن بُلغة مثله كسرةُ خبز تقيم الأود ، وأن قصارى حاجته من المعيشة ، ثو ب من خشن القطن ، وسجادة من لباد أو حصير البردي .

هو إذن أمرٌ يراد أن يُحمل عليه أبو العلاء ، ممن يملك سلطة الأمر .

وردَّ أبو العلاء :

« ... وأما ما ذكره من المكاتبة في توسيع الرزق عليَّ ... فالعبدُ الضعيف العاجزُ ما له رغبة في التوسع ومعاودة الأطعمة ، وتركُها صار له عادةً وطبعا . وإنه ما أكل شيئا من حيوان ، خمسا وأربعين سنة :

والشيخ لا يترك عاداتِه

حتى يوارى في ثرى رمسِه »

ونص عبارته ، يحدد لتاريخ الرسالة خمسا وأربعين سنة ، منذ بدأ مجاهدته عام ٤٠٠ هـ .

أي أنه كان في نحو الخامسة والثمانين من عمره ، حين أجهِد بهذه الخصومة الكلامية .

ولم يقبل داعي الدعاة اعتذاره بالعادة والطبع ، بل ألح في مجادلته ليُعنته . وعاد أبو العلاء يحاول أن يرد القضية إلى وضعها الصحيح ، من حيث هي مجاهدة في الزهد والتعفف والرحمة ، مستشهداً بالمأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الأئمة الصالحين ، من القناعة بالقليل ،

وإيثار أهلِ الحاجة بما يفضل منهم . ثم قال لداعي الدعاة يرد على إعاته المريب :

« وقد عدل سيدنا الرئيس إلى الإيماء بأن من ترك أكل اللحم ذميم . ولو أُخذ بهذا المذهب لوجب على الإنسان ألا يصلي صلاة إلا ما افترِض عليه ، لأن ما زاد على ذلك أدَّاه إلى كلفة ، والله تبارك وتعالى لا يريد ذلك ! ولوجب أن الذي له مال كثير ، إذا أخرج عن الذهب رُبع العُشر — زكاةً — لا يَحسُن أن يزيد على ذلك ! وقد حُثَّ الناس على النفقات في غير موضع من الكتاب الأشرف » .

****

وإذا كان داعي الدعاة قد أفلح بتمارضه في جرِّ أبي العلاء إلى المناظرة ، وأعنته بجدله الماكر ، فقد أعياه أن يقنع الشيخ بالرجوع عن رأيه ومسلكه ، أصرَّ عليهما بقية عمره ، وأعلن هذا الإصرار جهرة في رسالته الرابعة إلى داعي الدعاة ، ابن موسى بن أبي عمران .

قال إنه : « قد رضي أن يلقَى الله جلَّت قدرتُه ، وهو لا يُطالب إلا بما فعل من اجتناب اللحوم . فإن وصل إلى هذه الرتبة فقد سَعِد .. » .

أجل ، يلقى الله بهذا ، ولا يلقاه بما أوغل فيه ناسٌ من شر وإثم وظلم وبغي ، وما اقترفوا من كبائر الفواحش . وإن أصناف الحيوان فيما قال : لأَولى بالرأفة ، وهي لم تشرب من الإثم بذَنوب ، ولم تجنِ ما يُكتب من الذنوب » .

****

ولقد جادله آخرون في هذا المسلك ، فأمسك عن المجادلة يأساً

من إقناعهم بأن مجاهدة النفس بالزهد والتعفف والرأفة ، ليست من الكبائر ! وأن الامتناع عن أكل لحم الحيوان ، لا ينبغي أن يُناقَش دينا ، ممن يستحلون أو يسكتون على أكل لحوم الناس وأعراضهم وأموالهم بالباطل ، وأن الامتناع عن شرب اللبن الحلال ، لا يجوز أن يحاسِب عليه باسم الإسلام ، مجتمعٌ غارق في دِنان الخمر والفجور ، عاكف على مجالس اللهو والطرب والشراب ...

كلا ، لم يتزحزح عن موقفه ، ولم يرجع عن قراره ، حتى النفس الأخير .

في الخبر أنه مرِض فجاءُوه بطبيب راعه هُزاله فوصف له لحم فروج غذاءً ، وأتَوه به فلمسه وقال :

« استضعفوك فوصفوك ! هلا وصفوا شِبلَ الأسد ؟ »

وأبى أن يذوقه ، وصدقت كلمته :

أنا صائم طـولَ الحياة وإنمـا

فِطري الحِمامُ ، ويومَذاك أُعَيِّـدُ



السِّرُّ المُذاع

وقال الفارسون : حليف زهدٍ
وأخطأَت الظنــون بما فرَسْنَه
ورُضتُ صعابَ آمالي فكانت
خيولا في مراتِــعها شَمَسْنَه
ولم أُعرض عن اللذات إلا
لأَن خِيارَها عني خنَسنــه
أبو العلاء
(لزوم ما لا يلزم)

***

لِمدىً ، نصفِ قرنٍ إلا قليلا . أَخذ أَبو العلاء نفسه بأَقسى ضروب الزهد وأشق التكاليف ، وراضها على احتمال ما فرَض عليها من حرمان صارم .

فهل كان ذلك عليه هينا ؟

كلا ! بل إنه كان يخوض مع بشريته معركة بالغة العنف والقسوة ، فإن يكن شق على نفسه بأقسى مما تطيق ، فقد لبث الى آخر العمر عاجزا عن أن يقهر في نفسه حبَّ الدنيا أو يرتاح بالسلو عنها واليأس منها !

قد يبدو هذا القول غريبا ، مع ما شاع فينا وذاع ، من أن الرجل « انتصر على الدنيا منذ قرر الانسحاب منها ، ووطئها بقدميه ، وقد انصرفت نفسه عنها » (١) .

وما ننكر أنه لم يكف عن ذمِّ الدنيا ولَعنِها ، لكنه كذلك لم يكتم الشكوى مما رسخ في نفسه من حُبِّها ، والأنين مما ظل يكابد من أشواق بشريته المكبوتة ، وحاجاته الغريزية المقهورة !

وحين انسحب منها إثر إيابه من بغداد ، لم يكن يبغي أكثر من الظفر براحة اليأس منها ، بعد أن عزت عليه راحة الأمل فيها .

ولم « يطأها بقدميه » كما زعموا :

وإنما اتجهت محاولته إلى قهر ما في فطرته من شغف بالدنيا ، بهذه الرياضة القاسية والمجاهدة الصارمة .

ولسنا نقول في هذا برأيٍ ، وما ينبغي لنا ، بل الكلمة فيه لأبي العلاء .

وقد قالها بصدق مثير وصراحة مؤثرة ، فيما ترك لنا من آثار

---

(١) ناقشت هذه القضية بمزيد تفصيل في الفصل الأول من « الغفران : دراسة نقدية » وفي « الحياة الانسانية عند أبي العلاء » . الكتابان نشرتهما دار المعارف بالقاهرة .

الشطر الثاني من حياته .

وظل يقولها إلى أن استراح بالموت من عذاب المكابدة !

فلنُصغ طويلا إليه وحده ، لعل صوته ينفذ إلى أعماق وجداننا فينسخ بصدقه ما رسبَ في هذه الأعماق من أقاويل عنه ، ويكشف لنا عن عالمه النفسي ، لنراه على حقيقته ، وراء الظلال التي مسخَتْه أو حجبته .

ولنبدأ معه (بالفصول والغايات) التي بدأ يُمليها إثر انسحابه من بغداد إلى محبسه بمعرة النعمان ، وفيها جؤارُ مَنْ حرقهُ الظمأُ ، ولهفة على راحة من اليأس لا تبدو قريبة المنال .

« إنما أنا رجلٌ بُلِيَ بالصدَى ، لا يجد أبدا موردا ، فهو ظمآنُ أبدا ! إن وَرَد غروفا وجده مضفوفا ، وإن صادف نزوعا أعوزته الآلةُ والمعين ... » (١)

« أيتها الدنيا البالية ، ما أحسن ما حلتْك الحالية ! والنفسُ عنكِ غيرُ سالية .. » .

« بي طبٌ فأين أستطب ، وأنا تحت حُبِّ الدنيا محِب ، أثقلني فأنا مُكِبٌ .. » (٢) .

« زُوِيتْ عني الدنيا فأسِفت ، وأشفقتُ لذلك وخفت ، وأحببت

---

(١) الصدى : أشد الظمأ لا يرتوي . الغروف : البئر قريبة المتناول والورد ، يغترف ماؤها في يسر . المضفوف : على ضفافه زحام الواردين .

النزوع : البئر الصعبة المورد ، ينزع ماؤها بأشد العسر .

(٢) طب : داء . أستطب : أطلب الطب وألتمس العلاج . محب : رازح .

لها وشنفت . ولو أنصفتُ لعِفْتُ ما أستوبله فما نثفت » [1]

« رضيت بالحضَضِ على مضضٍ »

« لا أكتمك – مولايَ – ما أنت به عليم : إن أسفي على الدنيا طويل »..

« أحِبّ الدنيا كأنها تحبني ، والغريزة عن الرشدِ تذبُّني ... »

« أحبُّ الدنيا وآلتُها ليستْ فيَّ ! وقد يئست من بلوغها واليأْس مريح ، فإلام التشوُّفُ والضلال ؟ » .

****

وقال في (اللزوميات) من شعر ما بعد الإياب من رحلة التحدي والمقاومة :

وصدقتُ هذا العيشَ في حـــي له

واغترني بخداعــه وكذابِــه

عذبٌ يعذبــني البقـــاءُ وللـــردى

يوم يخلص من فنـــون عذابـــه

****

نحنُ البريَّة أمسى كلُّنـــا دَنِفـــاً

بِحُب دنيـــاه حُبا فوق مـــا يجبُ

****

وكلكمُ يُبــدي لدنيـــاه بغضـــة

على أنه يخفي بهـــا كمدَ الصبٍّ

****

(١) أستوبله : أجده وبيلا .

لو أن عشقك للدنيا لــه شبــح
أَبديتَه ، لملأْتَ السهــلَ والجبَلا

****

شَقينا بدنيانــا على طــول ودِّها
فدونَك مارسْهــا حياتَك واشقَها
ولا تُبديَنَّ الزهــد فيها فكلنــا
شهيد بأَن القلب يُضمر عِشقَها

****

أَيها الدنيا لحــاكِ اللــــه من رَبَّةِ دَلٍّ
مــا تسلَّى خلدي عنــكِ وإن ظن التسلِّي

****

أُشرِبتُ حبَّك لا يَنفيه عن جسدي
سوى ثرىً لدماءِ الإِنس شرَّابِ

****

صحبتُ عيشاً أُعانيــه ويغلبــني
مثل الوليد يقود المصعبَ السدِمَا
وقد ملــلتُ زمانــاً شرُّه لهــبٌ
إذا دنا لخبوٍّ عــاد فاحتدمــا

****

تنازعــني إلى الشهــوات نفسي
فلا أَنــا منجح أَبــداً ولا هي !

****

أقمتُ برغمي ، ومـا طـائري
براضٍ إذا أَلِفَتْـه الوُكـون
ولي أمـل كأتـمٍ القَنـا
وحـالٌ كأقصـرِ سهم يكـون
****
إلـهَ الأنـام وربَّ الغمـام
لنا الفقرُ دونَـك والملـكُ لـكْ
إذا أنـا لم أَغْـنَ في لـذةٍ
أسفـتُ وضـاقَ علـيَّ الفَلَكْ
****
أبى القلبُ إلا أمَّ دَفرٍ كمـا أبـى
سوى أمِّ عمروٍ موجَعُ القلبِ هائمُ
هي المنتهى والمشتهى ، ومع السها
أمانيُّ منهـا دونهـن عظائـمُ
****
نفسي بهـا ونفوسُ القومِ مُلهجةٌ
ونحن نخبر أنّـا لا نباليهـا
أمرتَـني بسلوٍّ عـن خوادعِهـا
فانظر ، هل أنت مع السالين ساليها ؟
ولا ترى ، الدهرَ ، إلا مَن يهيم بها
طبْعاً ولكـنْ باللفـظِ قاليهـا

قد يقال إنه كابد هذا الشغفَ بالدنيا في مستهل عهده بالعزلة والحرمان . ثم برىء منه على تطاول الزمن .

لكن من أبيات اللزوم ، ما يشهد بأنه ظل يلوب حول الماء من ظمأ .

في الخمسين ، شكا ظمأه وجدبَ حياته :

علقت بحبلِ العيش خمسين حجة
فقد رثَّ حتى كاد ينصرم الحبل
وهل ينفع الطلُّ الذي هو نازل
بذات رمالٍ عندما جَحَدَ الوَبْلُ

وبعد أن جاوز الخمسين من عمره :

أسيرُ عن الدنيا وما أنا ذاكر
لها بسلامٍ إن أحداثَها خُمْس
صرورة ما حالين : ما لكعابِها
ولا الركن ، تقبيلٌ لديَّ ولا لمسُ
لعمري لقد جاوزت خمسين حجة
وحسبي عشر في الشدائد أو خمس
وأجهر حينا ثم أهمس تارة
وسيان عند الواحدِ الجهرُ والهمس

****

بلى لدينا من شعر اللزوميات كذلك ، شواهد على ما ظل يكابده في مشيبته من عجزٍ عن راحة اليأس وخمودِ اللهب في أعماقه . وقد نعله

أنه وإن أحس بوادر الشيخوخة في كيانه إبانَ رجولته قبل الإياب من بغداد ، فإن شيب شعره تأخر طويلا عن أوانه ، بشاهدٍ من صريح قوله في اللزوميات :

أيا مفرقي هلا ابيضضتَ على المدى
فما سرَّني أن بتَّ أسودَ حالكا
قبيح بفود الشيخ تشبيهُ لونه
بفود الفتى ، والله يعلم ذلكا

وكان يدنو من الستين ، حين أرسل يعتذر إلى صديق ببغداد كاتبه بعد عشرين حولا من إيابه ، فذكره بعهد مودتهما :

مُدَّ الزمانُ وأشوتني حوادثُه
حتى مللت وذمت نفسي العمرا
وحُلت كليٍّ سوى شيبٍ تجاوزني
ولم يُبيِّض على طول المدى الشعرا
جنيت ذنبا وألهى خاطري وسَنٌ
عشرين حولا ، فلما نُبِّه اعتذرا

****

فلنصغ إلى أنين عذابه من حب الدنيا ، ومقهور أشواقه ، بعد أن شاب في الشيخوخة العالية :

ولي أملٌ قد شِبتُ وهو مضاجعي
وساودني قبل السواد وما هَمَّا

****

لِأَمواهِ الشبيبـــة كيــف غِضنــه

وروضات الصبا كاليبس إضْنَه

وآمـــالُ النفــوس مُعلَّــلاتٌ

ولكـــن الحـــوادث ينتقضنه

فـــلا الأَيـــام تفرغ مـــن أذاة

ولا المهجات من عيشٍ غرضنه

****

بَلِيَ الحبلُ والغزالــةُ فــوق الأَر

ضِ لم يَبْلَ خيطُهـــا المغزولُ

وأنا العَوْدُ ، قلبُه أَضمـــر الشو

ق ، ولكـــن ظهـــرَه مجـــزولُ

****

تباركت يا ربَّ العُلا أنت صُغتَها

فليتَك في أرزائهـــا لم تُبـــارِكِ

أعانقها عنـــد الـــوداع تشبثـــا

وكيف وداع بيـــن قـــالٍ وفارِكِ

****

وحق ما قال : كيف وداع بين قالٍ وفارِك ؟

ذلك هو أعجب ما في أمره مع الدنيا .

قلاها ونفرت منه فاركا مبغضة ما أقبلت عليه قط . وأعياه مع قسوة مجاهدته أن يبرأ من دائها المقيم ، وأن يقهر ما في بشريته من

تعلق فطريٌ بهذه الدنيا على مرارة كأسها .

****

من مرحلة الشيخوخة أيضا ، جاءتنا (رسالة الغفران) .

أملاها حوالي سنة ٤٢٤ هـ وهو في الستين من عمره – بعد أن أمضى نحو ربع قرن في معركة – المجاهدة – ردًّا على رسالة تلقاها من « ابن القارح ، علي بن منصور الحلبي » وهو أديب معاصر لأبي العلاء ، وينسب إلى حلب بحكم مولده . على أنه نزح منها مطوفا بالآفاق يلتمس رزقه من حرفة الأدب . وقد انقطع حينا إلى خدمة « آل المغربي » بالقاهرة ، حين كانت لهم القيادةُ والرياسة والوزارة في الدولة الفاطمية ، وبقي في خدمتهم يصوغ فيهم مدائحه إلى أن غدر بهم « الحاكم بأمر الله » فعقَّهم ابن القارح وتسلط عليهم بأفحش الهجاء . وكان قد أسرف على نفسه « في الملذات البهيمية » فلما جاوز السبعين وهنت قواه واعتزم الإياب إلى حلب التماسا لراحة الاستقرار في شيخوخته العالية ، بعد أن طال طوافه بالبلاد وتنقله ببضاعته من الأدب ، من سيِّد إلى سيِّد . فبدا له أن يمهد لمقامه في حلب ، بالكتابة إلى أديبها الأكبر وعالمها الحكيم ، عن غير تعارف شخصي سابقٍ أو لقاء .

وطبيعي أن تعبر «رسالة الغفران» عن شخصية صاحبها . وأن تلائم في الوقت نفسه شخصية من كُتِبتْ له وأُرسلت إليه .

والشخصيتان على طرفي نقيض ، شكلا وجوهرا وحياة وخُلقا وسلوكا . بحيث شق علينا طويلا أن نميز في رسالة الغفران بين ما هو من ملامح شخصية أبي العلاء بكل نبله وعفته وحرمانه ومجاهدته ، وما هو

من ملامح شخصية ابن القارح ، بكل شهوانيته ونفاقه وزيفه .

في الغفران يُطل أبو العلاء من دنياه على أخراه ، ويطيل التأمل في عالم بعيد يلوح له في رؤياه ، مشحونا بهمومه وأشواقه ، وهواجسه ومخاوفه .

وعالَمه الآخر ، لا يمكن أن يكون في رؤياه ، إلا عالمَ أديب لغوي ناقد ، مقيد ضرير محروم :

فيه عقد ما شاء من مجالس الأدب ومواقف النقد . واصطفى مَن أَحَبَّ من شعراء ولغويين ، فلقَّن ابن القارح ما يريد أن يسألهم عنه أو يناقشهم فيه ويحاسبهم عليه . وإذ تعذر عليه أن يجد لبعضهم وسيلة إلى دخول جنته ، مضى بابن القارح في رحلة إلى جحيم الغفران ، ليلقاهم هنالك ...

وفي عالمه الآخر ، التمست أشواق بشريته تنفيسا وريا . والقيود التي شلَّت حركته نحو نصف قرن ، جعلته يحلم بكسرها والتحرر منها . فملأً جنته بالحركة والصوت والرقص والغناء . وقد تعنف الحركة فتصير عراكا وعربدة ، ويصخب الصوت فيصير صياحا ومنافرة وجلبة .

ومن أهل جنته من يخرج للنزهة والصيد والزيارة ، وفيها تقام المآدب الحافلة بأشهى الأطعمة وألذ الأشربة ...

وأبو العلاء الذي ملَّ السكون وتعب من الكبت ، هو الذي يريد لأهل عالمه الآخر أن ينفعلوا بالغضب والرضى ، والصد والإقبال .. وأن تجوز عليهم أهواءُ البشرية وأعراضها ، من تشوف وحنين وعجب ،

وغرور وعقوق وشماتة ، ونسيان وغفلة .

ولا شك عندنا في أن محنته هي التي اقترحت عليه « عملية التعويض » عن محن الدنيا ، في رؤيا عالمه الآخر : فليس يكفيه أن يصير الأعشى أحور ، والأعمى بصيرا ، والهرم شابا ، وإنما يُعوض الذي امتُحن في الدنيا بعاهة أو بلوى ، تعويضا لا يقترح مثله سوى ضرير مبتلى محروم : فأحدُّ أهل جنته بصرا ، هم الذين حُرموا نعمة البصر في الدنيا ، وأجملهم عيونا « عورانُ قيس » وأطيب نسائها نَشْرا امرأة كانت في الدنيا تدعى « حمدونة الحلبية » طلقها زوجها ، بائع السقط من المتاع ، لرائحةٍ كرهها من فمها . وأنصعهن بياضا أَمَة تدعى « توفيق السوداء » كانت تخدم في دار العلم ببغداد ...

****

أما إسرافه في حشد المتع الحسية وتشخيص الشهوات واللذات المادية ، فنُقدر أن شهوانية ابن القارح هي التي وجهت أبا العلاء إلى أن يتفنن له في حشد ما يعلم أنه يرضي مزاجه ويلائم هواه . (١)

غير أنا نقدر كذلك ، دلالة هذا التفنن والإسراف ، على نفسية المحروم وأثر القيود على وجدانه في صومه الطويل .

****

تلك هي رؤيا رهين المحبسين لعالمه النفسي الذي غيَّبه عنا رواج أقواله في ذم الدنيا . فنسينا أو أُنسِينا بها ما أفضى به من مكابدته

(١) هذه العقدة في المعادلة الصعبة بين شخصيّتي أبي العلاء وابن القارح ، تناولتها بمزيد بيان في مدخل « جديد في رسالة الغفران » نشر دار الكتاب العربي بيروت ١٩٧٢ .

لضغط بشريته المقهورة وأشواقه الفطرية الموءُودة ، لا في خواطر الرؤيا وهواجس الأحلام فحسب ، بل فيما جهر به من اعتراف بصريح اضطراره ، وما أذاع من مطويٍّ سِرِّه :

تحسر على امتناع الدنيا عليه .

ولم يكتم هذه الحسرة على عقم حياته وانقضابه بالحرمان من الولد . وإن حاول التسلي بأن هذا الحرمان يعفيه من أن يرزأ ولداً له بمثل ما ابتلي به من محنة الوجود ، أو يُفجَع فيه بعقوق ، وثكل : بصريح إقراره في اللزوميات :

إذا لم يكن خَلْفي كبيــرٌ يُضيعه
حمامي ، ولا طفلٌ ، ففيم حياتي !
وما العيش إلا عِلة برؤهــا الردى
فخلِّي سبيــلي أنصرف لطيــاتي

****

ألا فكَّرت قبل النسل في زمــنٍ
به حللتَ ، فتدري أين تلقيه !

****

لو أن بنيَّ أفضلُ أهــل عصري
لمــا آثرتُ أن أحظى بنسلِ
فكيف وقد علمــتُ بــأن مِثْــلي
خسيس لا يجيءُ بغيــر فسلِ

****

ومَن رُزق البنين فغيــر نـــاءٍ
بذلــك عن نوائــب مُسقِمــاتِ
فمِنْ ثُكــلٍ يُهاب ومــن عقــوق
وأرزاءٍ يجئــن مصممــاتِ
وإن تُعطَ الإنـــاثَ فــأي بــؤسٍ
تبين في وجــوه مقسمـــات
ودَفْنٌ والحــوادثُ فاجعـــاتٌ
لإحداهــن ، إحــدى المكرمات !

****

أرى ولَدَ الفــتى عبئــا عليـــه
لقــد سَعِدَ الــذي أضحى عقيما
فإمـــا أن يُربِّيَـــه عـــدوا
وإمـــا أن يُخلِّفَـــه يتيمـــا
وإمـــا أن يصادفــه حِمـــام
فيبقـــى حزنـــه أبـــداً مقيما

****

وصاح بالدنيا . من أعماق وجدانه الجريح وعالَمه المحترق بنار الظلام :

وأصبحتُ في الدنيا غبيننا مُرَزَّءاً
فأعفيتُ نسلي من أذاةٍ ومن غَبنِ

فإن تحكمي بالجورِ فـيَّ وفي أبي
فلن تحكميه في بناتي ولا في ابني
وأوقدتِ لي نارَ الظلام فلـم أجد
سَناكِ بطرفي ، بل سنانك في ضبني

****

وأذاع سره ، لم يكتمه ، معترفاً بأنه ما زهد في النساء عن طيب خاطر ، ومكذبا من قال إنه لا يتحسر على ما فاته منهن :

وإذا الفتى كره الغوانـي واتقى
مرضاً يعود ، وضرَّه ما يطعَمُ
فقد انطوت عنه الحياة . وكاذبٌ
من قال عنه : يبيت وهو مُنعَّم

****

أوَانيَ هــمٌّ فألقـى أوانـي
وقد مرَّ في الشرخ والعنفـوان
زوانيَ خوفُ المقـام الذمـيم
عن أن أكون خليـلَ الزواني
وعنـديَ سِرٌّ بـذيء الحديثِ
كَتَمتُ عنـه في العالَمين الغواني
إذا رَملـةٌ لـم تجئ بالنبـاتِ
فقد جهلتْ أنْ سقَتْهـا السواني

****

إني أُوارِي خُلَّتي فأُريهـمُ
رِيَّـاً ، وفي سِرِّ الفـؤاد أُوارُ

****

والمـرءُ ليس بزاهـدٍ في غـادةٍ
لكنـه يترقـب الإمكانـا

****

أُريد ليانَ العيش في دار شقـوة
وتـأْبى الليالي غيرَ بخـلٍ وليَّانِ
وما جبل الريان عندي بطائـل
ولا أنـا من خود الحسان بِرَيَّانِ

****

أَسير عن الدنيـا وما أنـا ذاكر
لها بسلام إن أحداثَها خُمْسُ
صرورة ما حالين : مـا لكعابها
ولا الركن . تقبيلٌ لديَّ ولا لَمسُ

****

خُمورُ الرِّيقِ لسنَ بكـلِّ حـالٍ
عـلى طُـلَّابهـن محرمـاتِ
ولكـن الأَوانس باعثـات
ركابَك في مهالـكَ مقتمـاتِ

****

أريــدُ الإنــاخــةَ في منـــزل
وقــد حُدِيَــتْ لسِواه جِمـــالي
فمَــن مُخبِرِي : أغريــقَ البحا
رِ ألقى الردى ، أم دفينَ الوصالِ
هويت انفراديَ كيمــا يخــفَّ
عمَّن أعــاشر ثقــلَ احتمالي
أمــا لــيَ فيمــا أرى راحــةٌ
مدى الدهر من هذيــان الأَمالي !

****

ألــم ترني حَمَيْت بنــات صدري
فمــا زوجتهُن وقــد عنسْنَـــه
وقــال الفارسون : حليــف زهدٍ
وأخطأَت الظنون بمـــا فَرَسْنَــه
ورُضتُ صعــابَ آمــالي فكانت
خيولا في مراتِعهــا شَمَسْنَــــه
ولم أُعــرض عن اللــــذاتِ إلَّا
لأَن خيارهــا عــني خَنَسْنَــهْ

****

أطارقَ هَمٌّ ضاف : هل أَنت عاذر
متى لم تجد لي عند مرتَحل طرقا

وأعوزني ماءٌ أزيــل به الصدى
فلا عيش إن لم أشرب الكدرَ الطرْقا
وحُبِّيَ للدنيــا كحبِّــك خالصا
وفي عنُقينا من هوىً جَعَلَتْ رِبْقَا

****

لُبْتُ حــول المــاءِ من ظمــأٍ
إن غَربي مــا لــه مَــرَسُ
مُهجــتي ضِــدٌّ يحــاربــني
أنا مني ، كيــف أحتــرسُ

. . . .

ماذا كان عساه أن يصرح بأكثر من هذا ، لنحس معاناته الباهظة لما كاشفنا به في (الفصول والغايات) حين بدأ صيامه الطويل ؟

« أحِب الدنيا وآلتُها ليست فيَّ . وقد يئست من بلوغها واليأس مريح . فإلام التشوف والضلال » ؟

« إنما أنا رجل بُلي بالصدى ، لا يجد أبدا موردا ... فهو ظمآن أبدا » .

إن تكن هذه الشواهد كلها ، ومثلها معها . من أحلام الشعراء ـ وقياسُ أبي العلاء بهم مع الفارق الكبير ـ فكيف لا تعبر الأحلام عن العالم النفسي لشاعرنا الذي ما عهدنا عليه كذبا قط ؟ (١)

---

(١) اكتفيت هنا بإيراد الشواهد من كلمات أبي العلاء الكاشفة عن سره ، دون أن أتجاوزها إلى تفسير ، على نحو ما فعل أستاذنا الخولي .

ثم ، أليست من هذا الوادي ، أقواله الأُخرى في ذم الدنيا ومقتها ، تلك الأقوال التي رُوِّجت فينا وجُعلت وحدها مناط الحكم عليه ؟

هنا يرد السؤال :

فيم إذن كانت أقواله في مقت الدنيا والشكوى من شرها ولؤمها؟

والجواب بنص كلماته :

لأنه تمنى ، وقد أعوزته آلتُها ، لو أنه استراح بالصد عنها وسكن إلى يأسه من بلوغها . فكان إسرافه في ذمها ، نوعا من الإلحاح في المجاهدة ، وحمل نفسه على الزهد فيما لا يُنال .

وأعياه مع ذلك أن يقهر ما رسخ في فطرته من تعلق بالدنيا وشغف بها ، فما استطاع أن يكتم ما يجد من لهاث الظمإ وحسيس النار المشبوبة في أعماقه . والأنين من مرض لا يبرأ وحب لا رجاءَ فيه ولا راحة منه :

أما وفؤادٍ بالغرام قريح
ودمعٍ بأنواع الهموم سريح

أَلَيْلى ، وكلٌّ أصبح ابنَ ملوح
ولبْنَى ، وما فينا سوى ابنِ ذريح

وليس لنا في مدة العيش راحة
فكيف بموتٍ من أذاكِ مريحِ

وتعقِدُ سلوانَ الفتى عنكِ نفسُه
بأذيالِ برق أو ذوائب ريحِ

وما زال في بلواكِ مذ يوم وضعِه
عليكِ ، إلى أن عاد رهنَ ضريح

طلبت شفاءً منكِ واهتجْتُ سائلا

بذاك أبـا سلمان وابنَ بَرِيح

* * * *

من هنا كان عذابه وكانت مجاهدته .

لم يجد مدى الدهر راحة من هذيان الأماني .

ولا ظفر براحة اليأس من دنيا أحبها وآلتها ليست فيه .

وبلغت به المكابدة أقسى مداها ، ففكر في الخلاص بالموت من محنة الوجود ، وحدد وسيلة هذا الخلاص بالإمساك عن الطعام والشراب ، لولا أن عزَّ عليه ذلك أيضا . وحال دونه الإشفاق من التبعة ، والرهبة من غوائل السبيل .

فذلك قوله في (الفصول والغايات) :

« لو أَمِنتُ التَّبِعة ، لجاز أن أُمسك عن الطعام والشراب حتى أخلص من ضنك الحياة . ولكني أرهب غوائل السبيل ... » .

وألحت عليه الفكرة ، فقال في اللزوميات :

لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة

مخشية لاعتراهـا الناس أفواجا

وكان كل من ألقت الدنيا عليه أذى

يؤمها تاركـا للـعيش أمواجا

كأْس المنية أولى بي وأروح لـي

من أن أُعالج إثراءً وإحواجـا

* * * *

وظلت تساوره ، لم تبرح خاطره ، وهو في الستين من عمره ، يملي من (رسالة الغفران) :

« قد كدتُ أَلحق برهط العدم ، من غير الأَسف ولا الندم ، ولكنما أخشى قدومي على الجبار....» .

وكم تمنى لو أن أحداً باعه حياته بميتة سهلة ، فيتخلى له عنها غير نادم :

من باعني بحياتي ميتة سرحـــا
بايعته ، وأهـــان اللهُ مَنْ ندمـــا

لكن أحدا لم يملك أن يعقد معه هذه الصفقة ، كما لم يملك هو لنفسه أن يريحها بالموت من ضنك الحياة ؛ فلم يبق له إلا أن يلوذ بالله ضارعا أن يعجل بخلاصه من الدنيا ، وإنه تعالى لمرجوٌّ أن يلطف به في الأُخرى ، بعد ما طال بلاؤه :

« حمدا لك إلهي ! لا أعلم وقتَ إسكانِك لي في دار البلاءِ ، وقد عشتُ فيها ما شئتَ وأَعيش فيها ما تشاء . وأنا شاكٍ إليك أثقالَ الزمن ، فإذا قضيتَ عنها الرحلةَ فأَعِنِّي على تلك الغُصَص والغمرات . فإني منها فَرِق ، وبي من الحياة ملل ... » .

« والطف مولاي بضعيفِك إذا اقترى ، ونزل في بطن الأَرضِ عن القرى . ضيفكَ ولكل ضيفٍ قِرى . ما أَجدرك بالرأْفة وما أحرى .. » .
(الفصول والغايات)

ويعلل نفسه بالأَمل المرجو في دنو يوم الخلاص فينشد :

إذا غدوتُ ببطن الأَرض مضطجعا
فثَم أفقد أوصابي وأمراضي

****

إذا طُفئت في الثرى أعين
فقد أَمِنَتْ من عَمىً أَو رمد !

. . . .

لكن انتظاره ليوم الخلاص يطول . ويطول معه تعبه وعذابه فيئن شاكيا :

إن يرحل الناس ولم أَرتحل
فعَنْ قضاءٍ لم يفوض إليّ
خُلِّفت من بعد رجالٍ مضوا
وذاك شرٌّ لي وشر عليّ

****

وما أَقسى أن يكون الموتُ أَملا للشاعر الذي عمق إحساسُه بمحنة الموت وجاءت مراثيه في أَهله وأَصحابه ، مرثية للإنسانية المقودة برغمها إلى البِلى والعفَن ، لا ينجيها من هذا المصير المحتوم عاصم ، ولا تدفعه عنها حيلة طبيب أو رقية راق أو دموع أَهل وتفجع أَحباب !

وأَستدرك فأَقول إن الخلاص بالموت لم يكن أَمَلاً لأَبي العلاء ، بل كان من هذيان أَمانيه . فمع إشفاقه من التبعة ورهبته غوائلَ السبيل ، كان التعلق الغريزي بالحياة ، يشده إليها بأَغلالٍ تكذب الأَمل في الخلاص منها بالموت ، وذلك ما عرفه أَبو العلاء من قديم دهره الأَول .

وقال وهو في الثانية والثلاثين من عمره ، يرثي أباه :

وجَدنـــا أذى الدنيـــا لذيذا كأنما
جَنى النحل أصنافُ الشقاء الذي تجني
فما رغبتْ في الموت كُدْرٌ مسيرُها
إلى الوِرد خمسٌ ثم يشربن من أجْنِ
يصادفن صقرا كــلَّ يوم وليلـــة
ويلقين شرا من مخالبه الحُجْـــنِ
ولا قلقاتُ الليل باتت كأنهـــا
من الأين والإدلاج بعضُ القَنا اللُّدْنِ
وخوفُ الردى آوى إلى الكهف أهلَه
وكلَّف نوحاً وابنـــه عمَـــلَ السفـــنِ
ومـــا استعذبته روح موسى وآدمٍ
وقد وُعِدا من بعده جنتي عَـــدْنِ

. . . .

فإن يكن عَجِبَ لهذا في دهره الأول ، وتساءل في مرثيته الدالية :

تعب كلهـــا الحيـــاة فمـــا أع
جبُ إلا من راغب في ازدياد

فقد استيقن رهين المحبسين من الجواب ، بعد أن طالت مجاهدته للدنيا ، وأضناه حمل نفسه على السلو عنها ؛ وعاد يتساءل في قنوط واستسلام :

مُهجتِـــي ضِـــدٌّ يحاربـــني أنـــا مني . كيف أحترسُ ؟

****

الأديب الحر

أعـاذِل قد ظلمتنـا الملو
كُ ، ونحن على ضعفِنا أظلَمُ

أبو العلاء

(لزوم ما لا يلزم)

* * *

لن نستطيع أن نقدر أبا العلاء حق قدره ، ما لم نتحرر من فكرة انتصاره على الدنيا وزهده النفسي فيها ، بمجرد أن أعلن انسحابه منها .

إذ لو صح القول بأنه « وطئها بقدميه فانقادت له » كما قرر الأستاذ عبد العزيز الميمني [1] « وملأ قلبَه عن لذاتها بالعزاء النافع والصبر الجميل » كما قال أستاذنا الدكتور طه حسين [2] ،

(١) في كتابه : (أبو العلاء وما إليه) .

(٢) في : (تجديد ذكرى أبي العلاء) .

أو لو صح الزعم بأن الزهد كان طبيعة فيه . على ما شاع فينا وذاع .

لما كان في سلوكه ما يغري بالوقوف عنده أو يحمل على شيء من تقديرٍ خاص . إذ ليس أهون عليه من حرمانٍ يستجيب لما في طبعه من زهدٍ فيما صدَّ عنه . وعزوفٍ عما امتنع منه ...

وإنما كان سلوكه موضع تقديرنا وإجلالنا . لأن الرجل استطاع مع حبه للدنيا وإقراره بالعجز عن السلو عنها ، أن يصبر على ذلك الحرمان الطويل الصارم . فقدَّم لنا مثلا فذاً لبسالة المجاهدة . وكشف عما يمكن أن تطيقه بشرية الإنسان من بطولة الاحتمال .

وإذا لم يكن قد أفلح في قهر حب الدنيا في نفسه ، فإنه قد استطاع أن يمضي في مجاهدته لها بإرادة عجيبة فذة ، وصمد للتجربة حتى آخر العمر . على قسوة ما كابد من أشواق بشريته المكبوتة . وما لقي من عنت خصومه وجدل مناظريه . وسخط مَن نقِموا عليه مخالفة الجماعة والخروج على سُنَنِها وأعرافِها .

وفي المبحث الذي مضى عن « مناخ العصر » ما يعطينا ملامح البيئة العامة التي عاش فيها أبو العلاء . وما وصلت إليه من فساد وشر . وقد اعتزلها ولكنها لم تعتزله . وانسحب منها لكنها شغلته وشُغِلت به . من ثَم ، لم يكن في طاقته أن يجمِّد إحساسه بشرور العصر ويعطل تفكيره في فساد المجتمع . وإنه لفي عزلته ، وبها ، مرهف الحس يقظ الوجدان طليق التأمل نافذ البصيرة .

كلا ، ولا كان بقادر على أن يلجم لسانه . وقد تحرر من قيود

الرغبة فيما لدى أي مخلوق . والرهبة من ذي سلطان . وهو ما باع الدنيا على حبه الغريزي لها ، إلا لكي يشتري كرامة نفسه وحرية تفكيره وصدق كلمته . فيجهر بما يكتمه غيره تقية ومداراة . ويصدع بالحق الذي يخونه سواه نفاقا ومراءاة .

وماذا عسى أن يفعل أو ينال منه . الذين يكشفهم سلوكه العملي . وتزعجهم كلمة حق يقولها احتجاجا ورفضا ؟

هل يحددون إقامته ؟

أو يمسكون عنه الرزق ويقطعون عنه صلة تأتيه من ذي جاه ؟

أو يؤذونه في عِرضه وبنيه ؟

لقد سد عليهم كل طريق :

حدد لنفسه الإقامة في محبسه لا يبرحه ما عاش .

وقنع من الرزق بما دون الكفاف لا يلتمس فيه زيادة عن إيراد الوقف الضئيل .

وليست له زوجة تثقله بعبء ومطلب أو تشغل باله بهمٍّ وفكر ...

ولا وَلد له يحمل همَّه ويجبن بسببه أو يخشى عليه أذى من متسلط ...

وإنه لنقيُّ العرض طاهر السلوك نظيف السيرة ، عفُّ اليد والجوارح والضمير .

فماذا بقي له عند الناس . وقد انسحب من السباق وتخلى لهم عن الدنيا وما فيها ؟

باعها أشد ما يكون شغفا بها ، واشترى شرفه وكرامته وأمانته ،

في عصر أذلَّ الحرصُ فيه أعناق الرجال .

ووجَد رسالته النبيلة في انتظاره : من يوم أن انسحب إلى محبسه احتجاجا عمليا على فساد البيئة وضلال المقاييس واختلال القيم . وتكليفا صعبا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فهو وحده ، ولا أحد سواه . مَن يجرؤ على أن يصدع جبروت الحُكام وطغيان الأُمراء والولاة وانحراف الساسة بمثل قوله :

مُــلَّ المقامُ فكــم أُعاشر أمــة
أَمرت بغير صــلاحهــا أُمراؤهــا
ظلموا الرعية واستجــازوا كيدها
وعدَوا مصالحها وهم أُجراؤهــا

****

لقد ساس أهلَ الأَرض قوم تفتقت
أُمورٌ فما ألفتْ لهــم يدَ راتِقِ

****

أمَــا لأَميرِ هــذا المصيــرِ عقــلٌ
يقيم عن الطريق ذوي النجــوم
فكم قطعوا السبيــل على ضعيف
ولم يُعفوا النساءَ من الهجــوم

****

يكفيكَ حزنا ذهــابُ الصالحين معا
ونحن بعدهُمُ في الأَرض قُطانُ

إن العراق وإن الشام منذ زمنٍ
صِفران ما بهما للمُلْك سلطان
ساس الأنامَ شياطين مسلطة
في كل مصرٍ من الوالين شيطانُ
مَن ليس يحفل خمصَ الناس كلهم
إن بات يشرب خمرا وهو مبطان
تشابه النَّجْرُ : فالروميُّ منطقه
كمنطق العُرب ، والطائيُّ مِرطانُ
متى يقوم إمامٌ يستقيد لنا
فتعرفَ العدلَ أجبالٌ وغيطانُ
صَلُّوا بحيث أردتم فالبلادُ أذى
كأنما كلها للإبل أعطانُ

****

أَلِفنا بلاد الشام إلفَ ولادةٍ
نلاقي بها سودَ الخطوب وحُمْرَها

. . . .

فإني أرى الآفاق دانت لظالم
يغر بغاياها ويشرب خمرها

****

كل الديار ذميم لا مقام به
وإن حللتَ ديار الوبْلِ و الرهمِ

إن الحجاز عن الخيرات محتجَزٌ
وما تهامة إلا معـدن التهـم
والشام شؤم وليس اليمن في يمـنٍ
ويثربُ الآن تثريب على الفِهم

****

بكـلِّ أرضٍ أميـرُ سـوءٍ
يضـرب للنـاسِ شرَّ سكَّهْ
قـد كثـر الغش واستعانـت
بـه الأشداءُ والأَرِكَّـه
فخلِّهـم والـذي أرادوا
وحُـلَّ بـالقدسِ أو بمكـه
صَكَّهـمُ الدهـرُ صـكَّ أعمى
تكتب أيـدي الفنـاء صكَّـه

****

يـا ربِّ أخرجني إلى دار الرضى
عجـلا فهـذا عالَـم منكـوسُ
ظلـوا كدائـرةٍ تحـوَّل بعضُهـا
من بعضِها . فجميعُهـا معكوس
وأرى ملوكـا لا تحـوط رعيـةً
فعلامَ تؤخذ جزيـةٌ ومُكـوسُ ؟

****

يسوسون الأُمور بغير عقل
فينفُذُ أمرُهم ويقال ساسَهْ
فأُفٍّ من الحياة وأُفٍّ مني
ومن زمنٍ رئاستهُ خَساسَه

****

ظلمُ مُستَضعَفٍ وأخذ مكوسٍ
وحياة في عالَمٍ منكوس

****

حكم الناسَ ولاةٌ مثلما
حكمت قبلُ حَصاةٌ وزلم

****

أيا واليَ المصر لا تَظلِمَنّ
فكم جاء مثلُك ثم انصرفْ
تواضعْ إذا ما رُزِقتَ العلاء
فذلك مما يزيد الشرف
وإن ألبس اللهُ ثوب الشفاء
فلا تؤثرنَّ عليه الترف
تغيض المياهُ وقد طالما
تيمَّمها واردٌ فاغترف
ومَن أمَّنَتْه خطوبُ المنونِ
تخوَّف من هرمٍ أو خرف

يقــارف مستكبرات الذنــوب
ويغفــل عن ذنبــه المقتــرفْ

****

قد أسرف الناس في الدعوى بجهلهمُ
حتى ادَّعوا أنهم للخلــق أربــاب
إلبابهُم كــان باللذات متصلا
طول الحياة ومــا للقــوم ألبابُ

****

لعمركَ ما في عالَم الأَرض زاهــدٌ
يقينــاً ولا الرهبانُ أهــلُ الصوامع
أرى أُمراءَ الناس يمسون شرهــم
إذا خطفوا خطــفَ البُزاةِ اللوامع
وفي كــل مصرٍ حاكمٌ فموفَّــق
وطــاغٍ يحابى في أخس المطامع
يجور فينفي المُلْــكَ عن مستحقه
فتسكب أسرابُ العيون الدوامع
ومن حوله قوم كــأَنَّ وجوههم
صَفاً لم يُلَيَّنْ بالغيوثِ الهوامع
عدولٌ لهم ظلــم الضعيف سجية
يُسمَّون أعرابَ القرى والجوامع

****

مَن سوى رهين المحبسين ، يجرؤ على أن يحقِرَ كبرياء الأرباب ويسفه غرورهم ويفضح للرعية زيفهم بمثل قوله :

ومن شرِّ البريــة ربُّ ملـــكٍ
يريد رعيــة أن يسجـدوا لــه

****

كذب الذي سَمَّى المملَّــكَ قاهرا
نحن الأذلـة والإلٰــهُ القاهــرُ
وكذاك يُدعى طـاهرا مَــن كلُّه
نجسٌ ، ويفقد في الأنــامِ الطاهرُ

****

تلقب مَلْكٌ قاهرا مــن سفاهــة
ولله مــولاه الممالــكُ والقهــرُ

****

لم أرْضَ رأيَ وُلاةٍ لَقَّبـــوا
مَلِكـاً بمقتــدرٍ وآخــرَ قــاهرا
هذي صفاتُ الله جــلَّ جلالُــه
فالحقْ بمن هجرَ الغواةَ مُظاهِرا
كم قائــم بعظــاته متفقّـــه
في الدين ، يوجَدُ حين يُكشَفُ عاهرا
وعلمتُ قلبَ المرءِ يغرق في هــوى
دنياه ، خــاب مكاتمـا ومجاهرا

****

يُسمون بالجهل عبدَ الرحيم

وعبدَ العزيز وعبدَ الصمدْ

وما بلغوا أن يكونوا لـه

عبيدا ، وذلك أقصى الأَمدْ

****

إذا مدحوا آدميًّا مدحـتُ مولى الموالي وربَّ الأُمم

وذاك الغنيُّ عن المادحيـن ولكنْ لنفسي عقدت الذمم

لـه سجَدَ الشامخ المشمخر م على ما بعرنينه من شَمَمْ

ومغفرة الله مرجوة إذا حُبِست أعظمي في الرمَمْ

مجاور قوم تمشي الفنا ءُ ما بين أقدامهم والقِمَمْ

رأيت بني الدهر في غفلةٍ وليست جهالتهم بالأَمَم

فنُسكُ أناس لضعف العقو لِ ونسك أُناسٍ لبُعد الهمم

. . . .

وإذ لا يفجر الحكام وحاشيتُهم ، وفي الأُمة حُرَّاسها الأَتقياءُ الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر .

فمن غير هذا الضرير يفتح بصيرة الرعية على نفاق الشعراء وزيف محترفي التدين والعلم ونفعية أَصحاب المذاهب :

فرقا شعرتُ بأنها لا تقتني خيرا ، وأن شرارها شعراؤها
وتجادلت فقهاؤها من حُبِّها وتقرأت لتنالها قراؤها

****

وما أَدَبَ الأقوامَ في كل بلدة إلى المَيْنِ إلا معشرٌ أدباءُ

****

قد حُجِب النور والضياء وإنما ديننا رياءُ
وهل يجود الحيا أناسا منطويا عنهمُ الحياءُ
يا عالَمَ السوءِ ما عَلِمنا أن مُصَلِّيكَ أتقياءُ

****

لا يكذبنَّ امروٌ جهول ما فيك لله أولياءُ
ويا بلادا مشى عليها أُولو افتقار وأغنياءُ
إذا قضى الله بالمخازي فكلُّ أهليكِ أشقياءُ

****

فُقِدت في أيامك العلماءُ وادلهمت عليهمُ الظلماءُ
وتَغَشَّى دهماءَنا الغيُّ لما عُطِّلت من وضوحها الدهماءُ
خلِّني يا أخي أستغفر اللـه فلم يبق فيَّ إلا الذماءُ
ويقال: الكرام قولا وما في الـ مِصْر إلا الشخوص والأسماءُ

****

رويدَكَ قدْ غررت وأنت حـر
بصاحب حيلة يعظ النساءَ

يحارب فيكمُ الصهباء صبحا
ويشربها على عمدٍ مساءَ
تحسَّاها فمن مزج وصرف
يُعَلُّ كأنما وَرَدَ الحساءَ
يقول لكم غدوتُ بلا كساءٍ
وفي لذاتها رهَنَ الكساءَ

****

يقولون في المصر العدولُ ، وإنما
حقيقة ما قالوا : العدولُ عن الحق

****

تستروا بأُمور في ديانتهم
وإنما دينهم دينُ الزناديق
نكذب العقل في تصديق كاذبهم
والعقل أولى بإكرام وتصديق

****

ما فيهمُ بَرٌّ ولا ناسك
إلا إلى نفع له يجذب
أفضلُ من أفضلهم صخرة
لا تظلم الناس ولا تكذب
لعل أُناسا في المحاريب خَوَّفوا
بآيٍ ، كناسٍ في المشارب أطربوا

****

تديَّـن غاويهـم حذارَ أميرهـم
فلما انقضت أيامه ، ذهب النسكَ

فأصبح من بعـد التمسك بالتقى
لأردانه من طيبِ فاجرةٍ مسك

وهل ينفع التمسيكَ والمسكُ تحته
خبيث نبيث والذي فوقه المسكُ

****

إذا رؤساءُ الناس أمُّـوا تنازعـوا
كئوسَ الأذى ، هل في الزجاجة عندمُ

ولم يرضهم شرب المدامـة أذهبت
حجى النفس ، إلا أن يمازجَها الدمُ

****

جهلتُ : أقاضي الريِّ أكثر مأثمـا
بما نصَّه ، أم شاعـر يتغـزل

وأعلم أن ابن المعلـم هــازل
بأصحابه ، والبـاقلانيّ أهـزلُ

وقارئكم يرجو بتطريبـه الغِـنى
فآض كمـا غنّى ليكسب زلزلُ

****

أرجئـوا أو اعتزلـوا فـإني
عـن مقامكـم بمعــزلِ

****

إنمـا هـذه المذاهـب أسبـا

ب لجلب الدنيـا إلى الرؤساءِ

غرض القوم متعـة لا يَرِقُّـون لدمع الشماءِ والخنساءِ

كالذي قام يجمـع الزنج بالبصـرة والقـرمطيِّ بـالأَحساءِ

. . . .

ثم ، من غير أبي العلاء ، يجرؤ على أن ينغص عيش الظالمين ويؤرق بال المترفين بمثل قوله :

خِف دعوةَ المظلوم فهـي سريعـة

طلعت فجـاءت بالعذاب النازل

عُزل الأَميرُ عـن البلاد وما لـه

إلا دعـاءُ ضعيفهـا من عـازِل

****

لا شيء في الجـو وآفـاقـه

أَصعَدُ مـن دعـوة مظلـوم

****

خاب الذي سار عن دنياه مرتحلا

وليس في كفِّه من دينـهِ طرفُ

لا خير للمـرء إلا خيـرُ آخـرة

يبقى عليه فـذاك العز والشرف

نرجو السلامة في العقبى وما حسنت

أعمالنا فيُرجَّـى الفـوزُ والغرفُ

ما بـــان قوم عن الأُولى بما جمعوا
من الحطـــام ولكن بالذي اقّرفوا
يَعرى الفقيرُ وبالدينـــار كسوتُه
وفي صوانك مـــا أعدادُه خرف !

****

والناس ضأن تساوت في غرائزها
يلقون بالأرض كفا كلما افترعوا
ويدّعي الرتبــةَ العليـــا أخسُّهـــمُ
فما يجاب لهم داعٍ إذا ضرعوا
وأدركوا بدعاويهـــم مدى زحل
من الرغام بما قاسوه أو ذرعوا

****

اتّقِ الواحـــد المهيـــــــمنَ فاللهُ أوّلُ
إن قومـــا لمـــا يكو ن حرامـــا تـأوّلوا
رغّبوا الناس في المحا لِ وراعوا وهوّلـــوا
ضربـــوا في البلاد عصـــــرا فطافوا وجوّلوا
خُوِّلـــوا نعمة فلـــم يشكروا ما تـخولوا
واستطالت على الورى عُصَبٌ ما تطوّلـــوا
طلب الناقـــد القليــــــلَ فمانوا وسولوا
ظلموا البائس الفقيـــــــر وأعطوا ونوّلـــوا
واستمالوا قلوب قو مٍ إلى أن تموّلوا

فانظروا الآن فيهمُ أي غولٍ تغوَّلوا

****

يُباين شكلٌ غيرَه في حياته
فإن هَلكا لم تُلْفِ بينهما فَرْقا
ومن يفتقد حال الزمان وأهلِه
يذم بهم غربا من الأرض أو شرقا
يجد قولهم مَيْنا وودَّهم قِلى
وخيرَهم شرا وصنعتَهم خرقا
وبِشرَهمُ خدعا وفقرَهم غِنى
وعِلمَهمُ جهلا وحِكمتَهم زرقا
إذا طلبوا أقصى العلا اتخذوا له
بصُمِّ العوالي في ترائبكم طُرْقَا
إذا كنتمُ أوراق أثلٍ زَهَوْا لكم
جَرَادَ نِبالٍ كي تبيدكمُ ورقا
هم الناس: أجبال شوامخ في الذرى
وأودية لا تبلغ الأكم والبرقا
فسكرانُ يُستَرقَى ويبدل بسلةً
وآخر صاحي اللب يُغضَب أن يرقى

****

عجبتُ وكم عجب في الزما
ن لرأي بني دهركَ الفائلِ

فمقتنا لمـا أورثوا مـن غــنى
ومـا وهبـوه من النائـل
فـلا تحلـنّ لهـم مِنَّـــةً
ولو بِـتّ في صـورة العائـلِ
ألـم ترنـي وجميـعَ الأنـا
م في دولـة الكـذب الذائـلِ

****

. . . .

أجل ، كان أبو العلاء وحده : هو الذي يستطيع أن يقول كلمة الحق في عصرٍ أخرست فيه السيوف والمطامع ، الألسنة والضمائر .

لقد تحرر بالمجاهدة من رغبة ورهبة ، لكنه لم يتحرر من تبعة الجهاد ، مقاومة للطغيان والفساد والنفعية ، والدفاع عن الجماهير التي أهدِرت حرمتها وأبى عليه ضميره أن يكون في أمته شيطانا أخرس :

فمالي لا أقـول ولـي لسـان   وقد نطق الزمـانُ بلا لسان
وبيعت بالفلوس لكـل خزي   وجوه كالدنانيـر الحسـان

****

الليـالي مغيـراتُ السجايـا   كم جعلن الزيفان شربَ عيوف
قد غدا القوم للنضار فنالـو
ه ، وبِتنا ومَـن لنا بالزيـوف
أو لا يبصر الفتى الذهب الأحـ
مر تُحذى به نعـالُ السيوف !

. . . .

***

وربما خامره اليأس من جدوى احتجاجه الجهير على فساد الأوضاع ونُكر العصر ، وأرقه التفكير في احتمال عقم الجهاد بالكلمة الصادقة الحرة ، وبالانسحاب من دنيا القوم رفضا للشر والمنكر ، لكنه لا يلبث أن يدرك عجزه عن الفرار من تبعة الانتماء إلى الجماعة التي تُسام الخسفَ والهوان ، فلا مفر من التزامه بأمانة قضاياها ، في عصرٍ لم يكن فيه مجالٌ للتداعي بحق الجماعة ، واحتمال تبعة التكليف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فعز الفرار وقد عم الفساد :

ماذا أفدتَ بأن أطلتَ تفكرا
فيها وقد أفنيت ليلَك ساهرا
وخمولُ ذكرك في الحياة سلامة
ودهاك مَن أمسى لذكرِك شاهرا
فتجنَّبَنْ متوافقين على الأذى
متخالفين بواطناً وظواهرا
وأخالُنا في البحر ليس بسالمٍ
منه الذي ركب الغوارب ماهرا
ملَكوا فما سلكوا سبيل الرشد بل
ملأُوا الديار ضوارباً ومزاهرا

****

وأين فراري من زماني وأهلِه
وقد غُصَّ شراً نَجدُه والتهائم !

كلا ، لا مفر إلا بأن يخون أمانة الكلمة وهيهات ! وهَبْه التمس

في البحر مهربا من الفساد الذي عمَّ البرَّ ، نجدَه والتهائم ، فأنّى له أن يفر من ضميره الحر ووجدانه المرهف ونفسه اللوامة ؟!

****

وإذا كانت الجماهير قد تبلد حِسُّها لطول ما أَلِفت من ظلم ، وفداحةِ ما تعرضت له من تغرير وتضليل وما تسلط على وجدانها من إلحاح في تبرير فساد الأوضاع وطغيان الحكام وضراوة الطبقية ، فإن أبا العلاء هو القادر على أن يُحس لها ما تغفل عنه ، المكلف من تلقاء نفسه اللوامة ، بأن يحدو مسراها في ليلها المدلهم ، ويؤرق غفلتَها وتبلدها لتؤثر الموت على أن تُمسخ آدميتها فتنحط إلى ما دون البهم والدواب ، وتعي مسئوليتها عن كل ما سِيمته من ضيم وهوان ، ومن خسف ومسخ :

لعل المــوت خيــر للبرايــا وإن خافوا الردى وتهيبوه
أطاعوا ذا الخــداع وصدقوه وكم نصح النصيح فكذبوه
وغيَّر بعضُهم أقوال بعــضٍ وأبطلت النهى ما أوجبــوه
فلا تفرح إذا رُجِّبــتَ فيهم فقد رفعوا الدنيء ورجَّبــوه
وبدَّل ظــاهرَ الإسلام رهــط أرادوا الطعنَ فيه وشذبــوه
وما يحدثْ فإنــا أهل عصر قليل في المعاشر منجبــوه
صحبنا دهرَنا دهــراً ، وقِدْماً رأى الفضلاءُ ألا يصحبوه
وغيظ به بنوه وغيــظ منهم فعــذَّب ساكنيه وعذبــوه
وهل تُرجَى الكرامةُ من أوانٍ وقد غلبَ الرجــالَ مُغلّبوه
وهل من وقتهم أبغى وأطغــى على أيِّ المذاهب قلّبوه !

أَجَلُّوا مُكْثِرا وتنصفوه وعابوا مَن أَقَلَّ وأنبوه

ولم يرضوا لما سكنوه شيدا إلى أن فضضوه وذهبوه

فإن يأكلهمُ أسفا وحقداً فقد أكل الغزالَ مُربِّبوه

رجوا ألا يخيب لهم دعاءٌ وكم سأل الفقيرُ فخيَّبوه

ألظوا بالقبيح فتابعوه ولو أمِروا به لتجنبوه

مضت أممٌ على شرخ الليالي إذا عمدوا لِعقد أرَّبوه

وكم تركوا لنا أثرا منيفا يعود بآيةٍ متأوِّبوه

لقد عمروا ، وأقسمت الرزايا لَبئس الرهطُ رهطٌ خرَّبوه

فإما عاش فيه حاسدوه وإما غاله مُتكسِّروه

وللأرَمَينِ خطب مستفيض بعوم بِلُجَّةٍ متعجبوه

ولو قدروا على إيوان كسرى لساموه الردى وتعقبوه

وقد مَنُّوا برزق اللهِ جهلا كأنهمُ لِباغٍ سبَّبوه

أُدِيلَ الشرُّ منكم فاحذروه ومات الخير فيكم فاندُبوه !

****

ويبلغ به الضيق بتبلد الجماهير أقسى المدى ، فيصب عليها من كلماته سوط عذابٍ من سخط وغضب ، ليحرمَها خَدَرَ التنويم ، ويصب في كأس ليلها قطراتٍ من مُرٍّ وعلقم ، لتفيق من سكر التضليل :

إن عذُب المَيْنُ بأفواهكم فإن صِدقي بفمي أعذبُ

طلبت للعالَم تهذيبَهم والناسُ ما صُفّوا ولا هُذِّبوا

****

اسكُتْ . وخلِّ مُضِلَّهــم وشئونه

ليسوقَهم بِعَصــاهُ أو بحسامــه

نُصِحوا فما قبلوا . وباعوا كنْكَتا

من شرٍّ معدنِــه بقيمــةِ سامِه

فكأنهـــا غنم تــرود إسامَهـــــا

مَن لا يبالي كيف حــالُ مسامِه

****

أما إذا دعا الداعــي لمكرُمــــة

فهم قليلٌ . ولكن في الأذى حُشُدُ

. . . .

ويقذف الجماهير بحُكمه الصارم :

أَعــاذلَ قــد ظلمْتَنــا الملــــو

كُ ونحنُ على ضعفِنا أظلَمُ

****



خصومة واتهام

وقد نطقوا مَيْناً على اللهِ وافتروا
فما لهمُ لا يفترون عليكا !
أبو العلاء
(لزوم ما لا يلزم)

***

هل كان من الممكن أن يدعه كل هؤلاء الخصوم ، يكشف عن غيِّهم وزيْفهم وضلالهم ؟

أوكان من المتصوَّر أن يُخلوا بينه وبين الجماهير المضَلَّلة ، يوقظ فيها الوعي ويمزق عن بصيرتها حجاب الغفلة ، ويُلهب وجدانها بالغضب والتمرد ؟

مثل أبي العلاء – إن كان له مِثل – مَن يُعدُّ في نظر عصره ، وكلّ عصر فاسد ، خارجا على المجتمع ، متمردا بسلوكه وكلمته على أوضاع

مقررة ونظم سائدة وأعرافٍ مألوفة وموازين مُرَسَّخة . وليس من طبيعة الأشياء أن يغفر المجتمع هذا الخروج المتحدي ، وأن يدع أبا العلاء يقول ما شاء ، دون أن يتصدى له بتحدٍّ مقابل ويفرض عليه عقوبة التمرد والعصيان ...

وإذ لا سبيل إلى زجره بحرمان أو إغرائه بعطاءٍ أو عقابِه بحبسٍ وجوع أو الانتقام منه في زوج وولد ، فإن في عقيدته مَنفذا إليه من حيث لم يحتسب !

مستغلين في ذلك ، العاطفةَ الدينية للجماهير .

وموقنين أنها ما تكاد تسمع عنه قالةَ سوءٍ تجرح عقيدته ، حتى تصد عنه وتنكره ، إن لم تلعنه وترجمه ، دون أن تتريث لتتحرى التهمة أو تميز حقا فيها من باطل !

وليس من الضروري أن يكون خصومه في العلَنِ هم الذين يتصدون جهرا لتجريحه . حسبهم أن تنطلق شائعة الاتهام لا يُعرف مصدرُها ، ليتطوع بترويجها الحشد الكاثر من المتدينين الغافلين السذَّج ، غضبا لدينهم . لا يتقون في ذلك ما حُجب عنهم من هَدْي الآية المحكمة :

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بِنَبإٍ فتبيَّنوا أن تُصيبوا قوماً بِجَهالةٍ فتُصبحوا على ما فعلتم نادمين » ـ الحجرات : ٦ .

وقلَّ مِن أحرار الفكرِ والكلمة ، مَن لم يُتهم في عقيدته . وأبو العلاء قد خالف بسلوكه جمهور المسلمين ، فحرَّم على نفسِه ما أحل الله من طيبات الرزق وزينة الحياة الدنيا ، وجهر بأقوال تنم عن حيرته ، ومنها ما يستطاع تأويله بما يستفز الجماهير . وجهر بأقوال أُخرى

صريحة التجريح لرجال الدين على اختلاف الملل :

فمن هنا يُمكن أن يُطعن !

وقد تلقى أبو العلاء الطعنة الجارحة في حياته ، وظلت تلاحقه بعد موته ...

وفيما مرَّ بنا من حديث رحلته إلى بغداد مدينة السلام ، كلام قيل عن مطاردةٍ من الفقهاء ، لبيتين قالهما في اليدِ . دِيتُها خمسمائة دينار ، وتُقطع في السرقة ولو كان المسروق ربعَ دينار :

يدٌ بخمسِ مئينٍ عسجدٍ وُدِيَتْ
ما بالهـا قُطِعت في ربع دينار

تحكُّمٌ ما لنـا إلا السكوتُ لـه
وأن نعوذ بمولانـا من النـار

وإذا كنا ترددنا في قبول حكاية المطاردة ، فما أنكرنا أن البيتين من شعره في (لزوم ما لا يلزم) .

ويلقانا البيتان في موقف الاتهام . من عصر أبي العلاء : ففي خبرٍ رواه « العيدروسي » في كتابه (النور السافر) أن الشريف الرضيَّ قال يرد على أبي العلاء :

صيانة النفس أغلتْها . وأرخَصَها
خيانة المال فانظر حكمة الباري

لكن هذا البيت الذي عزاه « العيدروسي» في كتابه . وهو في أخبار القرن العاشر . إلى الشريف الرضي المعاصر لأبي العلاء في أواخر القرن الرابع ، جاء في « الصفدي » في (الوافي بالوفيات) معزواً إلى « الشيخ

علَم الدين السخاوي » الذي ولد سنة ٥٥٨ هـ وتوفي سنة ٦٤٣ هـ ! [١]

****

ويروون من أخباره ، عن القاضي أبي يوسف عبد السلام القزويني ، قال :

« قال لي المعري : لم أهج أحداً قط . فقلت له : صدقتَ ، إلا الأنبياء عليهم السلام . فتغير لونه » .

وعن القاضي المنازي ، قال :

« اجتمعت بأبي العلاء بمعرة النعمان ، وقلت له : ما هذا الذي يُروى عنك ويُحكَى ؟

فقال : حسدني قوم فكذبوا عليّ وأساءُوا إليّ . فقلت له : على ماذا حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ؟

فقال : والآخرة أيها الشيخ ؟

وظل يكررها » [٢] .

ولقيه ثالث بالآية الكريمة :

« ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرةِ أعمى وأضلُّ سبيلا » — الإسراء : ٧٢ .

---

(١) بعد عصر أبي العلاء ، أورد « القفطي » بيته مع الشعر الذي يحتكم إليه « ليعلم ما يحكى عنه من إلحاده » .

وعلق « ياقوت الحموي » على البيتين ، بقوله في (إرشاد الأريب) :

« لأن المعري حمار لا يفقه شيئا ، وإلا فالمراد بين : لو كانت اليد لا تقطع إلا في سرقة خمسمائة دينار ، لكثر سرقة ما دونها طمعا في النجاة (من حد السرقة) . ولو كانت تفدى (تودى) بربع دينار ، لكثر من يقطعها ويؤدي ربع دينار دية . نعوذ بالله من الضلال» .

(٢) القفطي في (إنباه الرواة) والعباسي في (معاهد التنصيص) .

واحتمل أبو العلاء على مضض ، مفوِّضا أمره إلى خالقه سبحانه ، وموقنا أن مثل هذا البلاء ضريبة محتومة على من يتحدى العُرف العام ، فهيهات أن يسمح المجتمع لفردٍ أن يشذ عنه ويخرج عليه .

وهم بعدُ قد افتروا على خالقهم ،فأي عجب في أن يفتروا عليه . كما قال لنفسه :

وقد نطقوا مَيْنا على الله وافتروا

فما لهمُ لا يفترون عليكــا ؟

ولقد كانت صلابته في الزهد والتعفف والتقشف . مظنة أن تحميه من الظنة والريب . لكنها – ويا للعجب – اتُّخِذَت ذريعة للطعن عليه من حيث لا يحتسب :

فالعصر الذي هضَم الحقوق وأهدر الحرمات واقترف الكبائر . كان له في الموقف رأي آخر :

أَو لم يُحرم أبو العلاء على نفسه ما أَحلَّ الله من طيبات الرزق وزينة الحياة الدنيا ، ويقنع بما يستره ن خشن الثياب ، وما يقيم أَوَدَه من ميسور النبات ؟

يمكن إذن أن يُعد الزهدُ إثما . والقناعةُ خطيئة . والصومُ عن اللذاتِ معصية .

ومثل هذا سائغ ، متى ضلَّت المقاييس ،فهانت الكبائرالمحظورات ، على من ينكرون الزهدَ في متاع الدنيا والرغبة عن لذاتها :

لعمري لقد عزَّ المباح عليكـمُ

وهان بجهلٍ ، ما يُصانُ ويُحذَرُ

وقد مضى القول في تمارض داعي دُعاة الفاطميين ، ليحرج أبا العلاء على الملإ من الناس ، وكيف أعنته في شيخوخته العالية ، بخصومة مجهدة أخرجت القضية من نطاق السلوك الشخصي لزاهد متعفف ، إلى جدلٍ كلامي في حكمة الخالق ونظام الكون وترتيب الكائنات ومشكلة الخير والشر ...

ولعله أتعبه ، لكنه تعب منه دون أن يفلح في حمله على أن يتزحزح عن موقفه قيدَ شعرة ،

ومن قبل داعي الدعاة ، تعب مجادلو أبي العلاء وأتعبوه .

نقل « القفطي » في (إنباه الرواة) من حديث القاضي المنازي في حوار له مع أبي العلاء :

« قلت له : لم تمتنع من أكل اللحم ، ولم تلوم من يأكله ؟

فقال : رحمة للحيوان .

قلت : لا ، ولعمري بل تقول إنه من شَرَهِ الناس أنهم يجدون ما يأكلون ويتجزون به عن اللُّحمان ويتعوضون . فما تقول في السباع والجوارح التي خُلِقت لا غذاء لها غير اللحوم من الناس والبهائم والطير ، ودمائها وعظامها ، ولا طعام تعتاض به عنها ولا تتجزى به ، حتى لم يخلص من ذلك حشراتُ الأرض ؟ فإن كان الخالق لها الذي نقوله نحن ، فما أنت بأرأفَ منه بخلقه ولا أحكم منه في تدبيره . وإن كانت الطبائع المحدثة لذاك ، على مذهبك ، فما أنت بأحذق منها ولا أتقنَ صنعةً ولا أحكَمَ عملا حتى تُعطِّلَها ، ويكون رأيك وعملك وعقلُك أوفى منها وأرجح . وأنت من إيجادِها غير محسوس منها» . والمنازي ،

هو مَن نُقِلَ عنه قوله لأبي العلاء : « على ماذا حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة » ؟

لكن المنازي ، وداعي الدعاة من بعده ، لم يفلحا في هز إصراره العنيد على رفض دنياهم إنكارا لفساد الأوضاع ونُكر المجتمع ، « راضيا أن يلقى الله جلَّت قدرته ، وهو لا يُطالب إلا بما فعل من اجتناب اللحوم . فإن وصل إلى هذه الرتبة فقد سَعِد » .

بنص كلماته ، وهو في الخامسة والثمانين من عمره . من رسالته الأخيرة إلى داعي الدعاة .

****

وحاول آخرون ، عن رفق به أو حقد عليه ، أن يقنعوه بأن يعيش كما يعيش أهل العصر ، ويخضع لنظم الجماعة وأعرافها ، وهو يبدي العذر عن رفضه . أو قد يسكت على مضض وتعب ويأس دون أن يستجيب لما أرادوا له . وإن الأمر بينه وبينهم لكما أملى في رسالته إلى « الوزير الفلاحي » معتذرا عن عجزه عن الخروج من محبسه إلى حضرة « عزيز الدولة ، شجاع بن فاتك » والي حلبَ للفاطمية بمصر :

« وقد غدوت في قوم قيل فيهم :

« تلك أُمَّةٌ قد خلَت لها ما كسبتْ ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يعملون » .

****

وعَوَت الضباعُ في أثره ، تطارده حيث اختفى رهينَ محبسِهِ ،

وكأنها تعتفيه وتلتمس منه غذاءها :

قد استخفيتُ كالجسدِ الموارَى
ولكن الطوارق تختفيني
عفا أثري الزمانُ وما أغبَّت
ضباعٌ في المحلةِ تعتفيني

. . . .

على أن ما عاناه من ذلك كله ، كان أهوَنَ عليه مما آلمه وأضناه من افتراء المفترين : أساءُوا تأويل كلماته وحرفوها عن مواضِعها ، وزيَّفوا عليه ما لم يقله ، فأحوجوه - على ما يعلم من لؤم الناس - إلى أن يدافع عن نفسه بمثل ردِّه على « القاضي المنازي » حين سأله عما يُنسب إليه ويُروى عنه :

« حسدني قوم فكذبوا عليَّ وأساءُوا إليَّ » .

وعن « أبي اليسر المعري » قال :

« ان أبا العلاء كان يُرمى من أهل الحسد له ، بالتعطيل . ويعمل بعضهم على لسانه الأشعار يضمنونها أقاويلَ الملحدةِ قصداً لهلاكه وإيثارا لإتلاف نفسه ... »

كما أحوجوه إلى حرص بالغ على توثيق أشعاره وأماليه وسائر مصنفاته ، لتكون مرجعا وحكَما فيما يؤاخذ به أو يؤخذ عليه . ولم يحل ذلك التوثيق دون إيذائه بالتزوير عليه عمدا، مما اضطره إلى أن يملي (رسالة الضبعين) ويسيرها إلى أمير حلب « ثمال بن صالح » يشكو إليه فيها تحريف رجُلين لبعض شعره في (لزوم ما لا يلزم) قصداً إلى

إهلاكه . ويسأله أن يرجع فيه إلى نسخ موثقة من الديوان في حلب ، مكتوبة بخطوط ثقاتٍ من كُتابه الأُمناء الأتقياء ، قال :

«وفي حلب حماها الله ، نسخ من هذا الكتاب ، بخطوط قوم ثقاتٍ يُعرفون ببني هاشم ؛ أحرار نسكة ، أيديهم بحبل الورع متمسكة ؛ جرت عادتهُم أن ينسخوا ما أمليه . وإن أُحضرت – النسخ – ظهرت الحجةُ بما قلت فيه »[1] .

وكذلك استجاب لإلحاح أصدقائه وتلاميذه . فأملى كتابه (زجر النابح) شرحا لما أُسيء تأويله من شعره في (لزوم ما لا يلزم) وأبطل فيه – كما يقول ابن العديم – « طعنَ المُزرِي عليه والقادح ، وبيّن فيه عذره الصحيح وايمانه الصريح ، ووجه كلامه الفصيح . ثم أتبع ذلك بكتابٍ سماه (نجر الزجر) بيَّن فيه مَواضعَ طعنوا بها عليه بيانَ الفَجْرِ ، فلم يمنعهم زجرُه ، ولا اتضح لهم عُذرُه »[2] .

. . . .

****

وشاعت كلمة السوء فيه ، ومن شأنها أن تشيع فجُرِّح ببعضٍ ما قال مما قد يوهِم ظاهرُه ويشكل ، وبغيره مما لم يقل . وان أكثر مصنفاته لفي الزهد والعظات وتمجيد الله سبحانه وتعالى . وديوان (اللزوم) نفسه مليء بنجوى إيمانه الصادق ، وأناشيد ضراعته للخالق ، جل جلاله ...

---

(١) الإنصاف والتحري : ٥٢٧/ تعريف .
وقد صرح ابن العديم بأنه وقف على (رسالة الضبعين)

(٢) الإنصاف والتحري : ٤٨٥/ تعريف .

وشهد له الذين عرفوه عن قرب ، بنقاء العقيدة ورسوخ الإيمان . وفيهم من كان قد استراب في أمره ، تأثرا بشائعات السوء ، ثم بان له من حقيقته ما جعله يشهد له بصحة الدين وقوة اليقين .

نقل « السلفي » بإسنادٍ إلى القاضي « أبي المهذب عبد المنعم السروجي» قال :

« سمعت أخي القاضي أبا الفتح يقول :

« دخلت على أبي العلاء التنوخي بالمعرة ذات يوم في وقت خلوة ، بغير علم منه . وكنت أتردد إليه وأقرأ عليه . فسمعته وهو ينشد من قِيله :

كم بودرت غـادة كعـــاب ... وعُمِّـرتْ أمُّهـا العجـــوزُ
أحرزهـا الوالدان خوفـــا ... والقبرُ حـرز لهـا حريز
يجوز أن تبطـئَ المنايـــا ... والخُلدُ في الدهر لا يجوز [1]

ثم تأوه مرات وتلا قوله تعالى : « إنَّ في ذلك لآيةً لمنْ خاف عذاب الآخرةِ . ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ وذلك يومٌ مشهودٌ * وما نؤخِّره إلَّا لأجلٍ معدودٍ * يومَ يأتِ لا تَكَلَّمُ نفسٌ إلا بإذنه ، فمنهم شقِيٌّ وسَعيدٌ » [2] .

ثم صاح وبكى بكاءً شديدا ، وطرح وجهَه على الأرض زمانا . ثم رفع رأسَه ومسح وجهَه وقال : « سبحان مَن هذا كلامُه » فصبرتُ ساعةً ثم سلمت عليه فردَّ وقال : متى أتيت ؟ فقلت : الساعةَ. ثم قلت : أرى يا سيدَنا في وجهِكَ أثر غيظٍ . فقال : لا يا أبا الفتح ،

---

(١) الأبيات الثلاثة ، من شعر أبي العلاء في (ملقى السبيل) .

(٢) الآيات ١٠١ : ١٠٣ من سورة هود .

بل أَنشدتُ شيئا من كلام المخلوق وتلوتُ شيئا من كلامِ الخالق ، فلَحِقني ما ترى !

فتحققت صحةَ دينهِ وقوة يقينه » .

وما رواه « السلفي » بإسناد إلى القاضي السروجي ، ذكره « الذهبي » في (تاريخ الإسلام) وابنُ حجر في (لسان الميزان) .

وليس بعيدا عن قول أَبي العلاء في (رسالة الغفران) التي أملاها في نحو الستين من عمره :

« وأَجمع مُلحدٍ ومهندٍ ، وناكبٌ عن المحجة ومُقتدٍ ، أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه ، كتابٌ بهر بالإعجاز... ما حُذِي قط على مِثالٍ ولا أَشبهَ غريبَ الأَمثال . ما هو من القصيد الموزونِ ولا الرجزِ من سهلٍ وحَزونٍ ، ولا شاكَلَ خطابةَ العربِ ولا سجعَ الكهانِ ذوي الأَرب . وجاء كالشمس اللائحة ، نورا للمُسِرَّة والبائحة . لو فهِمَه الهضبُ الراكدُ لتصدَّع ...

« وتلك الأَمثالُ نضربُها للناسِ لعلهم يتفكرون » [1]

« وإن الآيةَ منه أو بعض الآية ، لَتعترضُ في أفصحِ كلِمٍ يقدر عليه المخلوقون ، فتكون فيه كالشهابِ المتلألىء في جُنح غَسَقٍ ، والزهرةِ البادية في جدوبٍ ذات نسق ، فتبارَكَ اللهُ أَحسَنُ الخالقين » [2] .

* * * *

(١) من آية الحشر ٢١ : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

(٢) (رسالة الغفران) : ٤٧٢ من طبعة الذخائر الخامسة .

وكانت بلبلة اضطرب لها الناسُ في أمرِه:

بين ما يعلمون من صلابته في الزهد والورع ويسمعون من أماليه وأشعاره في تمجيد الله وحده ، ومن شهادةِ من شهدوا له بصحة العقيدة وقوة اليقين ورسوخ الإيمان ،

وبين ما يشهدون من خروجه على الجماعة بالامتناع عما أحل اللهُ من طيبات الحياة الدنيا وزينتها ويسمعون من قدحٍ فيه وتجريح ...

أو كما قال داعي الدعاة ، في رسالته الثالثة إلى أبي العلاء :

« ... فلما رمَتْ بي المرامي إلى الشام ، سمعتُ أن الشيخ وفقه الله ، بفضل في الأدب والعلم قد اتفقت عليه الأقاويلُ ووضح به البرهانُ والدليل . ورأيتُ الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين وفي أمرِه متبلبلين ، فكلٌّ يذهب فيه مذهبا . وحضرتُ مجلسا جليلا أُجريَ فيه ذكرُه فقال الحاضرون فيه غثّاً وسمينا ... » .

وبعض هذه البلبلة ، يكفي لصدٍّ عامة الجماهير عن أبي العلاء ، يتكلم فلا يلقون إليه بالا ولا يفقهون له قولا ، إن لم يصرفوا أسماعهم عما يهذي به ، ومن دونه حجاب .

وهو ساهر في دجى الليل البهيم يترقب أن يلوح الغلس ، والصبح ناءٍ بعيد :

طالت على ساهرٍ دُجنّتُه
والصبحُ ناءٍ ، فمن لنا بِغَلَسْ

. . . .

* * * *

(٥)

نهاية المطاف
(تراث وآثار)

- ضجعة القبر
- في منطقة الظلـ
- انحسار الظلام

ضجعة القبر

هذا جناه أبي عليَّ وما جنيت على أحَدْ

أبو العلاء

(وصيته ، على قبره)

****

صمد للتجربة الصعبة الباسلة ، حتّى آخر العمر .

على قسوة ما كابد من أشواق بشريته المقهورة ، وما لقي من افتراء خصومه وعنَت مجادليه .

ولقد طال به العمرُ وناءَ بأثقال الشيخوخة :

سقطت أسنانه ، وانحنى ظهره ، ووهَنَ جسده وتخاذلت أعضاؤه ، فما عاد يستطيع النهوض إلا بمعونة سواه ، وعجز عن القيام للصلاة ، فإنما يصليها قاعدا ...

ونصغي إليه ، دليل رحلة ، إذ يقول في الخامسة والثمانين من

عمره ، من رسالة إلى داعي الدعاة :

« قُضِيَ عليَّ وأنا ابن أربع ، لا أُفرق بين البازل والربع . وتوالت مِحَني فأشبه شخصي العودَ المنحني . ومُنِيت في آخر عمري بالإقعاد ، وعداني عن النهضة عاد. ...

« ولو مثل – شخصي – بحضرتِه السامية ، لَعَلِمَ أنه لم يبق فيه بقيةٌ لأن يُسأل ولا أن يجيب لأن أعضاءه متخاذلة ، وقد عجز عن القيام للصلاة فإنما يُصلي قاعدا ، والله المستعان ...

« وإني لأعجز إذا اضطجعت عن القعود ، فربما استعنت بإنسان ، فإذا هم بإعانتي وبسط يديه لنهضتِي ، ضربتْ عظامي لأنهن عارياتٌ عن كسوة كانت عليهن ... » .

وكذلك ضعف سمعُه إلى جانب ما كان من عجزه عن البصر وعن القيام والقعود . فيقول من قصيدته في القاضي عبد الله ، ابن أخيه أبي المجد محمد :

حَمَدتُكَ في الحيــاةِ أتــمَّ حمدٍ
وأيــامي ذممــتُ أتــم ذم

أجدَّك مــا تركت وأنت قــاضٍ
تعهُّــدَ مُقعــدٍ أعمــى أصــم

والقصيدة قيلت بعد أن جاوز أبو العلاء الثمانين من عمره ، بشاهد من قوله : « وأنتَ قاضٍ » وقد كانت ولاية أبي محمد عبد الله ، ابن أبي المجد ، لقضاء المعرة ، سنة ٤٤٣ هـ ، كما نص على ذلك

« ابن العديم » مؤرخ حلب ، وآل سليمان .

****

وبقي له على وهن الشيخوخة وتخاذل الأعضاء ، صفاءُ ذهنه وتوقدُ قَريحته وقوةُ حافظته وضبطه ، وطاقته على الدرس والإملاء . فظل تلاميذه يقرأون عليه ويكتبون له ويأخذون عنه إلى قبيل وفاته .

بعد الثمانين من عمره ، كان « الخطيب التبريزي » يقرأ عليه كتاب (غريب الحديث لأبي عبيد) وعنه حكى وصنف (تهذيب غريب الحديث) فيما روى « ابن العديم » وجادةً ، بخطّ التبريزي :

« قال الخطيب التبريزي : وكنت قرأتُ هذا الكتابَ سنة خمس وأربعين وأربعمائة ، على أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري . قال : « قرأ علينا سنة خمسٍ وثمانين وثلاثمائة كتابَ غريب الحديث ، القاضي أبو عمرو عثمان بن عبد الله الكرجي . وذكر أنه سمعه من أبي عمير عدي بن عبد الباقي ، وسمعه عمير من علي بن عبد العزيز صاحب أبي عبيد » مصنف غريب الحديث .

هكذا حفظ المتن وضَبَط الإسناد ، منذ قرىءُ عليه (غريب الحديث) قبل ستين عاما ، من قراءة تلميذه الخطيب عليه الكتاب سنة خمس وأربعين وأربعمائة .

وفي الخامسة والثمانين من عمره ، أملى إجازته لأحد طلابه ، في رواية الجزء الثاني من مصنفه (ذكرى حبيب) ونص الإجازة :

« قال أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي ، من أهل معرة النعمان :

قَرَأَ عليَّ هذا الجزء ، وهو الجزء الثاني من الكتاب المعروف بـ (ذكرى حبيب) الشيخُ الفاضل أَبو الحسن يحيى بن محمد الرازي أَدام اللهُ عِزه ، من أَول الجزء إلى آخره . ووقع الاجتهاد مني في تصحيح النسخة . وكان ابتداؤه بقراءته ، لِسبعٍ بقين من شعبان سنة ست وأَربعين وأَربعمائة ، وفرغ من قراءته لثلاثٍ بقين من شهر ربيع الأَول سنة سبع وأَربعين وأَربعمائة . وأَجزت له أَن يرويه عني على حسَبِ ما قرأَه .

« ويشهد الله أَني معتذر إلى هذا القارىء – أَبي الحسن الرازي – من تقصيري فيما هو عليَّ مفترض من حقوقه . والاعترافُ بالمَعْجَزةِ يمنع من اللائمة المنجزة –

« وكتب الإِجازةَ جابرُ بن زيد بن عبد الواحد بن عبد الله بن سليمان ، بإِذن أَحمد بن عبد الله بن سليمان المعري ، في المحرم سنة ثمانٍ وأَربعين وأَربعمائة »[1] .

* * * *

وكذلك بقيت له قوةُ إرادته وصلابة زهده وبسالة مجاهدته :

كان يملي رسائله إلى داعي الدعاة ، وهو رازح تحت عبء الشيخوخة الواهنة . وقد احتمل ما أَلح به عليه الداعي من عنف الجدل ومكر الخصومة ، وصمد لوطأَة مناورته وشطط محاورته ، دون أَن يتزحزح عن موقفه في الامتناع عن أَكل اللحم ، والقناعة بما لديه من رزق ضئيل .

ومرض فلم يقبل أَن يذوق لحم فروج وصفه له الطبيبُ علاجا .

(١) الإجازه بنصها ، من (إنباه الرواة) للقفطي .

ولبث منذ بلغ الثلاثين من عمره ، صائم الدهر « فلم يفطر في السنة ولا الشهر إلا العيدين ، وصبر على توالي الجديدين » نصف قرنٍ طويل

ثم كان لذلك الليل الطويل آخر :

اعتل رهين المحبسين في أوائل شهر ربيع الأول من سنة ٤٤٩ هـ . وعاده الطبيب المشهور « ابن بطلان : أبو الحسن المختار » وكان ممن يتردد عليه للزيارة والسماع ، أثناء مقامه بديار الشام .

والراجح أن «ابن بطلان» هو الذي « وصف له كأساً من شراب أتاه به ابن أخيه : القاضي الأجل أبو محمد عبد الله ، فامتنع من شربه . فحلف القاضي أيمانا مؤكدة ، ليشرب ذلك القدح ، فاعتذر وهو ينشد :

أعبدَ اللهِ ، خيرٌ من حياتي وطولِ ذمائها ، موتٌ مريحُ

تعللني لتسقيني فذرني لعلي أستريح وتستريح »[1]

وأحاط به خاصة أهله الأقربين ، من بني إخوته وبني عمه . ومرَّ عليه يومٌ وثانٍ والعلةُ لا تفارقه ، فلما كان اليوم الثالث عرفوا أنها علة الموت .

كان قد سألهم ان يكتبوا عنه ، فتناولوا الدويَّ والأقلام وأرهفوا أسماعهم لما يقول ، فأملى عليهم غيرَ الصواب ، فنظر بعضهم إلى بعض وكأنهم يتساءلون عما به ، فما عهدوا عليه اختلالا في المنطق أو سهوا فيما يملي .

عندئذ ألقى ابن أخيه « القاضي أبو محمد » القلمَ من يده ، وأمسك دمعه وهو يهمس لمن حوله من الأهل في حسرة وكمد : « أحسَنَ اللهُ عزاءكم

(١) القفطي : إنباه الرواة / ترجمة أبي العلاء .

في الشيخ ، فإنه ميت » ...

ومات في غداةِ غدِه :

تاركا وصيته ، أن يكتبوا على قبره :

هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أَحَدْ .

ومسجلا بها في لحظة النهاية ، مأساة حياته وموقفه منها

. . . .

وشيعوه إلى مثواه الأخير ، فأضجعوه في لحده .

وعلى قبره وقف أربعة وثمانون شاعرا يرثونه ، [1] وهو مغيب تحت الثرى لا يسمع صوت محزونٍ عليه ولا يجيب نداءَ مفجوعٍ فيه ، ولا علك أن يرد هذا الجمع الحاشد إلى شيءٍ من التجلد والعزاء .

كان قريبا منهم أدنى القرب ، بعيدا أقصى البعد ، وتلميذه أبو الحسن علي بن همام يناديه معاتبا :

إن كنتَ لم ترق الدمــاءَ زهــادة

فلقد أرقتَ اليومَ من جفنَي دَمَا

. . . .

****

وأبو الرضى عبدالواحد بن الفرج المعري ، يندبه في حسرة والتياع :

سُمْر الرماح وبيضُ الهند تَشتورِ

في أخذ ثأُركَ والأَقــدار تعتــذر

(١) ياقوت : إرشاد الأريب / أبو العلاء .

والدهر فاقد أهل العلم قاطبــة

كأنهم بك في ذا القبــر قد قُبِروا

فهل ترى بــك دار العلم عالمــة

أنْ قد تزعزع منها الركنُ والحجرُ

العلمُ بعدك غمد فــات منصلــه

والفهم بعدك قوس ما لها وتَر

. . . .

****

والأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أبي حصينة المعري يبكيه ويبكي العلم والنهى والعفة والتقى والمكارم :

العلمُ بعد أبــي العلاء مُضيَّـــع

والأرض خالية الجوانــب بلقعُ

ما كنت أعلم وهو يودَع في الثرى

أن الثرى فيه الكواكبُ تــودَع

جبلٌ ظننت . وقد تزعزع ركنُه

أن الجبــال الراسيــات تزعــزع

وعجبتُ أن تَسَعَ المعــرةُ قبــره

ويضيق بطنُ الأرضِ عنه الأوسعُ

لو فاضت المهجــات يوم وفاتــه

ما استُكثرت فيه فكيف الأدمــع

نتصرم الدنيـا ويـأتي بعـده
أمم ، وأنـت بمثلـه لا تسمـع
رفض الحياة ومات قبـل مماتـه
متطوعـا بـأبـرٍّ مـا يُتطـوع
عين تَسَهَّـدُ للعفـاف وللتقـى
أبدا ، وقلب للمهيمن يخشع
جادت ثراك أبـا العلاء غمامـة
كندَى يديك ، ومزنة لا تقلع
ما ضيع الباكي عليـك دموعـه
إن الدموع على سواك تضيـع
قصدتك طـلابُ العلـوم ولا أرى
للعلم بابا بعد بابـك يقـرع
مات النهى وتعطلـت أسبابـه
وقضى التـأدبُ والمكارمُ أجمع

. . . .

ولمدى سبعة أيام ، أقام مقرئو المعرة على قبره . يتلون القرآن حتى أتموا مائة ختمة .

ثم انفض المأتم ،

واستراح المتعب ونام بعد طول أرق وسهاد .

ورجعُ الصدى يردد في وحشة المقابر :

لعمركَ ما آسى إذا مـا تحملـت
عن الجسم روحٌ كان يُدعَى لها رَبْعا
وما أسأل الأحياء بعدي زيـارة
ثلاثا لإيناس الدفيـن ولا سَبْعا



في منطقة الظل

لا تظلموا الموتى وإن طـال المـدى

إني أخاف عليكمُ أن تلتقوا

أبو العلاء

(لزوم ما لا يلزم)

****

« رفض الحياةَ ومات قبل مماته » كما قال راثيه ...

لكنه فرض نفسه على الحياة كما لم يفرضها أديب عربي سواه فيما أعرف ، وخاض معركته من وراء قبره ، ضد ضلال المقاييس واختلال القيم .

ومضى « مقطوع النسل مجتَثَّ الفرع » كما قال عن نفسه .

لكنه ترك تُراثه ، فعاش به كما لم يعش ذوو الكثرة والعدد من البنين والحفدة ...

منذ حُلَّت عنه تمائم صِباه ، انطلق في شبابه يشدو بأشعاره ومواجده ويودِعها أحلامه ورؤاه ... ثم لما اعتزل الدنيا رهين محبسيه . أمضى نصف قرن – وما أطوله – عاكفا على العبادة والتأمل والدرس والتصنيف والإملاء . ومن حوله الحشد الكثير من كُتابه وتلاميذه . يقرأون عليه ويدونون له . دواوينه ورسائله وأماليه ومصنفاته . لم يفلتوا منها ، على المدى الطويل . شيئا ذا بال . فما رحل عن الأرض إلا وهذا الحصاد السخيُّ لعمره الطويل الباذل . مدون موثق . قد أودَعه أسرار ذاته ونبض وجدانه وخفقات قلبه ، وأمانة ضميره وعقله ورسالة كلمته ...

ميراثاً للأجيال الخالفة من أمته . لعلها تجد فيه حداءَ مسرى ودعاءَ وعي ويقظة ...

ولم ينج تراثه من عوادي الزمن ومطاردة المحن وظلم الاضطهاد وبغي الافتراء ..

بعد قرن وبعض قرن من رحيله . لم يجد « القفطي » من ذلك التراث الجمِّ السخي إلا « خمسة وخمسين مصنفا . العددُ بتقريب . سوى ما لم يذكره : أربعة آلاف ومائة وعشرون كراسة » .

وقال في (الإنباه) :

« وأكثر كتب أبي العلاء هذه قد عدمت ، وإنما يوجد منها ما خرج عن المعرة قبل هجم الكفار عليها وقتل أهلِها ونهبِ ما وُجد لهم . فأما الكتب الكبار التي لم تخرج عن المعرة فعدمت . وإن وُجِدَ منها شيءٌ فإنما يوجد البعضُ من كل كتاب ... » .

وبدا « ياقوت الحموي » أسعد حظا . كان كُتبيا ، شهد إعصار

التتار يدمر معالم الحضارة الإسلامية في المشرق ويلقي بخزائن مكتبتها العربية وقودا للنار أو النهر . وقد دأب ياقوت على استقصاء ما أفلت من التدمير ، فبلغت عدة ما عرف من تراث أبي العلاء بإملائه : اثنين وسبعين مصنفا ، ذكرها بأسمائها في معجم أدبائه ، مع تعريف موجز ببعضها .

وبلغت فيما أحصى « ابن العديم » – ونعرف من شأنه ألا يذكر إلا ما رآه أو تحقق من وجوده – سبعة وستين مصنفا . أثبتها في (الإنصاف والتحري) مع مزيد توثيق لها وتعريف بها .

والثلاثة من أعلام القرنين السادس والسابع للهجرة ، لم يفصلهم عن أبي العلاء أكثر من قرنين . وقد نقلنا آنفا كلمة « القفطي » في أن أكثر كتب أبي العلاء قد عدمت ، لم ينج منها إلا ما خرج من المعرة قبل اجتياح الكفار لها . وصرح « ابن العديم » بأنه لا يعلم مقدار عشرين كتابا لأبي العلاء ، منها : (عظات السُّوَر ، سجع المضطرين ، إسعاف الصديق ، قاضي الحق ، تفسير أمثلة سيبويه وغريبها ، شرح خطبة أدب الكاتب ، فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ...)

كما صرح بأنه لم يقف على كتاب (خطبة الفصيح) ووقف على جزء واحد من كتاب (الأَيْك والغصون) ومقداره ألف ومائتا كراسة !

ونفهم من حديث « ابن العديم » في (الإنصاف والتحري) عن (الأيك والغصون) أنه لم يكن قد ضاع ، على قلة وجوده لكِبَره ، بل كان بعضه موقوفا في « خزانة كتب النظامية ببغداد » كما كانت

هناك نسخة منه كاملة في « خزائن المصريين » .

ولا نعلم مصير هذه النسخة المصرية ، بعد أن تتبع « ابن العديم » أثرها من القرن السادس ، حيث « صارت إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني – ت سنة ٥٩٦ هـ .– وانتقلت بعده إلى ولده القاضي الأشرف – ت سنة ٦٤٣ هـ – ثم صارت في جملة كتبه إلى خزانة الملك الصالح أيوب ... وأظنها في ستين مجلدا »[1]

وكذلك تاه في غيابة الزمن ، أكثر هذه الكتب التي ذكرها ياقوت ، وأثبتها القفطي ، ووقف عليها ابن العديم . وتُرك الباقي مدفونا في خزائن الكتب لمدى قرون ، لم يهتم أحد بنشره ، ولا عُنِي به الشراح والدارسون ممن عاشوا في الأقطار العربية على ذلك المدى الطويل ...

شغلهم عنه الكلام في عقيدة أبي العلاء ، وترديد أقوال للسالفين فيها ، ظلت تتناقل عبر الأجيال ، وكأنها وحدها ما ينبغي أن يُحفظ ويُتلى ويذاع ، وكأنْ لا تعلُّقَ بأبي العلاء إلا من حيث معتقده !

واختلفوا فيه كما اختلف مَن قبلهم :

منهم من أمسكوا عن الجزم باتهامه ، تحرجا . أو أُشكل عليهم أمره لكثرة ما قال في تمجيد الله تعالى وما ألف من مصنفات في المواعظ ، وما شاع وذاع من ورعه وتقواه وزهده . فاكتفوا بنقلِ أقوال من جَرَّحوه ، ومعها أقوال من شهدوا له بصدق الإيمان وقوة اليقين . ثم عقبوا على هذه وتلك ، بالكلمة الجليلة المأثورة : « واللهُ أعلمُ » .

وقذفه بعضهم بالزندقة والإلحاد وسقم الدين ، وقرنوه في قرن

(١) الإنصاف والتحري : ٥٢٨/ تعريف .

واحد ، مع اثنين من أشهر الزنادقة في الإسلام ، والله أعلم ! : أبي حيان التوحيدي ، وابن الراوندي [1] . وتقربوا إلى الله بلعنته ، وحكموا عليه بالخسران في الدنيا والآخرة ـ اللهُ أعلم .

يتوارثون ذلك خلفا عن سلف، ويتناقلونه تقليدا جيلاً في إثر جيل..

حتى رؤيا منام لمجهول من الناس ، ساقوها وثيقة اتهامٍ وقرارَ حكمٍ على أبي العلاء بسوء المصير ! وتتابع الإخباريون منهم يوردونها ناقلين ، في الكلام « عما تذاكر به متهموه من إلحاده » :

ففي القرن السادس للهجرة ، نقل «ابن الجوزي» عن ابن الصابي ، قال :

« ولما مات المعري رأى بعض الناس في منامه كأن أفعَيين على عاتقي رجلٍ ضرير ، قد تدليا إلى صدره ثم رفعا رأسيهما فهما ينهشان من لحمه وهو يستغيث . فقال ـ النائم ـ : من هذا ؟ فقيل : المعري الملحد ! »

وحكاها من بعد « ابن الجوزي » سبعة ممن ترجموا لأبي العلاء أو تناولوا مسألة اعتقاده ، من القفطي في القرن السابع ، إلى أبي الفتح العباسي في القرن العاشر !

لم يذكروا قط أن مثل هذه الأحلام ، تفسير لرأي « بعض الناس » في عقيدة أبي العلاء ، وتعبير عما رسخ في نفوسهم من شائعات ذائعات ، دون أن تتجاوز ذلك إلى حيث تقدم في القضية دليلَ اتهام بالإلحاد ، ومنطوقَ حكمٍ بما لا يعلمه إلا الله وحده من غيب الآخرة !

****

(١) كذا نقل « ابن الجوزي » في كتابيه (المنتظم ، وتلبيس إبليس) عن أبي الوفاء بن عقيل. ومثله في (مرآة الزمان) لسبط ابن الجوزي .

وظلموه ميتا كما ظلموه حيا .

تقولوا عليه بشعرٍ لم يرد في ديوانيه ، وقد تم تدوينهما في حياته ، وكتبهما من إملائه مباشرة ، كُتّابٌ له أمناءُ ثقات : (سقط الزند) ديوان شعره الأول ، قرىء عليه ببغداد . و (لزوم ما لا يلزم) تمّ توثيقه في حياته ، بشاهدٍ من قوله في (رسالة الضبعين) .

« وفي حلب حماها الله نسخ من هذا الكتاب ، بخطوط قوم ثقات يعرفون ببني أبي هاشم ، أحرار نسكة ، أيديهم بحبل الورع متمسكة ، جرت عادتهم أن ينسخوا ما أُمليه » .

وسدّاً لذرائع التزوير وسوء التأويل ، أملى : (ضوء السقط) شرحا لديوان سقط الزند و (الراحلة اللزوم ، وراحة ، وزجر النابح ، ونجر الزجر) شرحا لديوان اللزوميات وبيانا لما أُسيء فهمه من شعره أو أُسيء تأويله .

لكن هذا لم يمنع خصومه وحاسديه من وضع أشعار مريبة على لسانه ، ولم يحل بعد وفاته دون تناقل الإخباريين والنقاد أبيات شعر مزورة عليه ، يوردونها في أدلة الاتهام ، وليست هذه الأبيات في المرويّ من شعره !

يصدق هذا على كثير مما أورده « ياقوت » في معجمه تجريحا لأبي العلاء ، وما جاء به « القفطي » في (إنباه الرواة) « ليُعلَمَ ما يحكى عنهُ من إلحاده » . [1]

---

(١) لم أر وجها لإيراد هذه الأبيات المزورة المنحولة ، اكتفاء هنا بالإشارة إلى من تعلقوا بها في كتب التراجم والطبقات .

كالأبيات النونية والرائية في الحشر ، والقافيَّة في الاعتراض على تقسيم الأرزاق ، والبائية في الطعن في الرسُلِ عليهم السلام .

ولا بيت منها ، في المحقق من نسخ (سقط الزند) و(لزوم ما لا يلزم) ...

وينقل « سبط ابن الجوزي » في (مرآة الزمان) و « الذهبي » في (تاريخ الإسلام) و « الصفدي » في (نكت الهيمان) من هذه الأشعار المنحولة ما ينقلون ، ويضيف إليها الزمن أشعارا أخرى لم يذكرها يقوت والقفطي في نصوص الاتهام ، كالأبيات الرائية :

عجبتُ لكسرى وأشياعِه وغسلِ الوجوه بماءِ البقَرْ

. . . .

جاء بها « أبو الفداء » في تاريخه (المختصر) شاهدا على فساد عقيدة أبي العلاء ...

وليست كذلك فيما رُوِي من شعره في المحقق من ديوانيه الكبيرين .

وأكثر هذا الذي نسبوه إليه ، مما لم يُروَ في ديوانيه ، لا يثبت على الفحص النقدي ، فضلاً عن جهالة سنده . ومنه ما هو منسوب إلى غيره في مراجع أخرى .

مثل البيتين المشهورين في الاعتراض على مُقسِّم الأرزاق ، سبحانه :

إذا كان لا يَحظى برزقِكَ عاقـلٌ

وترزق مجنونـا وترزق أحمقـا

فلا ذنب يا رب السماء على امرئ

رأى منكَ ما لا يشتهي فتزندقا !

رواهما « ابن الجوزي » في (المنتظم) بين الأشعار المنسوبة إليه ، « الدالة على كفره » .

ونقلهما من بعده : القفطي وياقوت ، ثم سبط ابن الجوزي وابن كثير والعيني – وهؤلاء الثلاثة صرحوا بالنقل عن ابن الجوزي في المنتظم – ثم السبكي في (طبقات الشافعية) .

والبيتان مما لم يُروَ في ديوانه .

وهما منسوبان في (معاهد التنصيص ، للعباسي)[1] إلى « ابن الراوندي » ولعلهما به أشبه . وله في هذا المعنى بيتان آخران ذكرهما أبو العلاء – على مضض وسخط – في أشعار الزنادقة [2] :

قسَّمتَ بيــن الــورى رزقهم   قسمة سكرانَ بيَّــن الغلطِ
لو قسم الرزق هكــذا رجــلٌ   قُلنا له : قد جُنِنتَ فاستعطِ

وأملى أبو العلاء في (رسالة الغفران) ما نصه : [3]

« ولما أجلى عمرُ بن الخطاب أهلَ الذمة عن جزيرة العرب ، شقَّ ذلك على الجالين . فيقال إن رجلا من يهود خيبر يعرف بسمير بن أدكن ، قال في ذلك :

يصولُ أبو حفص علينــا بدِرَّةٍ
رويدَك إن المرء يطفــو ويرسُبُ
كأنك لم تتبع حمولــةَ ماقــطٍ
لتشبعَ إن الزاد شيءٌ محبَّــبُ

(١) ص ٧١ ط بولاق سنة ١٢٧٤ .
(٢) رسالة الغفران : ٤٩٥ ط الذخائر الخامسة .
(٣) رسالة الغفران : ٤٤٢ ط الذخائر الخامسة .

فلو كان موسى صادقا ما ظهرتمُ
علينا ، ولكنْ دولـةٌ ثم تذهب
ونحن سبقناكم إلى المَيْنِ فاعرفوا
لنا رُتبةَ البادي الذي هو أكذَبُ
مشيتم على آثارنا في طريقنـــا
وبُغيتكم في أن تسودوا وتكسبوا »

نقلها « ياقوت » في معجمه عن رسالة الغفران ، ثم عقب عليها بقوله : « وهذا يُشبه أن يكون شعرَه ، نَحله هذا اليهوديَّ . أو أن إيرادَه لمثل هذا ، واستلذاذَه بإنشادِ كفريات الزنادقة» .

ولم يقل « ياقوت » غفر الله له ، كلمة السلف الصالح المأثورة ... « والله أعلم » ،

وترك قالتَه تسير مع كتابه في الناس من بعده ، فأضاف إليها أستاذنا « الدكتور طه حسين » أن أبا العلاء اشتدَّ في لعنة الزنادقة مداراة لمستورٍ من عقيدته « ليُعلنَ أنه مسلم » !

وجاء مصنفو (تعريف القدماء بأبي العلاء) فوضعوا أمام أبيات اليهودي ، في فهرس القوافي : اسمَ أبي العلاء ! وكأن ما شُبِّه لياقوت وساقه على سبيل الظن والشك ، قد صار ثابتا ويقينا ! [1]

وسياق حبر إجلاء يهود عن جريره العرب ، وأبيات شاعرهم من يهود خيبر ، لا ينم في (رسالة الغفران) عن استلذاذٍ من قريب أو بعيد ، وإنما هو رد أبي العلاء على ما في (رسالة ابن القارح) من أخبار الزندقة وأشعار الزناديق .

(١) أنظر فهرس القوافي من (تعريف القدماء) صفحة ٦٦٥ ط دار الكتب بالقاهرة .

ولا نعلم في أبي العلاء شبهة رياء يدعوه إلى لعن الزنادقة تقيةً ومداراةً « ليعلم أنه مسلم » بل الذي نعلمه يقينا أن الرجل باع الدنيا ورضي أن يتعرض لأقسى الأذى والإعنات والإحراج ، ولا يتخلى عن أمانة مبادئه أو يفرِّط في صدق كلمته !

****

وإذ ساق الحديث إلى (رسالة الغفران) نشير إلى وضعها في قضية اتهام عقيدة أبي العلاء ، من حيث يقدمها متهموه وثيقة شاهدة على ما وصفوه بالتهكم على المعتقدات الإسلامية ، وحكمه على مصاير الشعراء في الآخرة ، بين الجنة والنار ، واستلذاذه بإنشاد كفريات الزنادقة ...

ورددت أقلام المُحدثين هذا الاتهام ، من قبل أن ينشر فينا نص الرسالة ويقرأ !

فإلى القرن الثاني عشر الهجري لم يكن المعروف عنها يتجاوز كلماتٍ قصارا ذكرها مصنفو الطبقات والمؤرخون في ترجمته . وقد اقتصر بعضهم على اسمها في ثبَتِ مصنفاته ، بين (رسائله الحسان الطوال التي تجري مجرى الكتب المصنفة) كالقفطي في (الإنباه) وسبط ابن الجوزي في (مرآة الزمان) .

وآخرون – كالصفدي في (الغيث المسجم) والكلاعي في (إحكام صنعة الكلام) – أشاروا إليها في سياق الاستدلال على « تمكن أبي العلاء من الأدب ، واطلاعه على اللغة » .

وذكرها « ياقوت » في معجمه شاهدا على « أمارات سوء عقيدته وقبح مذهبه » .

واقتصر « الذهبي » في (تاريخ الإسلام) على إشارة إلى « ما فيها من مزدكة واستخفاف » .

ثم في العصر الحديث ، مع اقتران ذكرها بالكوميديا الإلهية لدانتي ، أشار الدارسون الغربيون إلى ما يريبهم فيها من « مغفرة للشعراء الزنادقة ، في قصة جريئة خلط فيها الجد بالهزل ، وسخر من العقائد الإسلامية التي تتعلق بالحياة الآخرة » (١)

وردّ المستشرق الإنجليزي «نيكلسون» سمعتها السيئة ، إلى « ما لا يستطاع إنكاره من أن أبا العلاء صوّر جنة المؤمنين صالونا فخما عامرا ببوهيميين خالدين ، لكنهم غير خلقيين » (٢)

وتكلم آخرون منهم ، عما فيها « من تهكم خفي لاذع . وصبغة ساخرة لا دينية » (٣) .

على حين راب الدارسين العرب ، ما أورده فيها – بالقسم الثاني منها ، وفيه الرد على رسالة ابن القارح – من أخبار الملحدة وأشعار الزنادقة ، يأخذون فيها بقالة « ياقوت » في استلذاذ أبي العلاء بها ، لقبح مذهبه . أو برأي الأستاذ الدكتور طه حسين : « وكم ضحّى من زنادقة العباسيين بضحايا ليعلن أنه مسلم ، ولكن هذا الكيد كله لم يزد الناس إلا علما به » (٤) .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : أبو العلاء / الترجمة العربية .

(٢) J.R.A.S. 1902/77.

(٣) M.A. Placios : Islam and the Divine Comedy ed. London 1929/55.

(٤) تجديد ذكرى أبي العلاء : ١٣٣ ط المعارف وآدم ميتز : الحضارة العربية /١١/٢ الترجمة العربية للدكتور أبو ريده .

كل هذا ، من قبل أن نقرأ رسالة الغفران في نص محقق !

وسبق لي في دراستي للغفران – بعد تحقيقي لنصها – أن ناقشت كل هاتيك الدعاوي المرسلة التي لا يؤيدها شاهد من النص المحقق : ليس في جنة أبي العلاء أي شاعر ملحد أو زنديق ، بل شعراء من الصحابة ، ومن الذين لم تلحق بهم أدنى شبهة من تجريح . والجاهليون منهم ، قد سوغ الغفرانَ لهم أن كان الشاعر نصرانيا أو متحنفا قبل المبعث ، أو روي له شعر في رجاء الله وخشيته .

باستثناء « الأعشى » الذي احتال أبو العلاء على إدخاله جنة الغفران ، بأن استشفع له بخروجه يريد لقاءَ النبي صلى الله عليه وسلم . وإنشاده مدحتَه الدالية ، فصدَّته قريش وحبُّه للخمر – وقد حرَّم عليه أبو العلاء لذاك ، خمرَ جنته – كما ذكر له قصيدة من شعره الجاهلي . فيها إيمان بالله وتصديق بالبعث والحساب .

و « الحطيئة » الذي شفع له عن رقةِ دينه . صدقُه في بيتٍ قاله – وما أجلَّ موضع صدق الكلمة عند أبي العلاء ! – ومع جلال الصدقِ عنده ، لم يضعه مع الصفوة من الشعراءِ المؤمنين . بل نبذه في أطراف الجنة .

ولا يهون القول بأنه : « كم ضحى بالزنادقة » وكل شعراء جنته وجحيمه . من الجاهلية وصدر الإسلام . وليس معهم من الأمويين غير « الأخطل » ومن العباسيين غير « بشار » وكلاهما في الدرك الأسفل من جحيم الغفران .

وما أورده من خبر الزنادقة وأشعار الملحدة . لم يكن قط استلذاذا

بإنشاد كفرياتهم كما وهِمَ « ياقوت » ولا اشتد في لعنتهم مداراةً لمستور من عقيدته كما ذهب الأُستاذ الدكتور طه حسين ، بل كان يرد على ابن القارح في رسالته إليه [1] .

وأُضيف إلى هذا كله ، ما انتبهت إليه في كتابي (جديد في رسالة الغفران) [2] من أن الخطأً الأَكبر في كل ما قيل أو يقال في اتهام رسالة الغفرانبالجرأة والاستخفاف ، هو في أخذ العالم الآخر في الغفران ، على محمل تصوير الحياة الآخرة في عقيدتنا الإسلامية .

وما هو في الواقع إلا رؤيا فنية ، يُطل بها رهين المحبسين على جنته وجحيمه ، كما تمثلهما في تـأملاته وأحلامه ، وصاغته أمانيه وأشواقه ومخاوفه وهواجسه ، ومواجده ومواجعه . مع ما كان يُحسه من ظل شخصية ابن القارح ، على وجدانه ، وما يتردد في مسمعه من كلام هذا الرجل في رسالته إليه .

ومع اتقاءِ هذا الخطإِ الأَكبر ، يمكن في سهولة ويسر أن نرد الشبهات الواردة على الغفران . فالذي حشده لابن القارح من لذات مادية ، ليس مظنة اتهام . ولو عرضنا أجرأ ما في جنة الغفران من مشاهد اللذة الحسية ، على أقوال المفسرين في تـأْويل آيات نعيم الجنة ، لبدا لنا أبو العلاءِ غير مسرف ولا جامح الخيال . وما يغلب عليها من حِسٍ السخرية ، ليس سخرية بالمعتقدات الدينية ، وإنما السخرية كلها بابن

(١) تفصيل هذا كله ، في فصل (مادة الغفران) من كتابي (الغفران : دراسه نقدية) ط المعارف بالقاهرة .

(٢) نشر دار الكتاب العربي – بيروت ، ١٩٧٢ .
وما هنا ، إشارة موجزة لما تناولته في الكتاب بتوسع وبيان .

القارح ، والتهكم كله عليه .

وشبهة الجرأة على تقرير مصاير الشعراء في الغفران بين جنة وجحيم ، ينفيها أن أبا العلاء قد عقد الرحلة بابن القارح إلى عالمه الآخر ، ابتداء بمشيئة الله . وصرّح في حديثه عن زندقة بشار ، بقصد المشيئة العليا ، قال : « والله العالم بحقيقة الأمر . ولا أحكم عليه بأنه من أهل النار ، وإنما ذكرتُ ما ذكرت –من لقائه في الغفران– لأني عقدتُه بمشيئة الله ، وإن الله لحليم وهاب » (١)

وإذا كان فينا من يجد حَرَجا في تصوير أبي العلاء لعالمه الآخر ، فلنذكر أن تراثنا حافل بمرويات عن أحلام ورؤى للحياة الآخرة ، ولم نسمع أن أحدا أنكر هذا الاقتحام لعالم الغيب ، والجرأة على لقاء ناسٍ في جنة النعيم أو في نار الله الموقدة .

والقياس مع الفارق :

أصحاب الرؤى يرسلون الحديث عنها دون احتراز ، وكأنها تتعلق بالحياة الآخرة على حقيقتها الدينية .

وأبو العلاء يعرض رؤياه لعالمه الآخر ، وقد عقد فيها الأمر كله بمشيئة الله ، وصرح بأنه على وجه التمني والتصور ، إذ يقول وهو يمضي بابن القارح إلى الجنة ، في أول مشهد :

« وكأني به ، إذا استحق تلك الرتبة بيقين التوبة ، وقد اصطفى له ندامى من أدباء الفردوس ... » .

---

(١) رسالة الغفران : ٣١ ط خامسة ، ذخائر .

وانظر معها تفصيل ذلك كله ، في (جديد في رسالة الغفران) ط. دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٧٢ .

كيف لم نتق الله والضمير العلمي ، في أحكام نقولها أو نرددها اتهاما لعقيدة أبي العلاء ، في (رسالة الغفران) من قبل أن تُقرأ ، أو يُعرف لها نص موثق ؟!

***

وكذلك كان الأمر في (الفصول والغايات) :

في الترجمات المبكرة لأبي العلاء ، ورد اسم هذا الكتاب ، في ثبت مصنفاته ، دون تعليق .

وتلت عصور ، قدّمته إلى ملف الوثائق لقضية اتهام عقيدته ، وصدر به منطوق الحكم ، دون إيراد أي لفظ أو فقرة من نصه ، شاهدا ودليلا !

في القرن السابع ، كتب « القفطي » في (إنباه الرواة) ، ما نصه :

« وتحدثت الألسن بإساءته ، لكتابه الذي زعموا أنه عارض به القرآن ، وعنونه : (الفصول والغايات) محاذاةً للسوَر والآيات » .

فلم تلبث عبارة : « محاذاةً للسور والآيات » التي ذكرها القفطي وصفاً للكتاب ، أن زحزحت عن موضِعها من الإتباع الوصفي ، واقترنت باسم الكتاب حتى صارت شطرَ عنوانه :

(الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات)

على ما نقل « الذهبي » في (تاريخ الإسلام).

وجاء « البديعي » في كتابه (الصبح المنبي) بفقرات من الفصول والغايات ، مصدرة بالكلمة الغليظة :

« ومما جاء في قرآن أبي العلاء » !!

ونسيت أو تاهت شهادة المؤرخ المحقق « ابن العديم » الذي عرف الفصول والغايات وقال في (الإنصاف والتحري) : « وهو الكتاب الذي افتُري عليه بسببه ، وقيل إنه عارض به السور والآيات . تعدّياً عليه وظلما ، وإفكا به أقدموا عليه وإثما ، فإن الكتاب في تمجيد الله والعظات ، وليس من باب المعارضة في شيء » .

ثم نُشر الجزءُ الأول من (الفصول والغايات) وقرأناه في الجامعة ، دراسة ونقدا ، فإذا هو نجوى عابدٍ تقي ، وتسابيح مؤمن نقي ، وعِظات حكيم رائد لا يكذب أهلَه ، ومواجد صوفيٍّ هائم !

ولم ينج مع ذلك من أثر الافتراء ، ومطاردة الظلم !

سنة ١٩٤٤ ، بعد نحو ست ستين من نشره محققا ، وقراءتنا له في الجامعة درساً ، أخرجت مطبعة دار الكتب في القاهرة – وفيها نشِر الجزءُ المحقق منه – كتاب (تعريف القدماء بأبي العلاء) تحيةً من مصر في مهرجان ذكراه الألفية بحلب الشهباء .

وسامح الله مصنفيه :

أضافوا حرف « واو » بين اسم كتاب(الفصول والغايات)ووصفه . فيما نقلوا من خبر القفطي عنه في (إنباه الرواة) فجاء نصه في التعريف:

« ... وعنَونه : الفصول والغايات ، ومحاذاة السور والآيات » .

فتغير السياق تماما ، بهذه الواو المزيدة دون أي إشارة إلى وجه العدول عن رواية الأصل في (الإنباه) :

« ... وعنونه (الفصول والغايات) محاذاة السور والآيات » .

****

وقد مرَّ بنا مثَلٌ من اعتساف « ياقوت » في تأْويل ما جاء في (رسالة الغفران) من أَبياتٍ ليهودي من خيبر ، وارتيابه في أَن تكون من شعر أَبي العلاء ، نَحلَها ذلك اليهودي :

وجاءت الأَبيات في فهرس القوافي من هديتنا (تعريف القدماء) وأَمامها اسم أَبي العلاء !

ولم ينفرد « ياقوت » بمثل هذا الاعتساف في تأْويل كلام أَبي العلاء . بل لعله فيه كان أَقلَّ شططا وأَخفَّ وطأَة ، من « جار الله الزمخشري» في تفسيره (الكشاف) وليس مجال نظر في عقيدة أَبي العلاء ، ولا هو موضع لعنة التكفير ، والله أَعلمُ بعباده .

في تفسير الزمخشري لآيتي المرسَلات :

« إنها ترمـي بشرر كالقصر * كأَنـه جِمـالاتٌ صُفرٌ »

ذكر بيت أَبي العلاء ، في (سقط الزند) :

حمراء ساطعة الذوائِب في الدجى

ترمي بكـل شرارة كطراف .

ثم عقب عليه بما نصه :

« شبهها بالطراف ، وهو بيت الأَدم ، في العِظَم والحمرة ، وكأَنه قصد بخُبثِه أَن يزيد على تشبيه القرآن ، ولِتبجُّحِه بما سوَّل له من توهم الزيادة ، جاء في صدر بيته بقوله : « حمراء » توطئة لها ومناداة للسامعين على مكانها . ولقد عَمِيَ ، جمَع اللهُ له عَمَى الدارين ، عن قوله عز وجل : « كأَنه جمالات صفر » فإنه بمنزلة قوله : كبيتٍ أَحمر ؛ وعن أن في التشبيه بِالقَصْرِ ، وهو الحصن ، تشبيها له من جهتين :

من جهةِ العِظَمِ ومن جهةِ الطول في الهواء ؛ وفي التشبيه بالجِمالات ، وهي الجبال الضخمة ، تشبيه من ثلاث جهات : من جهة العِظم والطول والصُّفرة .

« فأبْعَدَ اللهُ إغرابَه في طِرافه ، وما نفخ به شدقيه من استطرافه ».[1]

فهل مثل ذاك التأويل المعتسف المشتط لبيت أبي العلاء مما يمكن أن يخطر على بال قارىء منصف تحرر من سيطرة فكرةٍ سبقت إليه بالاتهام ؟!

****

على المدى الطويل ، كان في الأُفق رجعُ صدى من صوت أبي العلاء ، يأتي من أعماق الظلام :

لا تظلموا الموتى وإن طال المـدى

إني أخاف عليكـمُ أن تلتقوا

فيهز الضمائر الحية لنفرٍ أتقياء من مؤرخيه ، ويدعوهم إلى مراجعة ما راج في الناس من أقاويل الزور وشائعات الافتراء ومقحمات التأويل.

منهم « القفطي » الذي ألح عليه النداءُ في اليقظة والمنام ، فسجل في (إنباه الرواة) شهادة اعتراف :

« كنت في سن الصبا ، وذلك في حدود سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، أقدحُ في اعتقادِ أبي العلاء ، لما أراه من ظواهرِ شعرِه ، وما يُنشد له في

---

(١) تفسير الكشاف : سورة المرسلات .

قابل ما هنا ، على ما مر في « خصومة واتهام » من خشوع أبي العلاء لجلال القرآن الكريم ، وكلامه في باهر إعجازه .

محافل الطلب . فرأيت ليلةً في النوم كأنني قد حصلت في مسجدٍ كبير ، في شرقيه صُفَّةٌ كبيرة ، وفي الصفة سلٌّ حصيرٍ مفروشٍ من غير نسج ، وعليه رجل مكفوف متوسط البياض... وهو مستقبل القبلة في جلسته . وإلى جانبه طفلٌ ، وكأني فهمتُ أنه قائدُه . وكأني واقف أسفلَ الصفة ومعي ناس قليل ، ونحن ننظر إليه وهو يتكلم بكلام لم أفهم منه شيئا . ثم قال في أثناء كلامه ، مخاطبا لي : ما الذي يحملك على الوقيعة في ديني ؟ وما يدريك لعل الله غَفَر لي ؟

« فخجلتُ من قوله وسألت عنه مَن إلى جانبي ، فقال لي أحدهم : هذا أبو العلاء المعري ...

« فابتسمت متعجبا للرؤيا ، واستغفرت اللهَ لي وله ، ولم أعُد إلى الكلام في حقِّه إلا بخير » .

ومنهم « ابن العديم » الذي استقصى أخبارَه وآثاره ، حين كان عاكفا على جمع مادته لتأريخ أعلام حلب إلى عصره . فهاله ما لحق أبا العلاء من ظلم فادح ، وما شاع عنه من افتراء باطل شوَّه صورته بغير حق.

وأرَّقه التفكير فيما تفرضه أمانة الحق على مؤرخ مثله ، من تصحيح الزيف الشائع ودفع الوهم المسيطر ، حتى ندب نفسه للقضية الصعبة : تفرغ لاستيعاب مصنفات أبي العلاء واستقراء كل المرويات عنه ، وسعى إلى لقاء كل الباقين من أُسرته وأهل بيته ، واستقصى روايات الذين لقوه وصحبوه وتتلمذوا له أو قرأوا عليه وكتبوا له ، يأخذها بإسنادٍ متصلٍ من ثقاتِ عصره إلى عصر أبي العلاء ، وبينهما نحو قرنٍ ونصف قرن .

ثم عكف طويلا على فحص ما استقصى وجمع من أخبار وأقوال ومرويات ، ينقدها سندا ومتنا ويقابل بعضها على بعض ، مستخلصا منها مادةَ (كتاب الإنصاف والتحري ، في دفع الظلم والتجري ، عن أبي العلاء المعريِ) .

وكتب يقدمه ، بعد حمدِ الله « الكريم العادل محق الحق ومبطل الباطل » على ما منحه من التوفيق وهداه به إلى سواء الطريق :

«... وبعد ، فإني وقفت على جملة من مصنفات عالم معرة النعمان ، أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان ، فوجدتها مشحونة بالفصاحة والبيان ، مودعةً فنونا من الفوائد الحسان ، محتوية على أنواع الآداب ، مشتملة من علوم العرب على الخالص واللباب . لا يجد الطامح فيها سقطة ولا يدرك الكاشح فيها غلطة . ولما كانت مختصة بهذه الأوصاف مميَّزة على غيرها عند أهل الإنصاف ، قصده جماعة لم يعوا وعيه ، وحسدوه إذ لم ينالوا سعيه . فتتبعوا كتبه على وجه الانتقاد ، ووجدوها خالية من الزيغ والفساد . فحين علموا سلامتها من العيب والشَّيْن ، سلكوا فيها معه مسلكَ الكذبِ والمين ، ورموه بالإلحاد والتعطيل والعدول عن سواءِ السبيل : فمنهم من وضع على لسانه أقوال الملحدة ، ومنهم من حمل كلامَه على غير المعنى الذي قصده ، فجعلوا محاسنه عيوبا وحسناته ذنوبا وعقلَه حُمقا وزهدَه فسقا ، ورشقوه بأليم السهام وأخرجوه عن الدين والإسلام ، وحرَّفوا كلِمَه عن مواضِعه وأوقعوه في غير مواقعه » .

والتفت « ابن العديم » إلى محنة أهل الفضل بالعصرِ :

« يطالبهم بتراتِه ويقصدهم بإساءته ، ويسلط عليهم من أبنائه

اعداء قصدوا أبا العلاء بالطعن والإساءة ، واللبيبُ مقصود ، والأديب عن بلوغ الغرض مصدود ، وكل ذي نعمةٍ محسود » .

كما لفَت إلى أن كتاب الله العزيز ،الذي لا يتقبل التبديل ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : « تأوَّله جماعة من أرباب باطل الأقاويل ، على غير وجوه التأويل . حتى إن جماعة من الكفار تمسكوا منه بآياتٍ جعلوها دليلا على ما ذهبوا إليه من الضلالات . فما ظنك بكلام رجلٍ من البشر ليس بمعصومٍ إن زلَّ أو عثر ؛ وقد تعمق في فصيح الكلام وأتى بما لا يتيسر لغيره ولا يرام ... إذا قصده بعضُ الحُسَّاد فحمل كلامه على غير المراد ؟ » .

« وقد وضع أبو العلاء كتابا وسمَه بزجر النابح : أبطل فيه طعنَ المزري عليه والقادح ، وبين فيه عذره الصحيح وإيمانه الصريح ووجه كلامه الفصيح . ثم أتبع ذلك بكتابٍ وسمَه بنَجرِ الزجر : بين فيه مواضعَ طعنوا بها عليه بيانَ الفجر . فلم يمنعهم زجره ولا اتضح لهم عذرُه ، بل تحقق عندهم كفرُه ؛ واجترئوا على ذلك وداموا ، وعنَّفوا مَن انتصر له ولاموا ؛ وقعدوا في أمره وقاموا...حتى حكوا كُفرَه بالأسانيد ، وكفَّره من جاء بعدهم بالتقليد .

« فابتدرتُ دونه مناضلا ، وانتصبتُ عنه مجادلا ... وذكرت في هذا الكتاب مولده ونسبه ، وتحصيله للعلم وطلبه ، ودينَه ومذهبه ، وورعَه الشديد وزهدَه ، واجتهاده القويَّ وجدَّه ، وطعنَ القادح فيه وردَّه ، ودفعَ الظلم عنه وصدَّه » .

****

وتحرج « أبو عبد الله شمس الدين الذهبي – ٦٧٣ : ٧٤٨ هـ » فقال بعد أن نقل في (تاريخ الإسلام) أقوال الذين اتهموا أبا العلاء ، والذين شهدوا له بالورع والتقوى والإيمان:

« وفي الجملة ، فكان من أهل الفضل الوافر والأدب الباهر والمعرفة بالنسب وأيام العرب ... وله في التوحيد وإثبات النبوة وما يحض على الزهد وإحياء طرق الفتوة والمروة ـ شعر كثير ـ والمُشكِل منه ، فله – على زعمه – تفسير » .

وقدَّم « ابن الوردي : ٧٤٩ هـ » كلمته في الجدل المثار حول امتناعه من أكل اللحم . فقال تعقيبا على مرثية تلميذه ابن همام :

« وقول تلميذه « لم تُرِق الدماء زهادة » يدفع قول من قال إنه لم يرق الدماء فلسفةً ، ونسبه إلى رأي الحكماء . وتلميذُه أعرفُ به ممن هو غريب يرجمه بالغيب . وماذا على مَن ترك اللحمَ ، وهو من أعظم الشهوات ، خمساً وأربعين سنة زهادةً ؟ وقد قال « المكيُّ » في (قوت القلوب) : « إباحة حلالِ الدنيا حسنٌ ، والزهدُ فيه أحسن » ولما أتَى رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم – أهلُ قباء بشربةٍ من لبنٍ مشوبة بعَسلٍ ، وضع القدح من يده وقال : « أما إني لست أُحرمه ، ولكني أتركه تواضعا لله تعالى » وأُتي عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه بشربةٍ من ماء باردٍ وعسَل في يوم صائف ، فقال : « اعزلوا عني حسابها » وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التنعم . وكتُبُ الرقائق وغيرُها مشحونة بتركِ السلفِ الصالح للشهوات والملذاتِ الفانية ، رغبةً في النعيم الباقي » .

ثم نقل « ابن الوردي » مرثية الأمير أبي الفتح المعري لأبي العلاء ،

وعقب عليها بقوله :

« فانظر إلى ما رثاه أيضا به هذا الرجل ، ووصَفَه به من تُقاه ورفضِه للحياة وموته قبل الموت وتطوعه . وهو أيضا أعلمُ به من الأجانب. وبالجملة فقد ألَّف الصاحب كمال الدين « ابن العديم » رحمه الله ، في مناقبه كتابا سماه : (كتاب العدل ـ الإنصاف ـ والتحري في دفع الظلم والتَجري عن أبي العلاء المعري) وقال فيه : إنه اعتبر مَن ذمَّ أبا العلاء ومن مَدَحه ، فوجد كلَّ من ذمَّه لم يره ولا صحبه . ووجد كلَّ مَن لقيه هو المادح له . وهذا دليل لما قلتُه .

... وصنَّف بعض الأعلام في مناقبه كتابا وسماه : (دفع المعرة عن شيخ المعرة) .

« وفي هذين الكتابين ـ الإنصاف والتحري ، ودفع المعرة ـ فصولٌ من نوادر ذكائه وإجابة دعائه ، والاعتذار عن طعن أعدائه ... »

****

وعجب « ابن فضل الله العُمَري » ت ٧٤٩ هـ ، لما لحق أبا العلاء من ظلم وافتراء ، مع ورعه وزهده ، فقال في (مسالك الأبصار) :

« رفض الدنيا وما سَلِمَ ، وتداوى باليأْس من مطامعها وداری الناسَ بتركِ حظه لهم ، ومع هذا ظُلِمَ . نفض يديه من الدنيا وساكنها ، وخفض لديه قدر محاسنها ، وأخذ نفسَه بالقناعة حتى صارت جُنَّةً تقيه المطامع ، ومنَّةً تقوِّيه على الأمل الطامع ...

« وكان مطلعا على العلوم متبحرا في اللغة ، متسع النطاق في العربية ، جامعَ الشعوب للطرق الأدبية ، ندرة في العالم وشذرة في بني آدم ،

ما ولدت مثله الليالي ولا أوجدت شبهه المعالي .

« وله من بدائع النظم والنثر قمراها ، ومن روائع العلم والعمل سمراها ... هذا مع انقطاعٍ حتى عن نفسه ، وامتناع حتى عن أنسه ، ونفارٍ حتى من ظلِّه ،مع ما مُنِيَ به من فقدِ حاسةِ بصره ، وخلوه ممن يماثله في بلده .

« والناس فيه بين مكفِّرٍ ، ومعتقدٍ له الولايةَ ، وما بين بين هذه الغاية » .

ثم نقل « العمري » ما كتبه الكمال ابن العديم ، مقدمة لكتاب (الإنصاف والتحري) .

* * * *

وظل مع ذلك مظلوما .

ومضت قرون ذات عدد ، والتهمةُ تُلقي ظلَّها على أبي العلاء فتحجبه عن أجيال من أبناءِ أمته ، في عصورٍ لم تكن أوضاعها تحتمل أن يُخلى بينهم وبين هذا الأديب الفرد ، يهز وجدانهم بحرٍّ كلمته ، وينفذ إلى قلوبهم وضمائرهم بشرفِ سلوكه وبطولة احتماله وبسالة مقاومته للبغي والطغيان وتمرده على الفساد والنفاق .

ومن عجب أن تلك العصور التي رَجَمَتْ أبا العلاء غضبا للدين ، رثَّ فيها التدين وعاد الإسلام غريبا في ديار الإسلام ، وابتُذِلت قِيمُه في صراع المذاهب ومعترك الأهواء ...

ففيم كانت هذه الحمية للدين : تنكر على أبي العلاء ما حرم على نفسه من متاع الحياة الدنيا وزينتها ، ولا تنكر إباحة المحرمات وانتهاكَ المقدسات والجهر بكبائر الفواحش ؟ تُعنِته بجدلٍ في امتناعه من أكل

اللحم وشرب اللبن ، وتستظرف مجالسَ الشراب والمجون ، وتهلل لبطولاتِ سفاكي الدماء وأكلة حقوق البشر ولحومهم وأعراضهم .

وتأخذه بكلماتٍ جرى بها لسانه ، لم يستطع كتمانها ، تخفيفا عن كربه واحتجاجا على نُكر عصره وفساد مجتمعه ؛ ولا تأخذ آخرين من الشعراءِ والكُتَّاب ومحترفي العلم والتدين ، بوثنية العبودية للبشر والمال ، ولا تحاسب مَن جهروا في ديار الإسلام بادعاء النبوة واعتناق المثنوية ، وبشروا بالحلول والتناسخ والرجعة !

كأن لم يكن في دنياهم غيرَ أبي العلاء ، عدو للدين وخطَر على الإسلام والمسلمين !

داعي الدعاة الذي تصدى لحماية الدين من رهين المحبسين الذي حرَّم على نفسه أكل اللحم ، كان يصغي في نشوة وطرب إلى شاعر دولته الفاطمية « ابن هاني » يشدو للمعز الفاطمي بمثل قوله :

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ
فاحكمْ فأنت الواحدُ القهَّار

وقصور بغداد، التي أنكرت أبا العلاء وشهدته يُخرج من مجلس أحد السادة الأشراف،مطرودا مهانا مسحوبا من رجليه،كانت لا تزال ساهرة على معازف المغنين والمغنيات ، تشدو برجع الصدى من خمريات أبي نواس :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراءُ
وداوني بالتي كانت هي الداء

. . . .

لتلـك أبكي ولا أبكـي لمنزلـة
كانت تحل بهـا هند وأسماءُ

****

عاج الشقي على رسمٍ يسائلـه
وعُجْت أسأل عن خمارة البلـدِ
يبكي على طلل المـاضين من أسد
لا دَرَّ درُّك قل لي من بنـو أسد
ومَـن تمـيمٌ وقيس ولفُّهمـا
ليس الأعاريب عند الله من أحد

. . . .

على مقربة من كربلاء التي شهدت المذبحة التاريخية الفاجعة ، وغير بعيد من دمشق التي كانت لا تزال تسترجع ذكريات المذبحة لأُموية التي انتشى بها « أبو العباس السفاح » على صوت شاعره سديف

لا يغرَّنْكَ مـا ترى من رجـال
إن تحت الضلـوع داءً دويـا
فضع السيفَ وارفع السوطَ حـتى
لا ترى فوق ظهرهـا أمويـا

. . . .

وبقيت الدنيا بخير ، لا يزعجها إلا صوت رهين المحبسين ومسلكه ، يرفض الدنيا ويصوم الدهرَ عن لذاتها ومُتَعها وشهواتها ، ويرق قلبه للحيوان فيعف عن سفك دمه وشرب لبنه وأكل لحمِه !

****

وأعجب من هذا ، أن عقيدة أبي العلاء لم تشغل دارسي الملل والنحل ومؤرخي الفكر الديني ورجاله ، وإنما شُغِل بها مؤرخو الأَدب ومصنفو طبقات أعلامه ، منصرفين إليها عن الأَديب الشاعر اللغوي المفكر ...

عزف الشراح والدارسون والنقاد ، إلا القلة النادرة ، عن الاشتغال بديوانيه الكبيرين ، والدرس النقدي لفصوله وغاياته ، ورسائله الطوال التي تجري مجرى الكتب المصنفة .

وتركوا ما أفلت منها من غوائل الضياع ، رهين محبسين : جدران الخزائن المجهولة ، وحُجُب الإهمال في غيابة النسيان

لا يذكرون شيئا منها ، إلا أن يلتقطوا اسم كتاب أو فقرة منه ، تصلح على وجه من الظن أو التأويل ، لأن يأخذوا منها دليلا على عقيدته التي شغلت جمهرتهم ، غضبا لدينهم !

وهم الذين شُغلوا ، مثلا ، بديوان أبي الطيب ، وأقاموا لصاحبه عرشاً جثوا حولَه سُجَّدا ، جيلا بعد جيل .

وأبو الطيب ، قد ادَّعى النبوَّة فيما علموا وأكدوا ، ومن دعواه أَخَذ لقبه « المتنبي » الذي اشتهر به فيهم وفينا . دون أدنى إحساس بجفوةٍ أو نَبوةٍ أو تحرج !

على حين كان الناس في أمرِ أبي العلاء: « بين مُتَّهِمٍ ، ومعتقدٍ له الولاية . ومَن بينَ بين » كما قال ابن فضل الله العمري .

وما زاد متهموه على أن جرحوه بما حرَّم على نفسه من متاع الدنيا وزينتها . وأخذوه ببعض كلماتٍ له موهِمة ، وأُخرى مدسوسة عليه .

ولم يقل أشدهم ارتيابا فيه وتجريحا له ، إنه ادّعى النبوة كالمتنبي ! ولا استطاعوا قط أن يأخذوه بكلمة شِرك ، أو يجدوا مطعنا في ورعه وعفته . وإن أساءوا تأويل صلابة زهده ، وأنكروا غريب تورّعه وشذوذ أمانته ! وتغاضوا عن مصنفاته الكثار في العِظات والاعتبار ، وأخملوا أشعاره ونجواه ، في تمجيد خالقه وحده ، ورفض العبودية لغيره !

****

ولا تفسير لهذا عند المحققين من دارسيه ، إلا أنه كان نمطا فريدا لا عهد لعصره ، وعصورٍ بعده ، بمثله ، وما ولدت مثله لياليهم ، ومن ثم بقي فيها غريبا ، وصدقت فيه كلمته :

أولو الفضل في أوطانهم غربـاءُ
تشذ وتنـأى عنهـم القُربـاءُ

****

وإذ أصر على رفض حياتهم ، حاولوا أن يرفضوه .

« وقعدوا في أمر عقيدته وقاموا ، وحكوا كُفرَه بالأسانيد ، وكفّره مَن جاء بعدهم بالتقليد » كما قال الكمال ابن العديم .

تشويها لصورة المناضل الشريف ، استغلوا فيه العاطفة الدينية للجماهير ، كي تبقى بمنأى عنه ومعزل .

وزادوه تشويها فقالوا : عدو المجتمع !

وما كان عدوا إلا لأعداء المجتمع .

وأُنسِيَ الناسُ أنه القائل :

ولـو أني حُبِيتُ الخُلـدَ فـرداً

لمـا أحببـت بالخلدِ انفرادا

فلا هَطلتْ علـيَّ ولا بـأرضي

سحائبُ ليس تنتظـم البـلادا

****

الناسُ للناس من بـدوٍ وحـاضرة

بعضٌ لبعضٍ ،وإن لم يشعروا ، خَدَمُ

****

مُلَّ المقامُ فكم أعـاشر أمـةً

أمرت بغيـر صلاحِهـا أمـراؤها

ظلموا الرعيةَ واستجازوا كيدَهـا

وعدَوا مصالحهـا وهم أجراؤهـا

أفضـلُ من أفضلهـم صخـرةٌ

لا تظلم الناسَ ولا تكـذب

. . . .

وطُويَ عن الطلاب « في الشعر الذي ينشد في محافل الطلب » وفي المختار لهم منه بالكتب المدرسية ، ما لا ينبغي لهم أن يسمعوه أو يقرءوه من احتجاج رهين المحبسين ، على منكر الأوضاع ، في أي عصر وجيل :

وهل من وقتهم أبغى وأطغـى

عـلى أيِّ المذاهِـب قلَّبـوه

ولم يرضوا لما سكنوه شيدا
إلى أن فضّضوه وذهّبوه
رجَوا ألا يخيب لهم دعاء
وكم سأل الفقيرُ فخيّبوه
أدِيلَ الشرُّ منكم فاحذروه
ومات الخير فيكم فاندبوه

. . . .

وبدلا من أن يندبوا الخير الذي مات فيهم ، أماتوا مَن نعاه إليهم . وكتموا صوته عن أمته :

أعاذل قد ظلمتنا الملو كُ ، ونحن على ضعفِنا أظلمُ

****

وحذروا الشباب من تشاؤمه . وما كان سوى إنكار للشر ورفض لهوان الآدمية فيهم .

ونسوا أنهم ما فتئوا يروِّجون في الشباب لزهديات أبي العتاهية . ويلحون على وجدانهم بما يئد طموحهم ، من مثل قوله . وهو غارق في الترف بقصر مولاه الرشيد :

لِدُوا للموتِ وابنُوا للخراب فكلُّكمُ يصير إلى التراب

****

وقالوا في أدب أبي العلاء : « إنه جمع إلى سواد التشاؤم . الغموضَ والتعقيد » . وألحوا في تخويفنا من إغرابه وإلغازه . وإنهم ليعلمون أنه تولى بنفسه شرح ديوانيه (سقط الزند ولزوم ما لا يلزم) وفسَّر ما هو

مظنة أن يكون غريبا من ألفاظ : (الفصول والغايات ، ورسالة الغفران ؟ وأتبع كلَّ لغزٍ في كتابه (الألغاز) بحلِّ اللغز وتفسيره . وما كنا ندري قبل أن نقرأه ، أن ألغازه من الفن البديعي ، بل كان اسمُه يذكر لنا دليلا على ولع هذا الرجل المُعَقَّد ، بالإغراب والإلغاز !

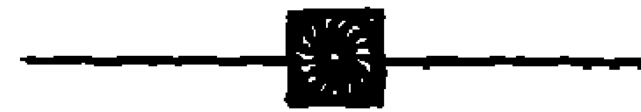
****

وجحدوه أديبا شاعرا ، بدعوى أنه فيلسوف .

وجحدوه حكيما مفكرا ، بدعوى أنه أديب شاعر .

وصوته يأتي من بعيد بعيد :

* أُولو الفضل في أوطانهم غُربـــاءُ *



انحسار الظلام

هَوِّنْ عليكَ ولا تُبالِ بحادثٍ
يُشجيك ، فالأيامُ سائرةٌ بنا
أبو العلاء
(لزوم ما لا يلزم)

****

مع فجر اليقظة من العصر الحديث ، بدأت الظلمة تنجاب رويدا عن الشاعر العظيم الذي أخملته عصورٌ رأت في سلوكه الشريف ومجاهدته الباسلة خَطرا على وجدان الأُمة ، وحذِرت من سلطان كلمته الصادقة وفكره الحر ، على ضمير الشباب .

ومن الحق أن أعترف للغرب الأُوروبي بأنه الذي لَفَتنا من حيث يدري أو لا يدري ، إلى ذلك الأديب الحكيم الخامل المغمور فينا :

سمعنا أن المستشرقين شغلوا بأبي العلاء وتراثه : المستشرق الانجليزي

« نيكلسون » نشر تعريفا برسالة الغفران ، ومختارات له من مشاهدها وفصولها ، في أعدادٍ من مجلة الجمعية الأسيوية الملكية (R.A.S.M.) لسنوات ١٨٩٩ : ١٩٠٢ .

والمستشرق الاسباني « ميجويل آسين بلاسيوس » نشر في سنة ١٩١٧ بمدريد ، دراسته للأصول والينابيع الإسلامية لكوميديا دانتي الإلهية . وفي الكتاب الذي ترجم إلى الانجليزية وهز العالم الأدبي الغربي ، فصل كامل عن تأثر دانتي بأبي العلاء في (رسالة الغفران) [1] .

ونشر « كراتشكوفسكي : عميد المستشرقين الروس » مقدمة (رسالة الملائكة) .

ونشر المستشرق « رجليوث » مجموعة (رسائل أبي العلاء) في السلسلة التذكارية للمستشرق الانجليزي « جِب » .

وتتابعت البحوث والدراسات من دوائر الاستشراق في ألمانيا وهولاندا وإيطاليا ، فالتفتنا إلى أديبنا بعد طول غفلة وإهمال .

وكان للأستاذ العميد الدكتور طه حسين ، الفضل الأول في إحياء (ذكرى أبي العلاء) فينا ، وتقديمه إلى بيئة الدراسات الجامعية : و (ذكرى أبي العلاء) كانت موضوع رسالته إلى الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ .

بعدها ، نشر كتابيه : رهين المحبسين ، ومع أبي العلاء في سجنه .

ودعا إلى نشر تراثه فينا ، وكان هو الذي اقترح أن تكون هدية مصر إلى أبي العلاء في مهرجان ذكراه الألفية بالشام – سنة ١٩٤٤ –

---

(١) عرضته بتفصيل في (الغفران : دراسة نقدية) ط. المعارف بالقاهرة .

ذلك السفر الجامع لما في مكتبة السلف من (تعريف القدماء بأبي العلاء) .

وبإشراف الأستاذ العميد ، نُشرت كذلك شروح سقط الزند ، في طبعة جديدة متقنة ، لدار الكتب بالقاهرة .

وعليه ، قرأنا ـ نحن طلاب الامتياز في اللغة العربية بآداب القاهرة ، رسالة الغفران والفصول والغايات .

وبإشرافه كذلك ، كانت دراستنا العليا في بحوث ونصوص علائية ، لدرجتي الماجستير والدكتوراه ...

****

ونشط الدارسون ، في مختلف أقطار العربية ، يقدمون جهودهم ، تحقيقا لتراث أبي العلاء ، أو دراسة فيه :

في مصر :

نشرت القاهرة سنة ١٩٣٨ طبعة متقنة للقسم الأول من (الفصول والغايات) بتحقيق الأستاذ محمد حسن زناتي ، فنَسَخَتْ ما افتُري عليها من زعم معارضة السور والآيات ، وحسمت الشك فيما ادَّعوه (قرآن أبي العلاء) بيقين كلماته مناجاة ضراعةٍ وابتهال ، وعظاتٍ تمجيد للخالق الواحد وقنوت ، ومواجِد صوفي أديب يحاول بأشق المجاهدة ، أن يتداوى من محنة دنياه باليأس منها .

وفي سنة ١٩٤٤ ، مع (تعريف القدماء بأبي العلاء) نشرت فينا لأول مرة ، نصوص من (كتاب الألغاز) صححت الخطأ الشائع عنه ، وقدمته إلينا تجربة شعرية لأبي العلاء في فن الإلغاز البديعي .

وفي سنة ١٩٥٠ ، نشرت دار المعارف بالقاهرة ، في سلسلة ذخائر

العرب ، النص الذي حققته منهجيا لرسالة الغفران ، وأضيف إليها في الطبعات الأربع بعدها ، نص محقق لرسالة ابن القارح ، مفتاح فهم نص الغفران ، فأتاحت لنا هذه النصوص المحققة ، مادة دراسات جديدة ، كاشفة لمجهول من شخصية أبي العلاء ، ومصححة لأوهام فيه .

وبلغ من رواج هذا النص المحقق لرسالة الغفران ، أن نفدت طبعات الذخائر الخمس ، في سنوات معدودات ومع إلحاح الضغط على طلبها ، نشرت « دار صادر ودار بيروت » طبعة لها مزورة ، عن طبعتنا الثالثة في الذخائر . ثم نشرت « دار إحياء التراث العربي – بيروت » طبعة أخرى منقولة بتدليس ، من الطبعة الرابعة للذخائر .

****

وفي سورية :

نشرت دمشق (رسالة الملائكة) بتحقيق الأستاذ محمد سليم الجندي أكملت عملَ كراتشكوفسكي في نشر مقدمة الرسالة ، وأضافت جديد إلى ما لدينا من تراث أبي العلاء ، وعلمٍ بفنه الأدبي ورؤاه الوجدانية ومهارته اللغوية .

وإلى جانب هذه الذخائر المحققة ، نُشِرت طبعات تجارية ، في مصر وسورية ولبنان ، لآثار علائية أُخرى ، منها : اللزوميات ، وعبث الوليد ، وملقى السبيل . سدت بعض الفراغ ، رغم ما يعوزها من التوثيق العلمي والتحقيق المنهجي ، ريثما يتاح لنا الظفر بنصوص لها محققة .

****

وتلقت المكتبة العربية الحديثة ، عددا غير قليل من الدراسات العلائية ، شارك فيها باحثون ومؤلفون من مختلف الأقطار ، أذكر منها :

أبو العلاء وما إليه	:	عبد العزيز الميمني	الهند
المهرجان الألفي لأبي العلاء	:	بحوث ومحاضرات لأعضاء الوفود	ط : دمشق
الجامع في أخبار أبي العلاء	:	محمد سليم الجندي	سورية
النقد واللغة في رسالة الغفران	:	أمجد الطرابلسي	سورية
أبو العلاء	:	عمر فروخ	لبنان
أبو العلاء ناقد المجتمع	:	زكي المحاسني	سورية
أبو العلاء المعري	:	أحمد تيمور	مصر
رأيٌ في أبي العلاء	:	أمين الخولي	»
رجعة أبي العلاء	:	عباس العقاد	»
الحياة الإنسانية عند أبي العلاء	:	عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء)	مصر
لغفران : دراسة نقدية	:	»	»
راءة جديدة في رسالة الغفران (نص مسرحي من القرن الخامس)	:	»	»
ابو العلاء المعري : أعلام العرب :	:	»	»
مدينة السلام في حياة أبي العلاء — نشرته وزارة الثقافة ببغداد	:	»	»

. . . .

وآن الأوان لنعرف أبا العلاء :

الأديب المفكر الحر : قاوم في بسالةٍ تقرب من الاستشهاد ، مغريات الحياة ونوازع الغريزة وفتنة الرغبة والرهبة ، كي تسلم له كرامة إنسانيته وحرية فكره وصدق كلمته ، وصام الدهر كله محققا بسلوكه العملي كلمة قالها « الشنفرى » شاعرنا الجاهلي الصعلوك ، من قديم الزمان :

أُديم مطالَ الجوع حتى أُمِيتَه
وأصرف عنه الذكرَ حينا فأَذهلُ
وأستفُّ تربَ الأرض كيلا يرى له
عليّ من الفضلِ امرؤٌ متفضلُ
ولولا اجتنابُ الذامِ لم يبق مشربٌ
يُعاش به إلا لديّ ، ومأْكلُ

والضرير البصير : لم يفقد وعيَه في دوامة الأعاصير ، ولم يُعْشِ

نظرَه وهَجُ الذهب وبريقُ السيف ، ولا أخطأ طريقه في داجي الظلمة ، ولا غفلت بصيرته ، والناس من حوله مخدرون نيام ...

والحبيس الطليق : التزم أمانة النضال عن وجود أمته ، وتمرد عنها ، على الطغيان والاستعباد والفساد ، فضرب لنا مثلًا فذًّا لجبرية الالتزام يفرضها الضمير الحي أمانة وتكليفا ...

****

آن الأوان ليُبعث أبو العلاء فينا من وراء ألف عام ، يصحح فهمنا للقيم الأدبية ويضبط موازيننا لأقدار الذين يحملون رسالة الأدب وأمانة الفكر والكلمة .

****

وبعد ،فما أرتاب في أن «أبا العلاء» سيبقى حيا في ضمائر الأجيال الخالفة من بنينا . ولعله يشفع لنا عندهم – حين يراجعون تاريخنا الأدبي البائس – أنْ شرُفنا بهذا الشاعر الفرد ، وقدَّمناه إليهم شاهدا على مدى ما تطيق إنسانيتنا الكريمة الحرة ، من بسالة المجاهدة وبطولة الاحتمال .

وسلام على شاعري أبي العلاء ...

دليل

مَطبعَة العلوم
حارة حريك . لبنان

ش ٤٠

هذا الكتاب

« أبو العلاء » ، ... هذا النموذج الفذ ، بَيْن
« أساطين العربيّة » ، وبَيْن « فرسان القريض » ، وبَيْن
« علماء الدين » ، كان إلى كل ذلك ، وفوق كل ذلك ،
انساناً من نوع فريد ! ...
يعرفه الناس « رهين المحبسين » ، ولا يدرون معركة الحياة - مع نفسه ومجتمعه - ، التي خاضها لينتهي إلى هذا الوضع ...
ويعرفه الناس كشاعر مجيد ، ولا يحيطون بسموّ مواقفه ومعانيه ، وتفرّدها بجرأة لا تدانيها جرأة المحاربين المتهوّرين .
هذه الدنيا من القمم : كيف تتألّق ، وتحققت في حياة فرد ؟ ...
كتاب « مع أبي العلاء في رحلة حياته » ،
يقدّمها لك في أحدث مجهود علمي ، للباحثة العالمة ، إبنة الشاطئ ، فيكشف لك القناع عن أروع تجربة حياتية قُدِّرت لمكفوف عبر العصور ! ..
إقرأه ! فأنت كإنسان ، وكعربي ، لا مندوحة لك عن قراءته ...

الناشر

Bibliotheca Alexandrina
04001501